سلسلة تراث الإمام عبد الحميد الفراهيّ الهنديّ (٢)



جمهرة البلاغة

الإمام عَبْدِ الحميدِ الفَراهِيّ

1280- 1349 هـ

دراسة وتحقيق

الدكتور محمد خالد الرهاوي   الدكتور عامر خليل الجراح

SENABEL
دار سنابل

جمهرة البلاغة

جمهرة البلاغة

تأليف: الإمام عبد الحميد الفراهي

دراسة وتحقيق: الدكتور محمَّد خالد الرَّهاوي

الدكتور عامر خليل الجرَّاح

الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م

قياس القطع: ١٧ × ٢٤

الرقم التسلسلي: ISBN: 978- 605- 81117- 4- 5



دار سنابل للتحقيق والطباعة والنشر

تركيا ـ اسطنبول ـ الفاتح ـ شارع فوزي باشا

جانب البريد التركي ـ الشارع العام ـ بناء (١١) مكتب (٨).

Akşemsettin Mahallesi, Fevzi Paşa Cd.

No:١١,٨ - ٣٤٠٨٠ Fatih/İstanbul

هاتف:٢٥٢٣٥٦٥٤ (٠٠٩٠٢١)

جوال:٣٥٠٥٣١٦٥ (٠٠٩٠٥٥)

البريد الإلكتروني:snabldar@gmail.com

BASKI

Step Ajans Matbaacılık Ltd Şti.

Göztepe Mah. Bosna Cad. No. 11

Bağcılar - İSTANBUL

Tel: 0212. 446 88 46

Matbaa Sertifika No: 12266



للإمام عبد الحميد الفَرَاهِيّ

(١٢٨٠هـ - ١٣٤٨هـ)

دراسة وتحقيق

الدكتور محمَّد خالد الرَّهاوي الدكتور عامر خليل الجرَّاح


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَه، وبعدُ:

فهذا كتاب جمهرة البلاغة؛ الكتاب الثاني من سلسلة إحياء تراث الإمام عبد الحميد الفراهيّ، نقدِّمه للقارئ العربي، وهو كتاب قيّم لما يحمله من أفكار تجديدية في البلاغة العربية؛ إذ يدعو صاحبه إلى بلاغة تنطلق من رؤية إسلامية وعربية خالصة، رؤية إسلامية بما تلتزم به من مراعاة للمقاصد الشريفة والصدق، ورؤية عربية خالصة بما تدعو إليه من مراعاة المناسبة والصوابيّة والبيان وما شابه ذلك من المبادئ التي سارت عليها البلاغة العربية في عصورها الأولى قبل أن يمسّها تأثير الثقافات الأخرى، إنها تعدّ بذلك بلاغة متمايزة عن البلاغة اليونانية والبلاغة العربية المتأثرة بالمنطق اليوناني.

إنّ هذا التمايز دفعنا إلى تقديم عرض تاريخي موجز نبيّن من خلاله المكانة التي تتنزّل فيها بلاغة الفراهيّ، وذلك ببيان موقفه من البلاغة في مراحل نشأتها، وببيان موقعه من محاولات تجديد البلاغة. ونرى أنّ وقوع بلاغة الفراهيّ في منزلة بين منزلتي التقليد والتجديد في إفادته من النمطين أعطاها مكانة عالية، ونشير إلى أنّ بلاغة الفراهيّ لا تمثّل مشروعًا ناضجًا واضحًا من جهة التقسيم، إنّما هو مشروع يتأسس على مبادئ يمكن الخروج منها بصورة جليّة لبلاغة عربية جديدة.

جعلنا الكتاب في ثلاثة أقسام: القسم الأول للدِّراسة، وأدرناه على ثلاثة مباحث؛ كل مبحث منها يشتمل على مطالب على النحو الآتي:

المبحث الأول: البلاغة القديمة؛ الأسس والنَّشأة، نذكر فيه سيرورة نشأة البلاغة القديمة كما أخذناها عن السكّاكيّ، فجعلناه في ثلاثة مطالب: الأوّل من البحوث اللّغويّة إلى النقد، والثاني من الدراسات النقديّة إلى الإعجاز، والثالث من البحث في وجوه الإعجاز إلى نشأة البلاغة.

المبحث الثاني: البلاغة الجديدة؛ التجديد والإحياء، نذكر فيه محاولات التجديد المتداولة، وجعلناه في مطلبين: الأول في موقع البلاغة بين الأسلوبية والحِجاج التداولي في الدراسات الحديثة، والآخر في البلاغة الحيّة بين الأسلوبية والتداوليّة من وجهة نظر خاصّة.

المبحث الثالث: بلاغة الإمام الفراهيّ؛ نظرات جديدة، وهو صلب الدراسة، وفيه نناقش محاولات التجديد عند الإمام الفراهيّ ـ رحمه الله ـ من خلال كتابه الذي بين أيدينا (جمهرة البلاغة)، فجعلناه في ثلاثة مطالب: الأوّل: جمهرة البلاغة؛ المصطلح والمفهوم، والثاني: تبويب الكتاب وتوصيفه، والثالث: المقولات المؤثّرة في فكر الفراهيّ؛ عرض ونقد.

أما القسم الثاني فكان تحقيق كتاب جمهرة البلاغة، ضبطنا فيه النصّ، وصحّحنا ما وقع فيه من زلات أو نبّهنا عليها، وقمنا بإتمام ما نقص ممّا جاء فيه من بياض في الأصل، وشرحنا ما يحتاج إلى شرح، وخرّجنا ما يحتاج إلى تخريج من دواوين الشعراء ومصادر الكتاب وما إلى ذلك.

أما القسم الثالث فجعلناه للفهارس الفنية لتسهيل العودة إلى الكتاب والانتفاع به، فصنعنا فهارس للدراسة وللنص المحقق وما ورد فيه من آيات وأشعار وأعلام وموضوعات.

وبعدُ فهذا جهد نرجو أن يقع من القارئين والباحثين موقع القبول، وأن يسهم في خدمة العربية وعلومها، وأن ينفع به.

والله من وراء القصد

المحققان

إسطنبول ١/ ٤/ ٢٠١٩



الإمام عبد الحميد الفراهي[١]

ولد الإمام عبد الحميد الفراهي عام ١٢٨٠هـ في قرية «فريها» التي تتبع مديريّة أعظم كره في ولاية أُتَّرابَراديش - لأسرةٍ كريمةٍ ثريّةٍ، لها مكانتُها الاجتماعية، إذ إنَّ أهلَه من وجهاء منطقته وأعيانها، ولهم أيضًا منزلةٌ علميّةٌ، كلُّ ذلك هيَّأ له أن ينشأ في رخاء من العيش، وأن يتفرَّغ لطلب العلم، دون أن يحمل همَّ الحاجة إلى وظيفةٍ من أجل لقمةِ العيش، ولا تحدوه رغبةٌ في التَّقرُّب من أهل السُّلطة والجاه، بل عُرِف بِنُفورِه منهم وعدمِ رغبتِه في لقائهم؛ ولذلك لم يرتبط بأي علاقة مع الأمراء والأثرياء في حيدر آباد ولا في غيرها مع رغبتهم هم بذلك.

بدأ تعليمَه أوّلًا بقراءةِ القُرآن على يد المؤدِّب الشَّيخ أحمد علي، فحفظه وهو ابنُ عشر سنوات، ثمَّ تعلَّم اللُّغة الفارسيَّة في تسعة أشهر، وكتب فيها شعرًا، وترجم إليها ومنها. ثم شرع - وهو ابن أربعة عشر ربيعًا - يتعلَّم علومَ العربية على يد ابن عمَّتِه العلَّامة شبلي النُّعمانيّ من نحوٍ وصرفٍ ولغةٍ وأدبٍ وفلسفةٍ ومنطقٍ حتَّى برع فيها، وألَّف معظم كتبه باللُّغة العربيّة، كما تتلمذ

---

(١) هذه الترجمة من ترجمتنا للفراهي في مقدمة كتابنا الأول من هذه السلسلة «شعر الإمام عبد الحميد الفراهي»، وتجنّبًا للتكرار عمدنا إلى الاختصار وحذف الهوامش والإحالات، فمن أراد أن يعرف المزيد عنه فليراجع ترجمته هناك.

على يد الأديب البارع والشاعر المفلق فيض الحسن السهارنفوري ١٣٠٤هـ في لاهور، وقرأ عليه دواوين كثير من الشعراء والمجموعات الشعرية وبعض كتب المعقولات. وتلقَّى الفقهَ من الفقيهِ المُحدِّث الإمامِ أبي الحسنات عبد الحي اللكنويِّ ١٣٠٤هـ بعد انتقاله إلى مدينة لكناؤ، كما أَخذَ بعض كتب المعقولات عن الشَّيخِ فضلِ الله بن نعمةِ الله الأنصاريِّ ١٣١٢هـ.

بدأ في العشرين من عمره بتعلُّم اللُّغة الإنكليزيَّة والعلوم الحديثةِ، فالتحقَ بثانوية كرنلغنج في مدينة الله آباد، ثُمَّ التحق بكلية عليكره، فدرس الفلسفة الحديثة على يد المستشرق الإنكليزي توماس أرنولد، وحصل فيها على درجة الامتياز، إضافةً إلى اهتمامه باللُّغة الإنكليزيّة، وقد تعلَّمها حتى نالَ فيها شهادةً، ولم يكن تعلُّمُه للغةِ التَّواصُل فيها فحسبُ، بل أَلَّف فيها، وترجم عنها.

بعد أن أكمل تعليمَه بدأ بالتَّدريس في مدرسة الإسلام في كراتشي عاصمةِ السِّند مُعلِّمًا للعربيَّة والفارسيّة، واستمرَّ فيها تسع سنوات، كتب فيها وأَلَّفَ، ونَظَمَ كثيرًا من الأشعار، ثُمَّ اختير عام ١٩٠٧م لتدريس العربيَّةِ في كليّة عليكره، وظلَّ فيها أعوامًا أيضًا، وكان المستشرق الألمانيُّ يوسفُ هارويز (١٩٣١م) أستاذَ العربيّة في تلك الفترةِ، فاستكملَ تعلُّمَ العربيَّة على يدي الإمامِ الفراهيِّ، وعلَّمَ الإمامَ الفراهيَّ اللُّغةَ العبريّة حتى صار ماهرًا فيها مُتقنًا لها يرجِعُ إلى مصادرِها مُباشرةً ولا سيَّما في بحوثِه القرآنيَّةِ، كما درس الحقوقَ مُدَّةَ سنتينِ، ولم يكمل تحصيلَه فيها لنُّفورِه منها.

انتقل من كلية عليكرة إلى حيدر آباد الدكن رئيسًا لمدرسةِ دار العلوم العربيَّة الأميريَّة النِّظاميّة التي كانت تُخرِّج قضاةَ البلاد وولاتها، ثُمَّ سعى جاهدًا من أجل تأسيسِ الجامعة العُثمانيَّة التي تُدرِّس العلومَ الدِّينيَّة والعصريَّة باللُّغة الأورديَّةِ، فكان له ما أراد، كما أَسَّسَ مدرسةً عربيَّة دينيَّة قريبةً من قريتِه سمَّاها مدرسةَ الإصلاح بهدف تدريس علومِ القرآن والحديثِ والفقه بعيدًا عن العصبيَّة المذهبيَّة، إضافةً إلى تعليم اللُّغة العربيَّة وعلومِها بأساليبَ معاصرةٍ وطرائقَ مختلفةٍ عن الطَّرائقِ التَّقليديّةِ غيرِ النَّافِعة، كما أسهم في تأسيس دار المُصنِّفينَ تذكارًا للعلَّامة شبلي النعمانيّ، وترأَّسَ لجنة المُديرينَ فيها.

انقطع إلى التأمُّل والتَّدبُّر في القرآن الكريم والنَّظر فيه مستفيدًا ممّا تلقى من علومٍ دينيّةٍ ولغويّةٍ وعقليّة مُعملًا عقلَه وذوقَه، ففتحَ الله عليه بتدبُّراتٍ وأفكارٍ عظيمةٍ جعلتْه يشعرُ بالنَّدمِ على الوَقْت الذي أضاعَه في غيرِ تدبُّر القرآن، وبقي كذلك حتى وفاته سنة ١٣٤٩ هـ عن تسع وستين عامًا.

ترك الإمام عبد الحميد الفراهيُّ تراثًا كبيرًا غنيًّا يقرب من سبعين كتابًا ورسالةً بلغاتٍ عدَّةٍ كالأورديّة والعربيّة والإنكليزيّة والفارسيّة، وبعضُ كتبِه قد أنهى تأليفَها، وطُبِعت في حياتِه أو بعدَ مماتِه، وبعضُها الآخرُ لم يكتمل، وطُبِع بعد وفاتِه، وخلا كثيرٌ منها من مقدِّماتٍ له لتلك الكتبِ، كما خلَت بعضُ مباحثِها من الشَّواهد، وبعضُها جاء في بضع ورقات، ذلك أنَّه كان يعملُ في تأليفِ أكثرَ من كتابٍ في وقتٍ واحدٍ، يتدبَّر ويتأمَّل، ثُمَّ يدوّن الفكرة في

الكتاب المُناسب لها، وهذا ما جعل كتبَه مفتوحةً ليست مُقيَّدةً بمخططٍ مُعيّن ما عدا كتابَه حججَ القرآن، ولم يُقدَّر له إتمامُ معظمها، ويمكن تصنيف كتبه في ثلاثِ مجموعاتٍ كبرى هي: الإبداع الشِّعريّ، والتَّرجمة، والتَّأليف، وهذه المجموعة الأخيرةُ يمكن أن تُصنَّف في مجموعاتٍ صغرى حسب موضوعاتها، وإن كانت مضامينُها تتداخل أحيانًا بين اللُّغةِ والدِّين أو بين الفلسفةِ والدِّين.

❋ ❋ ❋




القسم الأوّل: الدّراسة

توطئة في نشأة علم البلاغة وتطوره.

المبحث الأوّل: البلاغة القديمة؛ الأسس والنشأة:

- **المطلب الأوّل**: من البحوث اللّغويّة إلى النقد.
- **المطلب الثاني**: من الدراسات النقدية إلى الإعجاز.
- **المطلب الثالث**: من البحث في وجوه الإعجاز إلى نشأة البلاغة.

المبحث الثاني: البلاغة الجديدة؛ التجديد والإحياء:

- **المطلب الأوّل**: البلاغة بين الأسلوبيّة والحِجاج التداوليّ في الدراسات الحديثة.
- **المطلب الثاني**: البلاغة الحيّة بين الأسلوبيّة والتداوليّة من وجهة نظر خاصّة.

المبحث الثالث: بلاغة الإمام الفراهيّ؛ نظرات جديدة

- **المطلب الأوّل**: جمهرة البلاغة؛ المصطلح والمفهوم
- **المطلب الثاني**: تبويب الكتاب وتوصيفه
- **المطلب الثالث**: المقولات المؤثّرة في فكر الفراهيّ؛ عرض ونقد.

توطئة
في نشأة علم البلاغة وتطوره

مرّت البلاغة منذ نشأتها حتّى عصرنا الراهن بمراحل مختلفة نستطيع أن نجملها في ثلاث: أولاها: مرحلة النشأة التي تمتدّ حتّى جهود السكّاكيّ (٦٢٦هـ) الناظمة لأفكار عبد القاهر الجرجانيّ (٤٧١هـ)، والتي تمثّل المرحلة الثانية التي شاعت زمنًا طويلًا امتدّ من القرن السابع إلى أيامنا هذه، أما المرحلة الأخيرة فتتمثّل في الدراسات البلاغية التجديدية المتأثرة بالدراسات الغربية المتجلّية في الأسلوبية التي ظهرت عند أحمد الشايب في «علم الأسلوب» وأمين الخولي في «فنّ القول»، وذلك قبيل منتصف القرن العشرين بقليل، ثم ما زالت هذه الدراسات تشقّ طريقها إلى يومنا هذا، ولنا أن نطلق على بلاغة السكّاكيّ وامتداداتها اسم البلاغة القديمة، وأن نسمّي الأسلوبية البلاغة الجديدة. لقد تعاصرت هاتان البلاغتان منذ ظهور البلاغة الجديدة، غير أن البلاغة القديمة كانت أشد حضورًا في مجال التعليم، لقد كانت أشدَّ وضوحًا ونضجًا من المرحلة الأولى (النشأة) التي لم تتضح، والأخيرة (الأسلوبية) التي لم تنضج بعد، مع الإشارة إلى وجود صلة بين تلك المراحل التي كانت البلاغة القديمة عروتها الوثقى، وظهرت حديثًا بلاغة جديدة أخرى غير الأسلوبية هي بلاغة الحِجاج بتأثير الدراسات التداوليّة الغربية التي نقل المغاربةُ أكثرَها إلى الساحة العربية.

وبين هاتين البلاغتين أو البلاغات الثلاث برزت بلاغة ذات طابع خاصّ عند الإمام الفراهيّ رحمه الله، وسنحاول أنّ ننتقل بالتدرّج من نشأة البلاغة القديمة بطابعها السكّاكيّ والأسس التي قامت عليها إلى البلاغة الجديدة بطابعيها الأسلوبيّ والحِجاجيّ التداوليّ، ثمّ ننتهي إلى الحديث عن بلاغة الإمام الفراهيّ ومكانها من كل ذلك؛ إذ لا يمكن اجتزاء بلاغة الفراهيّ من السياق العام لسيرورة البلاغة العربية بين القديم والحديث، ثمّ إننا وفق هذا النهج نقدّم عرضًا تاريخيًّا موجزًا ووافيًا عن سيرورة البلاغة العربية، كما أننا نمهّد لفهم البلاغة التي نادى بها الفراهيّ من خلال ذلك العرض، ونبيّنُ أصول البلاغة وامتداداتها المتنوّعة، فلعلّ ذلك يسهم في قدح زناد الفكر للخروج ببلاغة تقويّ لدينا ملكة التلقي والتعبير والوعي والنقد والقراءة، وذلك فوق عرض الدراسة هذه لجمهرة البلاغة.

المبحث الأول: البلاغة القديمة؛ الأسس والنشأة:

أثَّر النقد اللغوي الذي أدلى به النحاة في مجال بحثهم عن الشاهد، وتحديد عصر الاحتجاج = في الحركة النقدية، فحدّدوا معايير قبول اللغة في إطار زماني ومكانيّ معيّنَين: إلى منتصف القرن الثاني وقلب الجزيرة وما قاربها، وجعلوا العمدة في ذلك البعد عن الاختلاط بالأعاجم، لـمّا لاحظوا الآثار السلبية لذلك الاختلاط، فراحوا يحتاطون للّغة، فمرّ عملهم إزاء لغة عصر الاحتجاج بمرحلتين:

- ✓ **المرحلة الأولى: تحديد اللغة بتحديد الإطار الزماني والمكانيّ.**

✓ **المرحلة الثانية: تمكين اللغة باتباعيّة النقد للمعايير اللغوية.**

ثمّ انتقل الأمر بالتدرّج إلى اهتمامات النقّاد والبلاغيين، وهنا نلمس بروز مرحلتين:

• **المرحلة الأولى: تقديس اللغة** باتباعيّة الإعجاز للنقد والنقد اللغوي وإرجاع أساليب القرآن إلى أساليب العرب المتقدّمين، فكان النقاد يتكلمون على فنون البديع التي هي فنون البلاغة نفسها، وهي الفنون نفسها التي اتّكأ عليها المتكلّمون لبيان وجوه إعجاز القرآن الكريم.

• **المرحلة الثانية: توطين اللغة** بتأسيس البلاغة على توخّي نحو اللغة (معرفيًّا)، وعلى نقد الشعر (ذوقيًّا)، ومن ثَمّ الكشف عن وجوه إعجاز القرآن. لقد كان البحث عن سرّ الإعجاز الأساس الأبرز الذي كشف عن أسئلة البلاغة وحدودها، ومن ثمّ أسهم في نشأتها.

المطلب الأول: من البحوث اللّغويّة إلى النقد:

لقد كان تأثير اللغويين في النقاد كبيرًا؛ ظهر ذلك على مستويات عدّة نذكر منها: الاتجاهات والمدارس النقدية مثل (الطبع والصنعة)، والمشاريع النقدية مثل (بيان الجاحظ وبديع ابن المعتزّ)، والمعايير والقواعد النقدية مثل (نظام القصيد وعمود الشعر)، والقضايا النقدية مثل (السرقات وتوليد المعاني)، والمقولات النقدية كالقول القائل: (ما ترك الأوَّلُ للآخر). وسنقدّم إضاءات لذلك فيما يأتي:

أولًا: الاتجاهات والمدارس النقديّة:

لعلّ التّلاد الأكبر الذي أورثته الدراساتُ اللغويةُ الدراساتِ النقديّةَ يتمثّل في تأثير التقسيم اللغويّ للشعراء إلى فحول في عصر الاحتجاج، ومولّدين في العصور التالية = في تقسيم النقادِ الشعرَ بين مدرستين: الأولى الطبع، والأخرى البديع أو الصنعة.

الطبع والصنعة:

تتصل ثنائية الطبع والصنعة بقضية عمود الشعر[١] اتصالاً وثيقًا؛ ذلك أن عمود الشعر الذي كان معيارًا لتمييز جيد الشعر من رديئه هناك، أصبح هنا كذلك معيارًا يميز شعر الطبع من شعر الصنعة في وجه من الوجوه، فالشاعر المطبوع هو الشاعر الذي عرى شعره من التكلف والتصنع، وكان متسمًا بصحة المعنى، وجزالة اللفظ، وغير ذلك من السمات التي تجتمع تحت عنوان عمود الشعر. ونذكر، كذلك من السمات التي تجسّد الطبع، الدلالةَ على الفطرة البدوية الصافية من كدر العجمة والتحضر، ويمكننا القول: إن الضرب الأول من السمات ذو طابع عملي، والثاني نظري. ومن الضربين يظهر أن الطبع يرتبط بالفحولة، ويتعزّز هذا الرأي بما ذكره الآمدي في أثناء موازنته بين البحتري (شاعر الطبع) وأبي تمّام (شاعر الصنعة)، إذ يذهب إلى أن أصحاب البحتريّ، وهم الكتّاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة، احتجوا له ليقدّموه على أبي تمّام بِنَسْبه إلى حلاوة اللفظ، وحسن التخلّص، ووضع الكلام في

(١) سنفصّل فيه في أثناء الكلام على المعايير النقدية.

مواضعه، وصحّة العبارة، وقرب المأتى، وانكشاف المعاني، ولأنه أعرابي الشعر، مطبوعٌ، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف. فأصحاب البحتري هم دعاة الشعر الفحولي ومقلدوه، وشعره على نمط أشعار الفحول. أما أبو تمّام فيذكر الآمدي أن أصحابه هم أهل المعاني وأصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفيّ الكلام، وهؤلاء احتجوا له مقدّمين إياه على البحتري بِنَسْبه إلى غموض المعاني ودقّتها، وكثرة ما يورِد ممّا يحتاج إلى استنباطٍ وشرحٍ، ولأنه شديد التكلّف، وصاحب صنعةٍ، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولّدة(١).

إن للصنعة في التراث النقدي مدلولين: الأول تهذيب الشعر وتنقيحه من غير تعمّل، والآخر التكلّف والتعمّل فيه (طلب البديع)؛ يقول ابن رشيق: «ومن الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولًا، وعليه المدار. والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفًا تكلف أشعار المولّدين، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سمّوه صنعة من غير قصد ولا تعمّل، لكن بطباع القوم عفوًا، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره، حتى صنع زهير الحوليّات على وجه التنقيح والتثقيف... والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنّس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي

(١) يُنظر: الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري ٣/١ وما بعدها.

وتلاحم الكلام بعضه ببعض»[١]. فالمدلول الثاني هو مقصودنا هنا، فهو يمثل شعر المولدين أصحاب مدرسة البديع، وهو يقابل تمامًا شعر الفحول المطبوعين أصحاب مدرسة الطبع، وبينهما الشعر المجوّد (المعنى الأول للصنعة المذكور آنفًا) الذي تكلم عليه الجاحظ؛ إذ قال: «قال الأصمعي: زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، وكذلك كل من جوّد في جميع شعره ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يُخرِج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة، وكان يقال: لولا أن الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلّف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهر الكلام، واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين، الذين تأتيهم المعاني سهوًا ورهوًا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالًا. وإنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي ورؤبة. ولذلك قالوا في شعره: مُطرَفٌ بآلافٍ وخِمارٌ بوافٍ. وقد كان يخالف في ذلك جميع الرواة والشعراء. وكان أبو عبيدة يقول ويحكي ذلك عن يونس»[٢]. فعندنا الشعر على ثلاثة أضرب: مطبوع، ومصنوع، ومصنوع مطبوع.

ثانيًا: المشاريع النقديّة:

لقد كان تأثير الدراسات اللغوية في النقد كبيرًا إلى حدّ بناء مشاريع نقدية وفق معطيات القوانين اللغوية، ونشير هنا إلى بيان الجاحظ (٢٥٥هـ)، وبديع ابن المعتزّ (٢٩٦هـ) بوصفهما نموذجين بارزين.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ١/١٢٩.

(٢) البيان والتبيين ٢/١٣. معنى سهوًا ورهوًا: سهلاً لّينًا دمثًا، ومعنى مُطرَفٌ بآلافٍ وخِمارٌ بوافٍ: وشاح وخمار نفيسان ثمينان.

١ـ مفهوم البيان عند الجاحظ:

يبيّن الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) مفهوم البيان في قوله: «الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله- عزّ وجلّ- يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم. والبيان اسم جامع لكل شيء، كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأنه مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام»[١]، فالبيان يرتبط بالمعنى اللغويّ الذي هو الإفهام، وبالمعنى التداوليّ الذي هو التواصل والتوصيل، ويعزّز هذا المفهوم للبيان بذكر أدواته؛ يقول: «وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها»[٢].

---

(١) البيان والتبيين ٧٥/١.

(٢) البيان والتبيين ٧٦/١. فالبيان يكون باللفظ أي الكلام المفهوم، والخط، وهو الكلام المكتوب، والإشارة وتكون بحركات الجسم كاليد والعين والحاجب وغيرها، وهو ما يُطلق عليه حديثًا اسم لغة الجسد، والعقد هو الحساب والعدّ بعقد الأصابع، والحال أو النصبة تكون بدلالة الجمادات والسواكن والعجماوات بما تترك من أثر في النفس والفكر. البيان والتبيين ٧٩/١- وما بعدها.

فالبيان عند الجاحظ ارتبط وفق ما تقدّم بالوضوح والصواب، وبالفهم والإفهام؛ إنه جزء من المشروع النقديّ المتأثّر بالمشروع اللغويّ، وهو بذلك يسهم مع المشروعات الأخرى ذات الطابع العربيّ الأصيل الذي تمثله مدرسة الطبع وقوانينها يسهم = في ترسيخ مفهوم الطبيعة العقلية العربية التي تميل إلى الوضوح والمقاربة والمناسبة. لقد كان مصطلح (البيان) حاضرًا بقوة في كتابات الجاحظ، وليس بأدل على ذلك من توظيفه عنوانًا لأبرز كتبه في الأدب، وأبرز كتب الأدب بعامّة، وهو (البيان والتبيين)، وظهر أنّ البيان عنده ذو مفهومين:

أ ـ المفهوم العام:

وهو المفهوم الذي يتّسع ليتجاوز دلالات لغة الكلام، فتشمل جميع وسائل التعبير الممكنة؛ نشير هنا إلى قوله: (وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة) وهذه الخمسة تعبّر عن المفهوم العام للبيان.

ب ـ المفهوم الخاص:

يدلّ المعنى الخاصّ على البيان بلغة الكلام المقول والمدوّن وحدهما دون سائر وسائل التعبير الأخرى. ومن هنا فان المعنى الخاص لمفهوم (البيان) أراد منه الجاحظ، إذ يتدرّج من المفهوم العام إليه، أراد أن يبيّن أن هذا النوع من البيان خاصّ بالعرب في سياق حديثه عن العربية وموقع العجم منها، إنه يدلّ على الفصاحة (اللفظ) والبلاغة (المعاني ومطابقة الحال).

نشير هنا إلى دلالة البيان على البلاغة والفصاحة من خلال ذكر أهمّ مقولتين تبنّاهما الجاحظ في بيان مفهوم البيان والبلاغة عند العرب؛ نعني هنا البلاغة عند العتّابيّ التي تنبني على مفهوم الفصاحة، فهي تعني إفهامك العربَ حاجتَـك على مجاري كلام العرب الفصحاء الذين لم يفسد سليقتهم الاختلاط بالأعاجم[١]، أمّا المقولة الآخرى فتتعلّق بصحيفة بشر بن المعتمر التي تركّز على مراعاة أحوال السامعين[٢]. إنّ الفصاحة في المقولة الأولى ومراعاة أحوال المستمعين في الأخرى جسّدتا الأساس في تعريف البلاغة فيما بعد عند المتأخّرين.

إذًا لم يخرج الجاحظ عن السياق العربي في بيان مفهوم البيان والبلاغة والفصاحة، وارتبط ذلك بما كان قد تقرّر عند اللغويين ثم النقاد من بعدهم في تقديم العرب الأقحاح الفحول على المولّدين هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن منطلق الجاحظ في بناء مشروعه البيانيّ كان أساسه الآخر هو الردّ على الشعوبيين الذين كانوا يحطّون من شأن العرب.

٢ـ بديع ابن المعتزّ:

ذكر ابن المعتزّ في كتابه ألوان البديع وشواهدها في الأدب العربي قرآنًا وحديثًا وشعرًا ونثرًا، يريد أن يبيّن فيه أن ما جاء به المولّدون من بديع، إنما قد سُبقوا إليه، إذ له شواهد من كتاب الله ثم في حديث رسوله ثم في كلام

---

(١) يُنظر: نفسه ١/١٦١ـ ١٦٣.

(٢) نفسه ١/١٣٨-١٣٩.

الصحابة والأعراب وبلغاء الكتاب ثم في الشعر العربي الجاهلي فالإسلامي، وهو يشير هنا إلى زمن الاحتجاج، في مقابل زمن المولّدين أو المحدثين؛ يقول: إنّ «بشارًا ومسلمًا وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ـ البديع ـ ولكنه كثر في أشعارهم فعُرِفَ في زمانهم حتى سُمّي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه، ثم إن حبيب بن أوس الطائي شغف به حتى غلب عليه وأكثر منه فأحسن في بعض وأساء في البعض الآخر، وإنما كان يقول الشاعر من ذلك الفنّ البيت والبيتين في القصيدة، وربما قُرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع»[(١)]، فالغرض الأول منه «تعريف الناس أنّ المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع»[(٢)].

مال ابن المعتز إلى مناصرة مذهب القدماء المتعصبين للقديم (أصحاب مدرسة الطبع) الذين كانوا يزدرون نهج المحدثين وقصدَهم البديع وتكلّفه، وسار على نهجه جمع كبير من النقاد، ولا ننسى أن نشير إلى تأثير الدرس اللغويّ وأطروحاته في ذلك، فكان لابن المعتزّ في كتابه (البديع) صدى واسع من حيث التوجّه وعرض الفنون في اللاحقين له؛ إذ أثّر في قدامة بن جعفر في (نقد الشعر)، وفي الآمديّ في (الموازنة)، وفي ابن رشيق في (عمدته)، وفي الباقلانيّ في (إعجاز القرآن)، وفي أبي هلال في كتابه (الصناعتين)، وفي عبد القاهر في كتابه (أسرار البلاغة).

---

(١) البديع ص٢.
(٢) نفسه ص٣.

ثالثًا: المعايير النقديّة:

أسهم الدرس اللغويّ في تأطير النقد من الداخل فيما يُسمّى بعمود الشعر، ومن الخارج فيما يُسمّى بنظام القصيد، وتفصيله الآتي:

١. عمود الشعر (نظام القصيدة الداخلي):

يُعدّ الآمديّ (٣٧٠هـ) أوّل من تكلّم على عمود الشعر في كتابه (الموازنة)؛ غير أنه لم يحدّد قوانين ذلك العمود، إنّما تكلّم كلامًا عامًّا عليه، وكان يصرّح بأنّه معروف، وأنّ البحتري أقوم به من أبي تمام[١]. فعمود الشعر، كما يوضّحه الآمديّ، هو مجموعة قوانين مستنبطة من شعر البحتريّ تحديدًا الذي سار فيه على خطا الشعر الجاهلي، تلك القوانين تميز الشعر السائر على العمود من شعر المولّدين الذين خرجوا عن العمود وأبعدوا في المعاني، بمعنى أنه سمة خاصّة بالشعر المطبوع الذي احتذى حذو الشعر الجاهلي، وعُرف دعاته بأصحاب مدرسة الطبع، سمة تميّزه من الشعر المولَّد الذي عُرف باسم الشعر البديع أو الشعر المنتمي إلى مدرسة البديع.

لقد كان كلام الآمديّ على عمود الشعر وقوانينه مشتّتًا، ربّما لأنه كان يرى أنه معروف، وربّما لأنه كان يعمل على مشروع نقدي تطبيقي لا نظري، وظلّ الأمر كذلك عند القاضي الجرجانيّ (٣٩٢هـ) في كتابه التطبيقي كذلك (الوساطة بين المتنبّي وخصومه)[٢]، فذكر شيئًا من قوانين عمود الشعر كالإصابة

---

(١) يُنظر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ١/٤-٥.

(٢) يُنظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه ص٣٣-٣٤.

في الوصف وقرب التشبيه والمثل السائر، في مقابل التجنيس والمطابقة والاستعارة والإبداع التي وُسم بها الشعر البديع.

ثم يتّضح الأمر مع المرزوقي (٤٢١هـ) أكثر، إذ أفاد من سابقيه في تحديد القوانين في كتابه (شرح ديوان الحماسة) أي حماسة أبي تمّام، فقد مهّد لشرحهِ بمقدمة نقدية قيمة عالج فيها عددًا من القضايا النقدية المهمة، أتى في جانبٍ منها على ذكر عمود الشعر، وفي تحديده يقول المرزوقي: «إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه والمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل باب منها معيار»(١).

نستطيع أن نُجمل ما فصّله المرزوقي في وصفهِ لعمود الشعر في: أن منها ما يعود إلى اللفظ، ومنها ما يعود إلى الأسلوب، ومنها ما يعود إلى الخيال، أما اللفظ فيطلب منه المرزوقي الشرف والرفعة، والصحة والصواب، أما الأسلوب فيطلب منه المتانة والانسجام، والألفاظ المتميزة، والقافية المواتية للمعنى، أما الخيال فيطلب منه قرب التشبيه، ومناسبة المستعار منه للمستعار له.

والحقّ أن تلك القوانين كان لها تأثيرها في حركة الشعر بعامّة وشعر

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٩/١.

الوصف بخاصّة، ونقصد هنا شعر الطبع الذي سار على نهج الشعر الجاهليّ، وعدّه المثال الذي يجب أن يُحتذى، إنها لا تُعدّ قوانين إلزام بقدر ما تعدّ أوصاف لطبيعة الشعر الجاهليّ وأسلوبه في الوصف.

٢. نظام القصيد: (نظام القصيدة الخارجي):

أوّل من تحدّث عن نظام القصيد هو ابن قتيبة (٢٧٦هـ)؛ إذ قال في كتابه (الشعر والشعراء): «سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقَصِّد القصيد إنما ابتدأ فيه بذِكْر الديار والدِّمَن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الرَّبع، واستوقف الرفيق؛ ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها؛ إذ كان نازلة العَمَد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المَدَر؛ لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتَتَبُّعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد، وألم الفراق، وفَرْط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب؛ لِما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقًا منه بسبب، وضاربًا فيه بسهم، حلال أو حرام، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقّبَ بإيجاب الحقوق فرحل في شعره، وشكا النَّصَب والسَّهَر، وسُرى الليل، وحرّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح، فبعثه على المكأفاة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغَّر في قدره الجزيل، فالشاعر المجيد من

سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يُطِلْ فيُمِلَّ السامعين، ولم يقطع، وبالنفوس ظماءٌ إلى المزيد... وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدّمين في هذه الأقسام»[١].

لقد رُسم الهيكل البنائي الموضوعيّ للشعر الجاهلي مستقى من عيون الشعر الجاهلي التي تتمثّل في بعض المعلّقات. ذلك يؤكّد بطريقة غير مباشرة تماسك القصيدة الجاهلية، ويبيّن جانب المقصدية لدى الشعراء في اختيار أغراضهم الشعرية، والتنقّل بين غرضٍ وآخر، ثم تمّ بعد ذلك تقرير أنه على الشاعر أن يسلك تلك الأساليب حتى يكون مجيدًا، كما قُرّر أنه ليس للمتأخرين أن يخرجوا عنها. ونشير إلى أنّ ابن قتيبة نقل ذلك الكلام ولم يتبنّه، إنما كان ناقلًا له فحسب[٢].

رابعًا: القضايا النقديّة:

إنّ من أبرز القضايا النقدية المتأثّرة بالدرس اللغويّ قضيتَي السرقات والتوليد المتعلّقتين بالمعاني والألفاظ، وهما ترتبطان بموقف النقاد من كيفية تعامل الشعراء المولّدين مع معاني الشعراء الفحول.

١ـ السرقات الشعرية (تداخل النصوص):

السرقة هي أن يؤخذ المعنى السابق دون إنتاج معنى جديد، إنما يكون التجديد في الصياغة أو التوظيف. إنّ استقراء واقع حديث النقاد عن السرقات

(١) الشعر والشعراء ١/٧٥-٧٧.

(٢) يُنظر: نفسه ١/٦٤.

يُظهر لنا أنّهم نظروا إليها بوصفها حُكْمًا نقديًّا تنقّلَ بين الرداءة والجودة، وتأثّرَ بأطروحات اللغويين وتحديداتهم بين قديم يمثّل النموذج الأمثل الذي ينبغي أن يُحتذى، ومُحدَث مقلّد وآخذ، ويُبدي لنا استقراء المصنّفات النقديّة والبلاغيّة أن القاضي الجرجاني في كتابه (الوساطة) من أبرز المتكلّمين في قضية السرقات؛ إذ أصّل لها ببيان مفهومها وأهميتها من جهة، ومن جهة أخرى بتقسيم الكلام الذي قد يدخل في دائرة أحكام السرقة إلى: مبتذل لا يؤبه به، ومشترك لا يصحّ الحكم عليه بالسَّرَق، ومختصّ فيه مجال التداول والحكم بالسرقة وخلافها[1]؛ ونرى أنه قد أفاد في ذلك من الآمدي في (موازنته). ويظهر أنّه كان محايدًا في أحكامه وموقفه من القديم والحديث، غير أنّ مجرد فكرة مقارنة المحدث بالقديم تستدعي ذلك الشعور باستعلاء القديم، كما تستدعيه الأوصاف أو المصطلحات المرتبطة بمعنى السرقة؛ كتلك التي ذكرها ابن رشيق من مثل: السَّرَق والسَّلخ والاصطراف والاختلاب والانتحال والادّعاء والإغارة وغيرها[2]، وكلّها تتأسّس على الموقف من أخذ اللفظ أو المعنى أو التركيب، وعلى ظهور الأخذ أو خفائه، وعلى القصد وغير ذلك. لعلّ الأقسام التي اشتهرت في أوساط النقاد، ولا سيما المتأخّرين، هي: النسخ، وهو أخذ المعنى بلفظه من غير تغيير له، والسلخ، وهو أن يُؤخذ المعنى ويُغيّر لفظه قليلًا في معرض جميل وهيئة حسنة، والمسخ، وهو أخذ المعنى على أن يُخرج في معرض رديء وهيئة قبيحة؛ ذكرها ابن الأثير في الجامع الكبير[3].

---

(١) يُنظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه ص١٨٣.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ٢/٢٨٠ وما بعدها.

(٣) يُنظر: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص ٢٤٢-٢٤٣.

لعلّ رسوخ فكرة أن الأوائل خاضوا في كل المعاني، وأن الأول ما ترك للآخر شيئًا، كانت حاضرة في أذهان النقاد في أثناء حديثهم عن السرقات وأنواعها، بأمارة أنهم وقفوا على طرق أخذ اللفظ أو المعنى، ولم يلتفتوا إلى جماليات الأخذ الكامنة في حسن التوظيف، فلمّا التفت القزوينيّ إلى حسن توظيف الأخذ ذهب إلى عدّ السرقات من أبواب البديع[1]؛ ذلك حين تكلّم على ملحقات السرقة كالتضمين والاقتباس، في حين أنه، في كلامه على التقسيمات قبلُ، اقتفى أثر سابقيه من النقاد في اعتماد أخذ اللفظ أو المعنى معيارًا للتقسيم، فقضية السرقات قبل أن تدخل في أبواب البلاغة والبديع كانت عُرضة لسهام النقّاد وخضوعًا لأذواقهم يحاولون أن يضعوا معايير لها بناءً على طريقة أخذ اللفظ أو المعنى أو الصياغة أو البنية، أو تأسيسًا على المقصدية، أو اتكاءً على التوظيف، وبالجملة تأثّرًا بالتحديدات اللغوية، وكان الأخير ـ أعني التوظيف ـ المؤثّر الأبرز في دخول السرقات في البديع عند القزوينيّ كما تبيّن، وثمّة جانب آخر أسهم في تجميل صورة السرقات يتمثّل في أن يكون المأخوذ أبلغ من المأخوذ منه بتحسين لفظ أو زيادة معنى أو نحو ذلك.

٢ـ توليد المعاني (تخارج النصوص):

ارتبط مصطلح التوليد في النقد بمصطلح الشعراء المولّدين، والمولّدون هم الشعراء الذين استحدثوا في الشعر ما لم يكن من معاني العرب المتقدّمين وكلامهم[2]،

(١) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٢/٥٧٥ وما بعدها.

(٢) يُنظر: لسان العرب (ولد).

على أن تركيز النقاد كان على اعتبار التوليد في المعاني أكثر منه في الألفاظ؛ إذ كان ابن جنّي يرى جواز الاستشهاد بمعاني المولّدين دون ألفاظهم[١]، وكان النقاد ينظرون إليهم، وفق ذلك، بوصفهم أتباعًا لشعراء المدرسة التي تقع بمقابل مدرسة البديع، وهي مدرسة الطبع التي أُطلق على شعرائها لقب الشعراء الفحول، وكلّ هذه التسميات وفدت إليهم من اللغويين. فالمولّدون على تأخّر زمانهم عن الفحول لم يتحرّروا من معانيهم، فهم بين حالين: أن يسرقوها أو أن يولّدوا منها، تلك كانت نظرة النقاد الطبعيّين إليهم، والاختراع والإبداع أمر آخر لم يلتفت إليه من النقاد إلا مَن ناصَرَ مدرسة البديع. ولعلّنا نقرّب ذلك التصوّر النقديّ بما ننقله عن ابن طباطبا العلويّ، وذلك قوله: «ستعثرُ في أشعار الـمُوَلَّدين بعجائب استفادوها ممَّن تقدَّمهم، ولطفوا في تناولِ أصولها منهم، ولبَّسوها على من بعدهم، وتكثَّروا بإبداعها فسلّمتْ لَهُم عند ادِّعائها للطيف سحرهم فيها، وزخرفتهم لمعانيها، والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدّ منها على من كان قبلهم؛ لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخَلابَة ساحرة. فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ولا يربي عليها لم يُتَلقَّ بالقبول، وكان كالمُطَّرِح المملول»[٢].

نقوم الآن بسياحة سريعة في أقاليم النقد نكشف النقاب عن ذلك التصوّر النقديّ للتوليد، ومن ثمّ ينكشف لنا الموقف من الشعراء المولّدين عند أبرز النقاد والبلاغيين الخائضين في هذا المجال.

---

(١) يُنظر: الخصائص ١/٢٤.

(٢) عيار الشعر ١٢- ١٣.

وضّح ابن رشيق معنى التوليد وفق ما أسلفنا من أنه ينبني على إنتاج معنى جديد من معنى سابق، وميّزه من السرقة ومن الاختراع فجعله بينهما؛ يقول: «التوليد: أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدَّمه، أو يزيد فيه زيادة؛ فلذلك يسمى التوليد، وليس باختراع؛ لما فيه من الاقتداء بغيره، ولا يقال له أيضًا سرقة إذا كان ليس آخذًا على وجهه»[١]. فيبدو أن التوليد، إذ يكون في زيادة المعنى، هو درجة من درجات السرقة متقدّمة، وقد يظهر ازدياد تقدّمه عليها حين نقف على شرح الدلالة الأخرى للتوليد، وهي استخراج معنى من معنى، فهذا الاستخراج هو المعنى الموافق للفظ التوليد والمراد منه؛ إنه يدلّ على إعادة إنتاج المعنى بناء على معنى سابق. هل نسلّم بأن الشاعر اللاحق علمَ بمعاني السابق فولّد منها كما يذهب إلى ذلك النقّاد الذين تحدّثوا عن التوليد، أو نسلّم بأن المعاني التي وقع منها التوليد كانت شهيرة بين الشعراء، أو ذلك كلّه من باب تنقيب الشعراء عن المعاني وبراعتهم في البحث عن الوشائج التي تربط بينها؛ قد نميل إلى الرأي الأخير مع اعتبار الآراء الأخرى، فالنقاد في ظل بحوثهم في المعاني وتقعيدها، وفي ظلّ موقفهم من القديم والجديد أي الطبع والبديع، راحوا يوازنون بين المعاني، وينظرون إلى بعضها على ضوء بعض، ويكشفون عن العلائق بينها، مبرزين قدرتهم على المقارنة. إننا أمام توجّه معرفيّ نحو البحث عن معايير التصرّف في المعاني؛ لمسنا ذلك في أثناء الحديث عن التوليد الذي يتقعّد بالزيادة، والاستخراج، كما لمسناه في تتبّع أحوال السرقات في اللفظ، أو المعنى، أو التركيب (الصياغة)، أو المقصدية، أو التوظيف.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ٢٦٣/١.

كان توليد المعاني في العصر العبّاسيّ ظاهرة بارزة بدأت وبدأ التفات النقاد إليها تحت تأثير الموقف من الشعر القديم والجديد والموازنة بينهما، ولمـّا كان الحديث عن الألفاظ مجال اشتغال الفصاحة، وكان الحديث عن تركيبها من اختصاص النحاة، وهما مجالان ضيّقان، وجد النقاد في الحديث عن المعاني وتركيبها المجال الأرحب لدراساتهم. إنّ الانتقال من الدراسات اللغوية النحوية المهتمّة بجانب الصوابيّة والصحّة بما يتعلّق بالألفاظ وتركيبها إلى الدراسات النقديّة التي سارت على الخطا نفسها في تحرّي الصحّة لكن بما يخصّ المعاني في ذاتها أو بائتلافها مع الألفاظ، فتح المجال فسيحًا أمام النقاد لبناء مشاريعهم المعرفيّة أو طرح آرائهم الذوقيّة، كما كان لبروز ظاهرة الشعراء المولّدين الأثر الأكبر في ذلك. لقد كان الاشتغال بالمعاني ديدن الشعراء كذلك في تلك الحقبة؛ ربّما بتأثير الثقافات الوافدة إلى العربيّة، وتحوّل البيئة العربية عن سابق عهدها على الأصعدة كافّةً، الأمر الذي وسّع من آفاق الشعراء وحرّرهم من أغلال عمود الشعر.

خامسًا: المقولات النقديّة:

(ما ترك الأول للآخِر شيئًا):

تعدّ مقولة (ما ترك الأول للآخِر شيئًا) من مفرزات الموقف من القديم والحديث؛ وهي تعني أنّ الشعراء المتقدّمين خاضوا في كل المعاني، وليس على المتأخرين من المولّدين إلا أن يدوروا في فلكها سرقة أو توليدًا؛ يقول ابن عبد ربّه (٣٢٨هـ): «لم تزل الاستعارة قديمًا تُستعمَلُ في المنظوم والمنثور، وأحسن

ما تكون أن يستعار المنثور من المنظوم، والمنظوم من المنثور، وهذه الاستعارة خفية لا يؤبه بها لأنك قد نقلت الكلام من حال إلى حال، وأكثر ما يجتلبه الشعراء، ويتصرف فيه البلغاء، إنما يجري فيه الآخر على السنن الأُوَل، وأقل ما يأتي لهم معنى لم يسبق إليه أحد، إما في منظوم وإما في منثور، لأن الكلام بعضه من بعض، ولذلك قالوا في الأمثال: ما ترك الأول للآخِر شيئًا. ألا ترى أن كعب بن زهير ـ وهو في الرعيل الأول والصدر المتقدّم ـ قد قال في شعره:

ما أرانا نقولُ إلّا مُعارًا ... أو مُعادًا من قولنا مكرورا

ولكن قولهم: إن الآخر إذا أخذ من الأول المعنى، فزاد فيه ما يحسّنه ويقرّبه ويوضحه، فهو أولى به من الأول، وذلك كقول الأعشى:

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ ... وأخرى تداويتُ منها بها

فأخذ هذا المعنى الحسن بن هانئ فحسنه وقرّبه؛ إذ قال:

دعْ عنكَ لومي فإنّ اللومَ إغراءُ ... وداوِني بالتي كانتْ هيَ الدّاءُ»[١]

وفي المقابل من القول بتحديد أسبقية المتقدّمين إلى المعاني ينقل ابن رشيق قول ابن قتيبة مع جملة من الأقوال التي توضح سُنّة الإعادة والتكرار؛ وأن القِدَم والحداثة أمر نسبيّ؛ يقول: «لم يقْصُر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ قومًا دون قوم، بل جعل الله ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثًا في عصره. ومما يؤيد كلام ابن

---

(١) العقد الفريد ١٨٦/٦

قتيبة كلام علي رضي الله عنه: (لولا أن الكلام يعاد لنفد). فليس أحدنا أحقّ بالكلام من أحد... وقول عنترة[١]:

هل غادر الشعراء من متردّمِ . . . .

يدل على أنه يعد نفسه محدثًا، قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه ولم يغادروا له شيئًا، وقد أتى في هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدّم، ولا نازعه إياه متأخّر. وعلى هذا القياس يُحمل قول أبى تمام وكان إمامًا في هذه الصناعة غير مُدافَع:

يقولُ من تقرعُ أسماعه كم تركَ الأولُ للآخرِ

فنقض قولهم (ما ترك الأول للآخر شيئًا)، وقال في مكان آخر فزاده بيانًا وكشفًا للمراد:

فلو كانَ يفنى الشعرُ أفناهُ ما قرتْ حياضُكَ منهُ في العصور الذواهبِ

ولكنّه صوبُ العقول إذا انجلتْ سحائبُ منهُ أُعقبتْ بسحائبِ

وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين: ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن، والقدرة ظاهرة علية وإن خشن... وقال أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع وقد ذكر أشعار المولدين: إنّما تروى لعذوبة ألفاظها، ورقتها، وحلاوة معانيها، وقرب مأخذها، ولو سلك المتأخّرون مسلك المتقدّمين في غلبة الغريب على أشعارهم

---

(١) البيت من الكامل، ديوان عنترة ص١٨٢، وتمامه:

هل غادرَ الشعراءُ من متردَّمِ أم هل عرفتَ الدّارَ بعد توهّمِ

ووصف المهامه والقفار، وذكر الوحوش والحشرات ما رويت؛ لأن المتقدّمين أولى بهذه المعاني، ولا سيما مع زهد الناس في الأدب في هذا العصر وما قاربه، وإنما تكتب أشعارهم لقربها من الأفهام، وأن الخواص في معرفتها كالعوام، فقد صار صاحبها بمنزلة صاحب الصوت المطرب: يستميل أمّة من الناس إلى استماعه وإن جهل الألحان وكسر الأوزان.. وقائل الشعر الحوشيّ بمنزلة المغنّي الحاذق بالنغم غير المطرب الصوت: يُعرض عنه إلا من عرف فضل صنعته، على أنه إذا وُقِفَ على فضل صنعته لم يصلح لمجالس اللّذّات، وإنّما يُجعَلُ معلمًا للمطربات من القَيْنات: يقوّمهنّ بحذقه، ويستمتع بحلوقهنّ دون حلقه، ليسلمنَ من الخطأ في صناعتهنّ، ويطربن بحسن أصواتهنّ. وهذا التمثيل الذي مثله ابن وكيع من أحسن ما وقع، إلا إنه أوّله من قول أبي نواس[١]:

صفـةُ الطلـول بلاغـةُ القُـدْمِ   فاجعـلْ صفاتِك لابنـة الكرْمِ

لا تُخدعـنّ عـن الـتي جُعلتْ   سُـقْمَ الصحيح وصحةَ السُّـقْمِ

... والذي أختاره أنا التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر، ويبقى غابره على الدهر، ويبعد عن الوحشي المستكره، ويرتفع عن المولد المنتحل، ويتضمن المثل السائر، والتشبيه المصيب، والاستعارة الحسنة»[٢]. إن القول المطلق إن النقد كان تابعًا لتقييدات اللغويين بالكلّيّة قولٌ فيه تعسّف، غير أننا ننظر إلى الطابع العام والغالب، فنحكم وفقه.

(١) البيتان من الكامل، ديوان أبي نواس ص١٤٠، وفيه: الفَدْمِ لا القدمِ، والفَدْم: العيّي عن الحجّة والأحمق والجافي..

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ٩١/١ وما بعدها.

المطلب الثاني: من الدراسات النقدية إلى الإعجاز:

ارتبط النقد بالبلاغة ارتباطًا وثيقًا، وكانت البلاغة أبرز وجوه الإعجاز، من هاتين القاعدتين ننطلق لبيان كيفية انتقال المتكلّمين من النقد إلى الإعجاز في سيرهم لإثبات دلائل الإعجاز ووجوهه، فلا بدّ، بدءًا، للكشف عن صلة النقد بالبلاغة = من بيان نظرة النقاد القدماء للنقد، فجملة ما يوضّح ذلك ما أورده السيوطيّ (٩١١هـ) في حاشيته على تفسير البيضاوي، يقول في ذكره لعلوم البلاغة وتوابعها: «إن ذلك كان يسمى قديمًا صنعة الشعر، ونقد الشعر، ونقد الكلام... وإنما التسمية بالمعاني والبيان والبديع حادثة من المتأخرين»[١]. فالنقد لم يكن مستقلًا بذاته كما نعرفه اليوم، ولم يكن علمًا أو نظرية أو مفهومًا متفقًا عليه عند القدماء، فتتبُّعُ آثارهم ذات الصلة يُبرز ما ذكره السيوطي من أن النقد إنما هو علوم البلاغة، فكتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر الذي يُعدّ أهمّ كتابٍ واضحٍ في النقد يتضمّن الكلام على اللفظ والمعنى إلى جانب الوزن والقافية، فيذكر فيه أبوابًا من البلاغة كالسجع والمقابلة والتشبيه والتمثيل والمساواة والإرداف وغيرها، كما يذكر أمورًا تتعلق بعلم القوافي كالإقواء والإيطاء والتخليع، ونشير إلى أن قدامة كان واعيًا ومنظّمًا لعمله؛ إذ انطلق من المعنى اللغوي لكلمة (نقد)، وهو تمييز جيد الشعر من رديئه، وربط ذلك بالبديع الذي كان قديمًا شاملًا لأغلب الفنون البلاغية المعلومة اليوم؛ ذلك أنّه سمّى كتابه (نقد الشعر في البديع) بحسب ما ذكر

---

(١) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي) ٣١/١.

حاجي خليفة[1]، فنرى أن قدامة قد ذكر المحاسن والعيوب المتعلقة باللفظ والمعنى والوزن والقافية. يبدو أن علم الوزن والقافية هو ما عناه السيوطي في قوله: توابع علوم البلاغة، ولعلّ السكّاكيّ الذي سبقه بنحو ثلاثة قرون قد تكلّم على ما يمكن عدّه من توابع البلاغة على نحو أوسع؛ إذ ذكر الصرف والنحو والاستدلال والعَروض والقوافي، وقبلهما قدّم عبد القاهر بين يدي نظريته في النظم والمعنى ومعنى المعنى (البلاغة) كلامًا على أهمية الشعر والنحو، بمعنى أنّ النقاد والبلاغيين العرب القدماء كانوا على وعي تامّ بالتماهي بين البلاغة وتوابعها وبين النقد.

من كتب النقد التي تحمل اسم (نقد الشعر) صراحة، ويراد بها علوم البلاغة كتاب (البديع في نقد الشعر) لأسامة بن منقذ (٥٨٤هـ)؛ تكلم فيه على بعض الأفانين البلاغية كالتجنيس والتشبيه والقلب والتضمين وغيرها، ويظهر أنه لم يتّبع منهجًا منظمًا كما فعل قدامة، ويلاحظ ـ كما هو شأن قدامة ـ ذكره المحاسن والعيوب، ما يحيلنا إلى مبدأ التقويم في النقد.

والحق أن حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون) ذكر خمسة كتب تحمل اسم نقد الشعر هي: نقد الشعر لقدامة، ونقد الشعر لمحمد بن عبد الله الخطيب الإسكافيّ (٤٢٠هـ)، والبديع في نقد الشعر لمحمد بن يوسف الكفرطابيّ المعروف بابن المنيرة (٥٣٣هـ)، ونقد الشعر لابن الخشّاب النحويّ (٥٦٧هـ)، ونظم الدرّ في نقد الشعر لعليّ بن إسماعيل السخاويّ (٦٣٢هـ)، بينما أورد كتاب ابن منقذ تحت

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١٩٧٣/٢.

اسم (البديع في علوم الشعر)[١]. اشتهر في العصر الحديث كتابا قدامة وابن منقذ، ولا يُعلم إن كانت الكتب الأخرى قد وصلت إلينا، ولعلها أن تكون قد أفادت من الكتب السابقة، وأنّها لم تخرج عن دائرة البديع كما يبدو من عنواناتها.

ويهمنا أن نؤكد أن نقد الشعر عند العرب القدماء كان يرتكز على المفهومات البلاغية إلى حدٍّ كبيرٍ، ولا سيّما مصطلح البديع الذي ظهر مع بروز موجة الشعراء المولّدين، فكوّن الحديث في النقد الإرهاصات الأولى لنشأة البلاغة، مع الإشارة إلى أن حدود البلاغة لم تكن قد ترسّمت آنذاك، وأن مصطلح البلاغة نفسه لم يكن واضحًا، فكان يلتبس بالفصاحة حينًا، وبالبيان حينًا، وبالبراعة حينًا، فعبد القاهر الجرجاني، على سبيل المثال، جمع بين تلك الأسماء في تركيب واحد، وجعلها ميدانًا للتفاضل بين البلغاء وخصّها بالنظم والتأليف بين المفردات الذي يبلغ أقصى بلاغته في تعبيره عن المعاني الثانوية[٢]. فالكلام على نقد الشعر متزامن مع الكلام على البلاغة، فثمة أبواب مشتركة بين المجالين، غير أن ما يفرق بينهما، بحسب الفهم المعاصر لكل من البلاغة والنقد، هو أن البلاغة ذات أحكام جاهزة قبلية، وهي لا تقوّم على المستوى النظري، بل إنها لا تقارب النصوص الموسومة بـ(الرداءة) في العمل الأدبي إلا في مجال الكلام على شروط الفصاحة، وهي لا تعلّل بل تكتفي بالتوصيف، أمّا على المستوى التطبيقي فقد يختلف الأمر قليلًا، فهي تخالف النقد الذي كان تاليًا للعمل الأدبي وكان يقوّم وقليلًا ما كان يعلّل.

---

(١) يُنظر: نفسه ٢/١٩٧٣.

(٢) يُنظر: دلائل الإعجاز ص٣٤- ٣٥.

وهكذا نجد أن النقد في مستواه النظري يتفق مع البلاغة ويتكئ على مفهوماتها، أو بمعنى أدقّ: يفضي إليها، ولعلّ مصطلح البديع في دلالته على المدرسة المقابلة لمدرسة الطبع كان المنطلق الأبرز للجمع بينهما، بيد أن النقد على مستوى التطبيق يتسع لمفهومات جديدة لم يكن للبلاغة حظّ من الحديث عنها، وإن كانت متصلة بها على نحو أو آخر، من ذلك قضية الطبع والصنعة وقضية السرقات الشعرية وغيرهما من القضايا.

يظهر لنا أن النقد يمكن أن يُدرَس انطلاقًا من غاياته؛ إذ رأينا أن النقد على ضربين: نقد يكون لذاته، وآخر لغيره. فالأول يدلّ على وعي العرب بالنقد وانشغالهم به، والآخر يحاول التأسيس لعلوم أخرى أو حل إشكالات عرضية أو جوهرية في ميدان ما، ويمكن أن ندعّم هذا الكلام بقول الجاحظ: «طلبتُ علم الشعر عند الأصمعي فوجدتُه لا يُحسنُ إلا غريبه، فرجعتُ إلى الأخفش فوجدتُه لا يُتقنُ إلا إعرابه، فعطفتُ على أبي عبيدة فوجدتُه لا ينقلُ إلا ما اتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردتُ إلا عند أدباء الكتاب: كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبد الملك الزيات. قال الصاحب على أثر هذه الحكاية: فللّه أبو عثمان!! فلقد غاص على سرّ الشعر، واستخرج أرقّ من السحر»[1].

أما النقد الذي يكون لغيره فنجمله في اتجاهين:

• أولهما النقد الذي ينطلق من دراسة اللغة في نحوها وصرفها وغريبها، وهو النقد اللغويّ.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ١٠٥/٢.

• والآخر هو النقد الذي يبحث فيه الأصوليون أو المتكلّمون عن أسرار إعجاز القرآن، ونسمّيه النقد الأصوليّ.

وأما النقد الذي يكون لذاته فقسّمناه، استنادًا إلى معطيات النقدين السابقين، إلى ضربين:

• الضرب الأول هو النقد الذي ينطلق ممّا تفرزه دراسة الشعر لغايات لغوية، حيث إن تلك الدراسة، في سعيها لتحديد مادة احتجاجها من الشعر، وتأطيره زمانيًّا ومكانيًّا = سلطت الأضواء على مسألة (الفحولة) التي قسمت الشعر إلى مدرستين: مدرسة الطبع التي يمثّلها الشعراء الفحول، ومدرسة البديع المتمثّلة بالشعراء المولّدين. وعلى هذا الأساس قام النقاد بدراسة الشعر أي بالموازنة بين أصحاب المدرستين، فتشكّل ما يمكن أن نسمّيه (نقد الموازنات)[1].

• الضرب الآخر هو النقد الذي يدرس الوجوه البلاغية التي أفرزتها عملية البحث في بدائع الشعر، وفي توظيف الشعر في الكشف عن دلائل الإعجاز، وهذا ما نستطيع أن نطلق عليه اسم (النقد الأصوليّ) الذي أفضى أكثر من غيره إلى نشأة (النقد البلاغيّ) الذي اتجه نحو نقد اللفظ (الفصاحة)، ونقد المعنى (البلاغة)[2]، ومن ثمّ نشأت إثر ذلك علوم البلاغة عند السكاكّي.

---

(١) نمثّل لذلك بكتاب الآمدي (الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتريّ)، وكتاب القاضي الجرجانيّ (الوساطة بين المتنبي وخصومه).

(٢) نشير هنا إلى كتاب (سّر الفصاحة) لابن سنان، وكتابي عبد القاهر (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة).

نستطيع القول: إن العامل الذي أسهم على نحو كبير في تحديد معالم النقد، ومن ثمّ البلاغة، هو انقسام النقاد إثر تقسيمهم الشعر إلى مدرستين: الطبع، والبديع. لقد ظهر تيار يمجّد الشعر الأول الذي ينتهي إلى منتصف القرن الثاني عند ابن هَرْمة، وهو الزمن الذي انتهى عنده الاحتجاج؛ إنه تيار النحاة واللغويين الذين كانوا سدنة النقد إذّاك، فكان تأثيرهم على من غيرهم من النقاد كبيرًا، بله الشعراء، وكان من أبرز نتائج ذلك التأثير وضع قوانين للشعر تستسقي من السمات العامّة للشعر الأول تمثّلت فيما يُدعى (عمود الشعر)، وقد عقب ذلك التيار تيارٌ جديدٌ هو تيار المولِّدين الذين كانوا يولّدون المعاني، ويخرجون على قوانين عمود الشعر الذي يقوم على الإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والمناسبة في الاستعارة[1].

لقد كانت قوانين عمود الشعر ضوابط فكريّة عامّة تعلّقت بالنقد، وأثّرت في النظرة العامّة للبلاغة، عل أنها لم تكن منطلقًا للدراسين نحو ضبط معاقد البلاغة، والأمر نفسه بعد ظهور حركة البديع. لقد ظلّ الحديث عن البلاغة متأثّرا بالنقاشات النقدية والدوران في حلقة مفرغة عمادها ترديد ذكر الفنون البلاغية دون ضابط يجمع شتاتها سوى اعتماد الذوق.

ليس ببعيد عن تلك الأجواء كان الأصوليون يشتغلون بنقد الشعر متأثرين بحركة النقد العامّة الذوقية؛ يوظّفون ذلك في بحثهم عن دلائل الإعجاز؛ لأنهم كانوا يرون أنّ الله سبحانه تحدّى العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو

---

(١) يُنظر: شرح ديوان الحماسة ٩/١.

بشيء منه بما هم أهل فصاحة وبيان، فكانوا يرون أنّ الإعجاز البلاغي هو هدفهم، ومن ثمّ التقى الاتجاهان: الأصولي واللغوي في شطّ البلاغة، وسارا إلى الغاية التي وقفت فيها المجهودات البلاغية القديمة عند مشروع السكّاكيّ.

فالأصوليون المتكلّمون اشتغلوا بالنقد للكشف عن إعجاز القرآن من جهة، ومن جهة أخرى استعانوا بالفنون والاصطلاحات التي وضعها النقاد؛ إذ إنها فنون بلاغية باعتبار ما سيكون، وإذ إنّ البلاغة هي وجه الإعجاز الأوضح عندهم، وسنوضّح الأمر أكثر في المطلب الآتي.

المطلب الثالث: من البحث في وجوه الإعجاز إلى نشأة البلاغة[1]:

سنتكلم ههنا على مجالين يتعلّقان بأثر البحث عن وجوه الإعجاز في نشأة البلاغة، الأول نبيّن فيه ماهية الإعجاز، فيكون مدخلًا إلى الآخر الذي يُعنى ببيان جهود علماء الإعجاز في نشأة البلاغة.

أولًا: ماهيّة الإعجاز:

لقد تحدّى الله ـ سبحانه ـ العرب صراحة في عدة مواضع أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بجزء منه، والواقع أنّهم عجزوا عن ذلك، فمنهم من حاول فكان مثار سخريّة القوم، ومنهم من عجز عن المحاولة، والمتتبّع لآيات التحدي يدرك أنّ التحدّي موجّه للمشركين والكافرين المشكّكين بالقرآن، المدّعين أنّه ليس من الله، إنّما افتراه محمّد واختلقه، فلمّا حاجّهم فيه أن يأتوا بسورة من

(١) أثر الفكرين النقدي والإعجازي في نشأة البلاغة.

مثله ـ وهو أقلّ التحدّي ـ وعجزوا، قالوا إنّه ساحر وكاهن وشاعر، كما قالوا إنّ القرآن أساطير الأولين، وكان التحدّي بعشر سور، وبالقرآن كاملًا، كما جاء التحدّي في سورة (الإسراء) للإنس والجنّ مجتمعين، فكان السؤال: ما الذي أعجز المشكّكين، وكذلك الإنس والجنّ في أن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل سورة منه؛ ههنا حديث عن بيان وجوه إعجاز القرآن.

رأى البلاغيون والمفسّرون والمتكلّمون أنّ وجوه الإعجاز كثيرة، يمكن أنّ نجملها في ثلاثة وجوه: أولها صرفه المتحدَّين عن القدرة على الإتيان بمثله (الصَّرفة)، وثانيها مضامينه (الإخبار عن الغيب والإخبار عن الأمم السابقة)، وآخرها بلاغته (ألفاظه ومعانيه ونظمه)[1]، وهناك وجوه كثيرة أخرى للإعجاز[2]، على أنّ الثلاثة اشتهرت أكثر عند المتقدّمين، ومذهب الجمهور من علماء أهل النظر هو الأخذ بالوجه الأخير؛ لأنّه كان أظهرها، وهو الممكن، وهو المتحقّق في أقل المتحدَّى به أي السورة، ومتوافر في كل سورة من القرآن.

ظهرت، أول ما ظهرت، ثلاثة مصطلحات تحمل معنى الإعجاز هي: التحدّي والمعجزة والإعجاز، وكان التحدّي أقدمها ظهورًا عند الجاحظ (٢٥٥هـ) في كتابه (حجج النبوة)[3]، في حين أن لفظ الإعجاز ظهر أولاً عند أبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطيّ (٣٠٦هـ) في كتابه الذي حمل نفس الاسم

---

(١) إعجاز القرآن ص٤٨-٥١.

(٢) يُنظر مثلاً: معترك الأقران في إعجاز القرآن، جمع السيوطي وجوه الإعجاز في خمسة وثلاثين وجهًا.

(٣) يُنظر: مداخل إعجاز القرآن ص٢٤.

(إعجاز القرآن)[1]، ويرى محمود شاكر أنّ الواسطيّ هو أوّل من ذهب إلى أن إعجاز القرآن في بلاغته، ثمّ تبعه في ذلك الرمّانيّ (٣٨٦هـ) في رسالته (النُّكَت في إعجاز القرآن)[2]، ثمّ توالت الدراسات في ذلك وتباينت في بيان مفهوم البلاغة التي بها يكون الإعجاز.

بعد الواسطيّ والرمّانيّ بات الحديث عن البلاغة بوصفها وجه الإعجاز الأدقّ من المسلّمات؛ فالله ـ سبحانه ـ أعجز العرب أن يأتوا بمثل بلاغة القرآن ألفاظًا ومعاني ونظمًا، وهم أهل فصاحة وبيان، فتحدّاهم بجنس ما اشتهروا به واقتدروا عليه، وكان ذلك أقوى في الحجّة، وأدعى لترك شكوك الشاكّين بحقيقة القرآن، ومن ثمّ كان أوجب للإيمان به، مع وجوب الإشارة إلى أن التحدّي لا يكون مع كلام الناس العاديّ، بل مع كلامهم الفنّيّ العالي، وهل يكون إلا في الشعر، فكان القول بمكمن الإعجاز في البلاغة مدعومًا بثلاث دعائم: أولها إجماع الأكثرية، وثانيها حضوره في أقل سورة متحدّى بها، وآخرها أنّ التحدّي هو بما في مكنتهم وبجنس ما اشتهروا به، وذلك أثبت للتحدّي، وأقوى في الإعجاز، ومن ثمّ انطلق البحث في سيره نحو تأسيس البلاغة بما هي سرّ الإعجاز والكشف عن ماهيّتها ووجوهها وفنونها...

يظهر لنا من قراءة تآليف الأصوليين والبلاغيين ونقاشاتهم حول الإعجاز أننا أمام نشاطين فكريين كبيرين أسهما في نشأة البلاغة: أولهما نقديّ

---

(١) يُنظر: نفسه ص٢٨.

(٢) يُنظر: نفسه ص٧٨.

انطلقوا فيه في نقدهم للشعر من ثلاثة محاور رئيسة: أوّلها الموازنة بين كلام العرب في بلاغتهم وفصاحتهم (شعرهم)، وبين البيان القرآني العالي، وثانيها الكشف عن اقتدار الشعراء العرب الأقدمين على معارضة الشعر، وعجزهم عن معارضة القرآن، وآخرها بيان العلاقة بين أساليب القرآن وأساليب العرب، والنشاط الثاني بلاغي صرف بحثوا فيه عن ماهية البلاغة بما هي وجه الإعجاز وسرّه. لقد كان النشاط الأول (النقديّ) في منطقة وسطى يتجاذبها طرفا النقد الأدبي وبلاغة القرآن لتصُبَّ الأنشطة الفكرية الثلاثة في حِياض نشأة البلاغة، ونحن تحدّثنا عن نشاط النقد الأدبي، وأشرنا إلى نشاط النقد الأصولي الذي يتوزّع أصلًا في النشاطين الآخرين، وظلّ أن نتفرّغ للحديث عن النشاط البلاغيّ الإعجازيّ وأثره في نشأة البلاغة على الصورة المتعارف عليها عند السكّاكيّ.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوّة في ظلّ الحديث عن مرحلة نشأة البلاغة هو: ما البلاغة التي يكون بها الإعجاز؟! هذا السؤال كان حاضرًا بالقوّة في أذهان المتكلّمين على البلاغة بما هي وجه للإعجاز، وحاضرًا بالفعل عند الخطّابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ كما سيظهر، وسنعرض لبلاغة أبرز المتكلّمين باقتضاب وصولًا إلى تأسيس بلاغة السكّاكيّ.

ثانيًا: جهود علماء الإعجاز في نشأة علوم البلاغة:

نبدأ مع أقدم كتب الإعجاز التي وصلتنا مع رسالة الرمّانيّ التي عنوانها

(النكت في إعجاز القرآن). ذهب الرمّانيّ إلى أن البلاغة تنقسم إلى ثلاث طبقات: العليا، والدنيا، وما هو وسط بينهما. وجعل بلاغة القرآن في القسم الأعلى منها، وهي معجزة للعرب والعجم، وما كان دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء، ثم تكلّم على البلاغة فرأى أنها في إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وجعلها في عشرة أبواب؛ وهي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان، وكان حكمه على الشعر عمومًا بأنه في منزلة دون منزلة القرآن العليا[١].
نسأل أنفسنا مناقشين الرمّانيّ: هل هذه الأبواب العشرة هي التي توصل المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وهي فقط؟ لقد لمس الرمّانيّ المفهومين الرئيسين اللذين قام عليهما مفهوم البلاغة؛ إنهما البيان والتحسين[٢]، على أنّهما أحاطا بمعنى الفصاحة دون البلاغة بمفهومها السكّاكيّ، بمعنى أننا أمام الخطوات الأولى الصحيحة لتوضيح مفهوم البلاغة، ونلحظ أنه لم يتطرّق لذكر النظم صراحة، ولعل في ذكر صورة اللفظ اقترابًا منه.

لقد رأى الخطّابيّ (٣٨٨هـ) أن القرآن جمع أفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصحّ المعاني، وأن هذه الفضائل الثلاث لا تجتمع إلا في كلام الله العليم القدير[٣]، فيعدّ ممّن فتحوا الباب أمام دراسة النصوص، نقدًا وبلاغةً، وفق مستويات اللفظ والمعنى والنظم. لقد كان يرى في نفسه سبّاقًا

---

(١) يُنظر: النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ص٧٥-٧٦.
(٢) يُنظر: الأبعاد التداولية في البلاغة العربية حتى القرن السابع الهجريّ ص٦٥.
(٣) يُنظر: بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ص٢٧.

إلى شرح معنى البلاغة التي بها يكون إعجاز القرآن، كما رأى أن العلماء السابقين عجزوا عن ذلك بأن احتكموا إلى «التقليد وضرب من غلبة الظنّ دون التحقيق له وإحاطة العلم به»[١]. فالتحقيق انتهى به إلى أن قسّم الكلام إلى ثلاثة أقسام: الرصين الجزل، والفصيح القريب السهل، والجائز الطلْق الرسْل، وذهب إلى أن الأول أعلاها، والثاني أوسطها، والثالث أدناها وأقربها، كما انتهى إلى القول إن القرآن الكريم أخذ من تلك الأقسام المختلفة كلها في نظام متّسق يعجز عنه البشر، فجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة؛ وبيّن أن ذلك ليس من وسع البشر، لجهلهم بجميع الألفاظ والمعاني وطرق النظم التي تمثل دعائم البلاغة[٢]، فكانت نظرته أوسع من سابقه؛ إذ التفت إلى أن عناصر البلاغة التي هي: اللفظ، والمعنى، والنظم.

استفاد الباقلانيّ من الدراسات السابقة في الإعجاز؛ فكان كتابه في الكلام على (إعجاز القرآن)، فبيّن أن تفوّقه على الشعر متحقّقٌ من جهة فصاحته وبلاغته ونظمه ورصفه، كما بيّن أنّ بلاغة القرآن اشتملت على عشرة معان تميّز فيها عن كلام العرب في شعرها وخطبها ورسائلها، وذكر أنّ «منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أنّ نظمَ القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه خارجٌ عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباينٌ للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوبٌ يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد... ومنها أنه ليس للعرب

(١) يُنظر: نفسه ص٢٤.

(٢) يُنظر: نفسه ص٢٦-٢٧.

كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر... وفي ذلك معنى ثالث: وهو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها... ومعنى رابع: وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بينًا في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع... ومعنى خامس: وهو أن نظم القرآن وقع موقعًا في البلاغة يخرج عن عادة كلام [الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس]... ومعنى سادس: وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب، من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم ـ موجودة في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم، في الفصاحة والإبداع والبلاغة... ومعنى سابع، وهو أن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع، وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب

من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور، ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يُبتدأ تأسيسه، ويُراد تحقيقه... ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم. ومعنى ثامن، وهو أن الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذها الاسماع، وتتشوّف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها باديًا غامرًا سائر ما تقرن به، كالدرّة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد. وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثّل بها في تضاعيف كلام كثير، وهى غرّة جميعه، وواسطة عقده، والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه، برونقه وجماله... ومعنى تاسع، وهو: أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفًا، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة. وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفًا؛ ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم... ومعنى عاشر، وهو: أنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشيّ المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلّفة، وجعله قريبًا إلى الإفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم

مع دنوّه في موقعه أن يُقدر عليه، أو يُظفر به»[١]. وفي ضوء الحديث عن ذلك الخروج والتباين والتميّز راح يكشف عن وجوه إعجاز القرآن في بلاغته ونظمه، كما راح يسرد الأمثلة على قصور كلام البشر من خطب ورسائل وشعر عن بلوغ النموذج البلاغي القرآني العالي. لقد كان الباقلانيّ ذا نظرة شمولية انطلق فيها من تميّز بلاغة القرآن وتفوّقها على بلاغة العرب، واستطاع أن يلمّ بجلّ نقاط التميّز إن لم تكن كلَّها، لقد كانت بلاغته أسلوبية بامتياز.

أمّا القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ) فقد رأى في كتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل) أن إعجاز القرآن في فصاحته، وأن تلك الفصاحة لا تظهر في نظمه وحده، بقدر ما تظهر في جزالة ألفاظه وحسن معانيه (فصاحته)؛ وإذا جاء هذا في نظم لم يُسبق إليه يزداد الكلام الفصيح فصاحة، وذهب إلى أنّ المعجزة القرآنية لا تثبت من طريق النظم دون الفصاحة. فكان يرى أن وجه عجز العرب عن معارضة القرآن يكمن في رتبة فصاحته كون الفصاحة مجال تباريهم في الكلام، وكون العرب كانوا متقدّمين بالفصاحة[٢]. بمعنى أن مزيّة البلاغة في المفردات دون التراكيب، في المفردات الجزلة الشريفة في مطابقتها المعاني، ولا علاقة للنظم في ذلك إلا بما يسهم في زيادة تلك المزيّة.

وأما عبد القاهر الجرجاني(٤٧١هـ) فقد خالف القاضي تمام المخالفة؛ فذهب إلى أن لا مزيّة للمفردات في ذاتها؛ لأن الناس تواضعت عليها هكذا،

---

(١) إعجاز القرآن ص٥١ وما بعدها.

(٢) يُنظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل ٣٢١/١-٣٢٢.

وإنما مزيّتها حين تضم إلى أخواتها من المفردات، فسرّ الإعجاز عنده هو النظم، وهو توخي معاني النحو وأحكامه[١]. إن مما نلحظه في نظرية النظم عند عبد القاهر أنها جمعت بين نظرة النحويين الذين اعتنوا بالنحو (تمام البيان)، ونظرة الأصوليين الذين اعتنوا بالمعاني البلاغية (كمال البيان)، فأصبحنا أمام معاني النحو(تمام البيان وكماله)، كما أصبحنا أمام نظرية نقدية متطورة استطاعت أن تهضم النظريات السابقة كلها وأن تتأسس على قواعد ثابتة لا يمكن زحزحتها، وبالجملة أمام بلاغة واضحة المعالم، ولنا أن نتريّث قليلًا في الحكم على تلك النظرية حتى نستجلي ما وراءها؛ لقد ربط عبد القاهر بين فصاحة الشعر وبلاغته وبين توخّي معاني النحو أو النظم، ثمّ علّق الأخير بالأغراض والمعاني التي تُؤمّ[٢]، ثمّ بينّ أنّ المزيّة لا تتعلّق بأَنفُس المعاني المراد التعبير عنها إنما بطريقة إثباتها وتقريرها، وبيّن أنّ تلك الطريقة تتمثّل في أثر النظم في قوة تأثير الكلام وتمايز العبارات، ثم أثره في درجة اتضاح المعنى وتعدّد دلالاته للوصول إلى الغرض[٣]، فقوة التأثير وعدم المباشرة في الإخبار عن المعاني في اتحادهما مع حسن النظم كل ذلك كان المشروع العام لعبد القاهر في إثبات دلائل الإعجاز، ويمكن أن نقوله بطريقة أخرى: إن مشروعه البلاغيّ يقوم على توحيد نظريته في (النظم)، مع نظريته في (المعنى ومعنى المعنى) أو المعاني الثواني، وقد بيّن ذلك في قوله: «لم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله

---

(١) يُنظر: دلائل الإعجاز ص٨١.

(٢) يُنظر: نفسه ص٨٧.

(٣) يُنظر: نفسه ص٢٦٥.

العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة... ووجدت المُعوَّل على أن ههنا نظمًا وترتيبًا، وتأليفًا وتركيبًا، وصياغة وتصويرًا، ونسجًا وتحبيرًا»(١).
لقد لاحظ محمود شاكر أن تلك العبارات التي عوّل عليها عبد القاهر في بيان معنى البلاغة مأخوذة من الجاحظ(٢)، كما لاحظ أن العبارات الأربعة الأولى ساقت عبد القاهر إلى البحث فيما عُرف لاحقًا بعلم المعاني، في حين أنّ العبارات الأربعة الأخرى كانت مجال الحديث عن علم البيان(٣).

ولسنا ههنا في صدد الحديث عن جميع آراء عبد القاهر النقدية وسردها، إنما اكتفينا بذكر العوامل المؤثرة في توجيه تلك الآراء، تلك المتمثّلة في مشروعه العامّ الذي ابتدعه لبيان دلائل الإعجاز ووجوهه، المشروع الموحِّد بين فنون علمي المعاني والبيان الذي كان له بالغ الأثر في الكشف عن مزايا الكلام وفواقه، كما كان له بالغ الأثر في توجيه دقّة البحث في علوم البلاغة فيما بعد، والواقع أنّه صرّح بفكرة ذلك المشروع حين بيّن أنّ «الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم، وعنه يحدث وبه يكون؛ لأنه لا يُتصوّر أن يدخل شيء منها في الكلم، وهي أفراد لم يُتوخّ فيما بينها حكم من أحكام النحو؛ فلا يُتصوّر أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة، من دون أن يكون قد أُلّف مع غيره؛ أفلا ترى أنه إن قُدّر في (اشتعل) من قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، أن

(١) دلائل الإعجاز ص٣٤.
(٢) يُنظر: مداخل إعجاز القرآن ص٩٥.
(٣) يُنظر: نفسه ص١٠٣-١٠٥.

لا يكون (الرأس)، فاعلًا له، ويكون (شيبًا) منصوبًا عنه على التمييز، لم يُتصوّر أن يكون مستعارًا؟ وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة، فاعرف ذلك»[1]. ثم خَلَفَ من بعده من شطر مشروعه إلى شطرين: المعاني، والبيان. فدُرست الشواهد التي حفلت بالمعنى وحدها، والتي حفلت بالنظم وحدها.

ثمّ ننتقل من جهود عبد القاهر الذي يُعدّ نقطة تحوّل كبرى في تاريخ البلاغة إلى السكّاكيّ رأسًا الذي تنسب إليه فضيلة وضع علوم البلاغة القديمة في شكلها المعروف حاليًّا؛ إذ أقام بلاغته على جهود عبد القاهر جمعًا وتنضيدًا وقراءةً وتبويبًا وتشقيقًا.

لقد كشف البحث في وجوه الإعجاز النقاب عن وجه نشأة البلاغة بصورتها المعروفة من لدن السكّاكيّ إلى يومنا هذا. لقد فتح النقد، مع ظهور حركة البديع، المجال لتطوّر البلاغة من الناحية التطبيقية، كما أن البحث في أبواب البديع أخذ يفتح الطريق أمام الحديث عن البلاغة، غير أن ذلك الحديث لم ينته إلى تحديد مفهوم البلاغة ووضع أسسها على نحو دقيق، فظلّت البحوث مشتّتة، لأنها بحث في مجموع متفرّق لا ضابط له، وكان الطابع الذوقيّ الحاكم والمحدّد الوحيد، وإن وُجدت بعض التجارب المعرفية التي لم يُكتب لها القبول والانتشار فيما يبدو، أمّا الدراسات الإعجازية فكانت ذات طابع معرفيّ أسهمت كثيرًا في البحث عن الأصول الكبرى للبلاغة، وإن كانت في بداياتها مضطربة بتأثير حركة النقد. لقد كان للأسلوب الفنّيّ القرآنيّ الموحَّد

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٩٣.

أثرٌ كبيرٌ في محاولة ضبط أصول البلاغة في مقابل الأساليب البشرية المشتّتة؛ إذ أفضى ذلك التوحّد إلى الصدع بالوجه الذي تجلّت فيه البلاغة بثوبها الواحد، وعصم الدارسين من الضياع في تيه الوجوه المتعدّدة التي لا ضابط لها، والتي خضعت لأحكام الذوق، رأينا ذلك عند عبد القاهر الجرجانيّ في نظريتيه المتّحدتين: النظم، ومعنى المعنى.

انتبه عبد القاهر الجرجانيّ لذلك الاضطراب الذي وقع فيه سابقوه، في ميلهم إلى اللفظ تارة، وإلى المعنى تارة أخرى، ثم إلى النظم، فراح يبحث عن الوجه البلاغيّ الأوحد الذي تجلّى فيه الأسلوب الفنّيّ القرآني الأوحد على تعدّد موضوعاته وأغراضه، ذلك الوجه الذي تميّز فيه القرآن عن كلام البشر وأعجزهم عن بلوغ درجته، وكان لهذا البحث الأثر البارز في انتشال البلاغة من تيه التشظّي، فأفضى الأمر إلى الحديث عن نشوء بلاغة ذات علوم ثلاثة مع السكّاكيّ وتابعيه.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
البلاغة الجديدة؛ التجديد والإحياء

سنركّز في هذا المبحث على عرض البلاغة الجديدة بشقّيها الأسلوبيّ والحِجاجيّ التداوليّ، ثم نبيّن رؤيتنا الخاصّة للبلاغة الجديدة ممثّلة بالبلاغة التي أسميناها البلاغة الحيّة.

المطلب الأول: البلاغة بين الأسلوبية والحِجاج التداولي في الدراسات الحديثة:

وقفتْ الدراسات البلاغية عند البلاغة القديمة الكلاسيكية المتمثّلة بجهود السكّاكي ثمّ القزويني زمنًا طويلًا، وظلّ الأمر كذلك إلى أن بدأت العقول في منتصف القرن العشرين تشتغل في تجديد البلاغة القديمة أو إيجاد بلاغة جديدة عاشيةً إلى ضوء نار الدراسات الأسلوبية الغربية التي ظهرت في مستهلّ القرن العشرين على يد شارل بالي تلميذ دي سوسير في أسلوبيته الوصفية التعبيريّة، وكانت الريادة العربيّة الحديثة، وفق ما وصلنا، قد امتلك زمامها كلٌّ من أحمد الشايب، وأمين الخولي؛ إذ فتحا المجال أمام تجديد البلاغة، غير أن دراساتهما ظلّت عبارة عن تجارب خجولة بالنسبة إلى الدراسات الأسلوبية الجادّة؛ إذ اعتنى الشايب بإبراز البعد الصوتي والنفسي والموسيقي في العناصر

الأسلوبية: الحروف والكلمات والجمل والصور والفقرات والعبارات[١]، وفي ذلك لفتة طيّبة الأثر، غير أنه كان يمرّ مرورًا سريعًا على ذلك، وانشغل عنه بالمقارنة بين الشعر والنثر، والتفت أيضًا إلى أسلوبية الموضوع (النصّ) التي قصرها على الأغراض والأجناس، وأسلوبيّة الأديب (الفرد)[٢]، ويلاحظ القارئ الخلط بين الأسلوبيّتين، كما يُلاحظ أن عرضه للأفكار كان تقليدًا لما جاء في البلاغة القديمة، والواقع أنّ الصورة تتّضح إذا زعمنا أنّ الشايب يسير على خطا ابن خلدون في تعريفه الأسلوبَ وإرجاعه إيّاه إلى أسلوب العرب القدماء (الفحول)، لا إلى طرق النحو أو البلاغة أو العروض[٣]. أمّا الخولي فقد تكلّم على فنّ القول، وختم دراسته بخطّة له جعلها في مقدمات فنّيّة ونفسية ووجدانية، ثمّ أبحاث في الكلمة والجملة والفقرة وصور التعبير والقطعة الأدبيّة والأساليب، ففصل بين الأبحاث المذكورة وبين الأساليب، وكان قد بنى دراسته في فنّ القول قبل أن يبوح بهذه الخطّة على المقارنة بين الدرس البلاغي القديم والجديد، من جهة الصورة ودائرة البحث والمنهج والغاية[٤]، ويلفت النظر في دراسته عنايته بجانبي الترتيب (التوزيع)، والتعبير (الاختيار)[٥]، غير أنّه نظر إلى الأسلوب بمعناه العام، كما فعل الشايب، وجعل

---

(١) يُنظر: علم الأسلوب ص٦.

(٢) نفسه ص٦.

(٣) نفسه ص٤٠.

(٤) يُنظر: فن القول ص٢٢١.

(٥) نفسه ص٢٣٥.

وكده الربط بين البلاغة والفنون، والدوران حول ذلك الربط في جميع مفاصل الدراسة وليس انتهاءً بالعنوان. في الواقع لم تكن تانكَ الدراستان ذواتي قيمة علميّة دقيقة إلا بما هما فتحٌ لباب إعادة النظر في البلاغة العربية، ثمّ تعاقبت بعد ذلك الدراسات الأسلوبية التنظيرية والتطبيقية التي أفادت ممّا استجدّ في ساحة الدراسات الغربية، فكان منها ما وقف على المناهج كالأسلوبية التعبيرية أو التكوينيّة أو الوظائفية أو البنيوية، ومنها ما ركّز على البنيات والمستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ومنها ما قارب الأطر والعلاقات بالنقد والبلاغة والخطاب وغيرها، وتلك هي الدراسات التنظيرية، أمّا الدراسات التطبيقية فقد اعتمدت على الآليات كالإحصاء والانزياح والاختيار وغيرها.

أمّا فيما يتعلّق بالتداولية التي عُرّفت بأنها دراسة «استعمال اللغة في التواصل والمعرفة»[1]، فقد التقت منذ بدايات نشأتها بالبلاغة التقاءً كبيرًا، حتى إننا نرى أن الحديث عن التداولية في كثيرٍ من مباحثها هو حديثٌ عن البلاغة في الصميم، فالصور البيانية تمثّل أساليب تداولية حجاجية، ونشير إلى أنّ الحجاج هو المقصود مباشرة في ربط التداولية بالبلاغة، ونرى أن داخل علم البديع توجد مباحث تحمل طابعًا تداوليًّا، ولا سيّما ما يتعلّق بالمحسّنات المعنوية كالتورية والمبالغة وأسلوب الحكيم... كما نجد داخل علم المعاني مبحثًا هو الخبر والإنشاء يرتبط بالتداولية ارتباطًا وثيقًا، وتحديدًا بمفهوم

(١) التداولية اليوم؛ علم جديد في التواصل ص٩.

الأفعال الكلامية، كما اهتمّت التداولية بدرس الدلالة غير الحرفية التي تمثّل مجال الاستعارة وما شابهها من أنواع المجاز[١]، ففي البلاغة العربية أساليب حجاجية منطقية فنّيّة كالكناية والمذهب الكلاميّ، وأخرى أقل منطقية وأكثر فنّيّة كالتشبيه والاستعارة، ثمّ إنّ مفهوم التداولية من خلال اهتمامه بالعلاقة بين بنية النصّ وعناصر الموقف التواصليّ المرتبطة به = «يغطي بطريقة منهجية منظّمة المساحةَ التي كان يُشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال)»[٢]، وإنّ تحليل الخطاب البلاغّي الجديد تداوليًّا يتحقّق بوساطة اندماجه بعلم النصّ[٣]، وإنّه يمكن تسويغ وجود تداوليةٍ بلاغيةٍ على أساس مفهوم الحوار أو ـ بحسب باختين ـ الطابع الديالوجيّ للمقوّم النصّيّ الاحتجاجيّ[٤].

والحقّ أن التداولية تشكّل منعطفًا تاريخيًّا مهمًّا في مسيرة البلاغة الغربية؛ إذ تفصل بين البلاغة الكلاسيكية والبلاغة المعاصرة التي أعادت قراءة البلاغة القديمة، كما أعادت توظيف مقولاتها في مختلف العلوم الإنسانية بعامةٍ، والفنّيّة بخاصةٍ، إنها تعيد الاعتبار للبلاغة الغربية لتأخذ مكانها في صدر العلوم الإنسانية[٥]. وثمّة من يرى أنها تعيد الاعتبار إلى البلاغة العربية كذلك

---

(١) البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ص٥٩. والتداولية اليوم؛ علم جديد في التواصل ص١٩٢.

(٢) بلاغة الخطاب وعلم النصّ ص ٢٦.

(٣) نفسه ص١٠.

(٤) البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ص٢١.

(٥) حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة ص٩-١٠.

من خلال إيلاء نظرية التأثير والمقال عنايةً كبرى في الدراسات السيميائية، بدعوى استبدال التداولية بالبلاغة[١]. وبالمقابل يرى هنريش بليث أن البلاغة الكلاسيكية المعيارية من الممكن أن تصبح وصفيةً، بل تاريخيةً وتأويليةً، إنها بذلك تعكس بصورةٍ نقديةٍ وضعية تلقّي الشارح للنصّ، ومن ثَمّ تغدو مؤهلةً لتكوين أسسٍ نظريةٍ تداوليةٍ للنصّ تقوم على مفهوم مقام الخطاب[٢]. فنحن، إذًا، أمام علاقة جدلية بين البلاغة والتداولية، فالبلاغة تؤسس للتداولية وترسّخ مفهوماتها من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى تقوم التداولية في دعم البلاغة بآلياتها التحليلية.

ركّزت الدراسات العربية الحديثة للتداولية على المفاهيم من غير أن تبحث عن محاور التقاء بينها إلّا من جهة انتسابها إلى التداولية، فكانت الدراسات التي اعتنت بالحجاج، والتي اهتمّت بأفعال الكلام، والتي وقفت على الدلالات الضمنيّة وغيرها، وكان منها النظري، ومنها التطبيقي.

تجاوزت الدراسات التداولية التوجّه نحو الوظيفة الإخبارية إلى ما هو أبعد من ذلك بكثيرٍ، فصرنا نتحدّث عن وظائف أخرى كالتأويل والتأثير والإقناع. فنحن، إذًا، أمام نقاطٍ تفترق فيها التداولية عن البنيوية، لعلّنا نوفّق في إظهارها من خلال الجدول الآتي:

---

(١) البلاغة العربية؛ أصولها وامتداداتها ص٢٩٤.

(٢) البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ص١٩.

التداولية	السياق	الخطاب	الوظائف المتعددة	الكلام
البنيوية	البنية اللغوية (السَّنَن)	الجملة	الوظيفة الإخبارية	اللغة

نؤكّد أن تلك العلاقة بين التداولية والبنيوية لا تقف عند نقاط الافتراق، بل تتعداها إلى علاقة التأثّر، فلا يمكن بحالٍ من الأحوال إنكار تأثّر التداولية بالدراسات البنيوية. فالتداولية كما أسلفنا جاءت ردّة فعلٍ على التحليل البنيويّ، فردّة الفعل هذه أسهمت في نشأة التداولية وتطويرها، وذلك في إطار أعمال الفلسفة التحليلية، وتحديدًا في أعمال فتكنشتاين التي ميّز فيها بين العبارات الإخبارية والعبارات الانفعالية. فالاعتراف بوجود عباراتٍ انفعاليةٍ (إنشائيةٍ) مستقلةٍ عن العبارات الإخبارية أسفر عن نظرية الألعاب اللغوية، ومن ثمّ الأفعال اللغوية، وأخرج اللغة من نطاقها الضيّق المقتصر على وظيفة الإخبار إلى فسحة التعددية الوظائفية. وننوّه بسيميائية موريس التي قامت على العلاقات البينية التي تنقسم إلى:

١. العلاقة التركيبية التي تقوم بين العلامات نفسها.

٢. العلاقة الدلالية التي تقوم بين العلامات والأشياء.

٣. العلاقة التداولية التي تقوم بين العلامات والمتخاطبين، وهي تباين سابقتيها بعنايتها بالسياق[1].

فالتداولية ذات صلة بالدرس اللغوي من حيث هي مكمّلة لبنياته ومتعالية عليها.

(١) يُنظر: التداولية من أوستين إلى غوفمان ص٤٤-٤٥.

المطلب الثاني: البلاغة الحيّة[1] بين الأسلوبية والتداولّية من وجهة نظر خاصّة:

اشتغلت الدراسات الأسلوبية الأدبية ببيان وجوه تميّز الكلام الأدبيّ من جهة، وهذه هي أسلوبية النص؛ واعتنت من جهة أخرى بأسلوب المبدع تحت اسم أسلوبية الفرد؛ إنها في صورتها الأولى أميل طريقةً إلى البلاغة القديمة من جهة المعياريّة والقَبْليّة (قبل النصّ) والتعليميّة المعرفيّة، بمعنى أنها علم العامّة، في حين أنها تكون في صورتها الأخرى أقرب إلى النقد بوصفه إجراءً وصفيًّا وبعديًّا، وهذا يجعلها أميل للتخصيص، على أننا في سعينا للبحث عن بدائل للبلاغة القديمة في صورتها السكّاكيّة التي يمكن أن توسم بأنها بلاغة الجملة أو الشاهد، نميل إلى البحث في بلاغة النصّ بكلّيته وأجزائه، فنرى أنّ الاستفادة من معطيات الدرس اللغويّ أمر لا مفرّ منه، على أننا نرى ضرورة التحرّر من اصطلاحاته وتفريعاته، فلا نسايره حرفيًّا، بل نسعى إلى تقديم مقاربة بلاغية موسّعة ومحرّرة من القيود تماشيًا مع حرّيّة الأدب الذي تقاربه وتُجري أدواتها عليه، ونوائم بينها وبين الدرس البلاغيّ التراثيّ؛ إذ لا يمكن إعلان القطيعة عن الأصل بحالٍ، ونؤكّد أنّ مشروعنا (البلاغة الحيّة) يتراوح بين الصورتين المذكورتين آنفًا للأسلوبية؛ فهو من جهة يبحث في القوانين الناظمة للأدب والتي تُكسبه مزاياه الخاصّة والفريدة، على أنه لا يُطالب بتحديد القوانين وصرامتها، وهو من جهة أخرى ينفتح على النصوص الفنّيّة يبحث

---

(١) البلاغة الحيّة بين القيم الأسلوبيّة والتداولّية؛ فنون البديع نموذجًا.

في وجوه فرادتها يستقي منها قوانينه وأحكامه، فهو مشروع بلاغيّ معياريّ من جانب، وهو مشروع نقديّ وصفيّ وتفسيريّ من جانب آخر.

وتبقى النظرة إلى الأدب بوصفه نصًّا جماليًّا أو أسلوبيًّا نظرة قاصرة وفق البلاغة الحيّة، لأنها تقتصر على الجانب النصّي البنيوي مغفلةً الخطاب وعناصره وأهدافه، فكلّ نصّ هو خطاب يخضع لمقاصد المتكلّم وأحوال المتلقي، ويسعى إلى تحقيق غاية ما فوق فنّيّة، فالفنّ ليس هو المقصد المباشر، وهو وسيلة إلى غايات أخرى إخبارية أو تأثيرية عاطفية أو فكرية أو سلوكيّة، وبالجملة (تداولية).

فنحن إذًا أمام بلاغة حيّة تستمدّ أدواتها وقوانينها من الأسلوبيّة والتداوليّة، وبالجملة من الدراسات اللسانيّة، وهي تتأسّس على ثلاثة مستويات:

١. المستوى الإيقاعي.

٢. المستوى البلاغيّ.

٣. المستوى التداوليّ.

أمّا **المستوى الإيقاعيّ** الصوتيّ والصرفيّ فكان حضوره في البلاغة العربيّة القديمة ماثلًا في علوم العَروض والقوافي والفصاحة وبعض فنون علم البديع، فلنا أنّ نأخذ من تلك العلوم أسرار المزايا في الكلمة من الناحية الصوتية الموسيقية، وكذلك الصرفية، على أنّ المستوى الصرفيّ يمكن أن نجعله في دائرة المستوى البلاغيّ، فنكون بذلك أمام دراسة المستوى الموسيقيّ الذي نرى أنّه يمكن تحريره أيضًا من رِبقة تلك العلوم الأربعة بتوسيع حدوده ليشمل

موسيقى الكلمة والتركيب، من جهة إضافة دراسة ظواهر صوتية أخرى كالنبر والتنغيم الذي يمسّ الدلالة مسًّا مباشرًا، ويمكن أن نقسّم هذا المستوى إلى إيقاع خارجيّ ممثّلًا بالوزن والقافية والموازنة وغيرها، وآخر داخليّ تحدثه في النفس ظواهر صوتية كتكرار الحروف وتأليفها وانزياحها، أو ظواهر تركيبية كاجتماع المترادفات والأضداد والمتناسبات وغير ذلك.

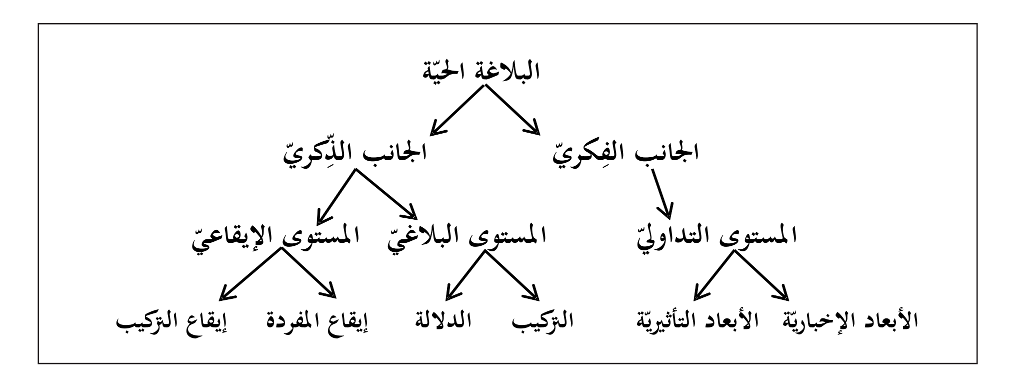
وأمّا **المستوى البلاغيّ** فيتجلّى في البلاغة وفق الطرح الجرجانيّ، فعبد القاهر قرن الجانب التركيبيّ (النظم) بالجانب الدلاليّ (المعاني الثواني)[1]. إنه، بذلك، توحيد بين مستوى النحو أو التركيب الذي يقابله في البلاغة ما يُسمّى (علم المعاني)، ومستوى الدلالة الذي يقابله فيها (علم البيان)، على أنّه لنا أنّ نتوسّع في ضروب ذينك العلمين، ونتحرّر منهما بالتحرّر من حدودهما عبر مفهومي التوزيع والاختيار، وسننتبه إلى عدم الوقوع فيما نحذّر منه، نعني تحديد التفصيلات والمعايير، بل نترك الباب مفتوحًا لكل ممكنات الاستعمال أو الكلام أو الأسلوب. ونذكر وجوه الاختيار الممكنة، بوصفه أبرز المقولات البلاغيّة والأسلوبيّة، ممثلة في اختيار الكلمات بحسب (الغرابة أو الاقتباس أو الإيقاع أو الاستدعاء)، ثمّ اختيار التراكيب بحسب (الترتيب، والتناسب، والترابط)، ثمّ الأساليب بحسب (فنون البلاغة أو الظواهر الأسلوبيّة).

وأمّا **المستوى التداوليّ** فيركّز على الجانبين النفعيّين: الإخباريّ المعرفيّ، والتأثيريّ العاطفيّ والحجاجيّ والسلوكيّ، ويدرس ظروف الكلام وحيثيّاته بما

---

(١) دلائل الإعجاز ص٣٩٣.

يحقق مقاصد المتكلّم ونصّه بالإتباع، ويُطابق المقام وحال السامع. إنّ المستوى التداوليّ يدرس الجانب الفكريّ للكلام وأبعاده العميقة، في حين أنّ المستويين الأسلوبييّن السابقين يعنيان بالجانب الّذِكريّ اللسانيّ، بذلك نكون أمام بلاغة جديدة تهتمّ بالكلام في جوانبه النفعيّة والإمتاعيّة في خطوة نحو إعادة البلاغة إلى الحياة، ونوضّح رؤيتنا في الخطاطة الآتية:



نشير إلى أنّ الدراسة النفعية التداولية تنطلق من الأفكار قبل تجسّدها في اللغة، أي من المقاصد لتشرح بعد ذلك كيفية تجسّدها في الكلام، بطرق استعماله جميعًا: الأسلوبية الخاصّة، والعادية العامّة، إلّا أنها في البلاغة الجديدة تُركّز على الأسلوبية الخاصّة، أيّ الكلام الفنيّ الخاصّ، فالانطلاق من الأفكار والمقاصد يُسهم في تفسير كثير من أساليب الكلام الغامضة، وفي تأويل الدلالات غير المباشرة أو الضمنيّة، وفي شرح الأشكال المخالفة لمقتضى الظاهر، ويقف على بسط المغازي [جمع مغزى] التي وردت في التراث البلاغيّ تحت عنوان الدلالات أو المعاني أو الأغراض، فالدراسات التداولية ليست فقط مكمّلة للدراسات الأسلوبية، إنما هي شارحة لها ومتعالية فوقها ومُقدَّمة عليها أيضًا.

المبحث الثالث
بلاغة الإمام الفَراهيّ، نظرات جديدة

المطلب الأوّل: جمهرة البلاغة؛ المصطلح والمفهوم:

تدلّ لفظة (جمهرة) على معاني الجمع والكثرة والاتّساع والتراكم والإشراف؛ إذ إن «الجمهور: الرَّمْلُ الكثيرُ المتراكمُ الواسعُ؛ وقال الأصمعيُّ: هي الرَّمْلةُ المشرِفةُ على ما حولها المجتمعةُ. والجمهورُ والجمهورة من الرَّمْلِ: ما تعقَّد وانقادَ، وقيلَ: هو ما أشرف منه. والجمهور: الأرض المشرِفةُ على ما حولها... وجمهورُ كلِّ شيءٍ: معظمُه، وقد جَمْهَرَهُ. وجُمهورُ النَّاسِ: جُلُّهُم. وجماهير القوم: أشرافُهُم... وجمهَرْتُ القومَ إذا جمعتَهُمْ، وجمهَرْتُ الشَّيْءَ إذا جمعْتَهُ»[١].

اشتهر استخدام مصطلح الجمهرة أسلوبًا قديمًا يدلّ على طريقة من التأليف والتصنيف متّسمة بالجمع، وقد تتّسم بالتأصيل وذلك إذا ارتبطت بالحديث عن العلوم؛ ومصطلح الجمهرة يقارب المادّة سواء أكانت علمية أم أدبية، ومثله اشتهار مصطلح الطبقات لجمع الأعلام، كطبقات فحول الشعراء وطبقات النحويين وطبقات الفقهاء وغيرها، فثمّة، في ما يتعلّق باشتهار مصطلح

---

(١) لسان العرب (جمهر).

الجمهرة قديمًا، (جمهرة أشعار العرب) لأبي زيد القُرَشيّ (١٧٠هـ)، و(جمهرة أنساب العرب) لابن بِشر الكلبيّ (٢٠٤هـ)، وكذلك لابن حزم الأندلسيّ الظاهريّ (٤٥٦هـ)، و(جمهرة اللغة) لابن دريد الأزديّ (٣٢١هـ)، و(جمهرة الأمثال) لأبي هلال العسكريّ (٣٩٥هـ) وغيرها، ونذكر حديثًا (جمهرة وصايا العرب) لمحمّد نايف الدليميّ، و(جمهرة خطب العرب) لأحمد زكي صفوت، و(جمهرة المقالات) لأحمد شاكر ولمحمود شاكر وغيرها، ونذكر من ذلك الكتاب الذي بين يدينا (جمهرة البلاغة) لعبد الحميد الفراهيّ، وهو في تأصيل علم البلاغة عند العرب الأقحاح كما سيظهر.

يتحدّث الفراهيّ عن بلاغة مخصّصة ترجع في مفهومها زمنيًّا إلى بلاغة عصر الاحتجاج، ومضمونًا إلى مدرسة الطبع، ومعيارًا إلى عمود الشعر، وأعلامًا إلى بلاغيي القرن الثالث ونقّاده وأدبائه الطبعيين، ونذكر من هؤلاء تحديدًا الجاحظ؛ إنها تقابل وفق ذلك مدرسة البديع وشعراءها المولّدين.

إن بلاغة الفراهيّ، مع وسمها بأنها بلاغة طبع وفطرة عربيّة، هي بلاغة أخلاقية مقصدية إسلاميّة؛ إنها بذلك تباعد كل ما يمتّ لثقافة العجم من جهة مادّة الأدب المتأثّرة بتلك الثقافة والمتمثّلة بشعر البديع، أو شعر الشعراء المولّدين، ومن جهة سياسة الأدب ونقده وبلاغته المتأثّرة بالفلسفة اليونانية. كان تحرّي مبدأ الإصابة أو المناسبة المعيار الذي تأسّس عليه عمود الشعر بخاصّة بما هو ممثّل لقوانين النقد والبلاغة لأدب عصر الاحتجاج، والذي تأسّست عليه الثقافة العربية الصرف التي لم تتأثّر بالثقافات الأخرى بعامّة، ثمّ جاء تحرّي مبدأ الصدق عند الفراهيّ ليكمل صورة الثقافة العربية الإسلامية.

ميّز الفراهيّ ثقافة العرب من ثقافة العجم، من جهة اختلاف الثقافة واختلاف اللغة، ومن جهة اختلاف الطبيعة البشرية العقلية والنفسية، وهذه الاختلافات اقتضت اختلاف الأدب، ومن ثّمَّ اختلاف الأدوات والممارسة النقدية والقراءة البلاغية، بل إنه ذهب إلى اختلاف الثقافة العربية نفسها بين من أسس البنيان على طبيعة اللغة العربية وطريقة استعمال أهلها من الأدباء الفحول وطريقة دراستها من قِبَل البلاغيين والنقاد بعيدًا عن التأثيرات الأجنبية كدراسات الجاحظ، وبين البلاغة العربية التي دخلت فيها تأثيرات الآداب الأجنبية الجانحة إلى المبالغة والإغراق، وتأثيرات الفلسفات الأجنبية التيساير فيها النقاد والبلاغيون العرب أسسها التي تناسب لغاتها الأجنبية.

لقد كان ذلك التمييز الأساس الذي بنى عليه الفراهيّ (جمهرة البلاغة)؛ إذ راح يبيّن خطأ البلاغيين والنقّاد العرب الذين اعتمدوا أدوات البلاغة اليونانية في قراءة البلاغة العربية، ونعني هنا أداة (المحاكاة) وكذلك الاختلاق والكذب، كما نعني بالبلاغيين والنقّاد هنا قدامة بن جعفر وعبد القاهر والجرجانيّ وأمثالهما ممّن ابتعد عن طريقة العرب في تحرّي الصدق ـ قدامة لم يفعله ـ وتحرّي المناسبة ـ عبد القاهر لم يفعله ـ فابتعد الأدب عن منابعه ومصادره، وابتعدت البلاغة، مع الإشارة إلى أنّ ثمّة اقتضاء بين عدم تحرّي الصدق (الكذب والاختلاق) وبين تعمّد تحرّي المناسبة (المبالغة والإغراق)، لقد كشف ذلك التمايز عن انشطار مشروع البلاغة إلى بلاغتين: بلاغة البيان والوضوح والمناسبة التي تمثّل الثقافة العربية الصرف والتي تجلّت في كتاب

الجاحظ (البيان والتبيين)، وبلاغة التحسين والمبالغة والغموض التي تجلّت في كتابات قدامة وعبد القاهر، وكان الأمر أظهر مع النقد بوصفه مؤسِّسًا للبلاغة؛ إذ لمسنا ضربين من النقد عند العرب: نقد متمثّل بمدرسة الطبع، ونقد آخر تجلّى في مدرسة البديع. كان مشروع الفراهيّ ممثّلًا لبلاغة البيان ونقد الطبع الذي يحكمه الذوق، ويتغيّى شرف المعنى والبحث عن الحكمة، وينصره الصدق والوضوح في التعبير والتصوير والتأثير، في حين أنه كان يرى أنّ البلاغة المقابلة كان مبناها على التكلّف والاختلاق والكذب، وغايتها المبالغة وحصول اللذّة، بمعنى أنّ بلاغة الفراهيّ التي تمثّل بلاغة البيان والطبع كانت تهتمّ بحسن الكلام وشرف معناه أي بمضمونه، وهي تتناسب مع الطبيعة والثقافة العربية الإسلامية الصرف، فهي بذلك ذات طابع خطابيّ تداوليّ، في حين أنّ بلاغة التحسين أو البديع كانت تهتمّ بالمحاسن والزخرف أي بالشكل أو التشكيل، وهذه تختلف عن سابقتها في أنها لا تمثّل الثقافة العربية الإسلامية الصرف، فهي ذات صبغة أسلوبيّة نصّيّة[1] لا تهتمّ بالمضامين.

إنّ البلاغة التي نادى بها الفراهيّ تقوم على الصدق الذي مادّته القرآن والشريعة، وعلى البيان الذي أساسه لغة العرب الأقحاح الفصحاء. ولنتأمّل كلام الفراهيّ في بيان ما سقناه؛ يقول: «كما أنّ علماء الإسلام أقبلوا على هذا الفنّ [يقصد البلاغة]، لأجل الكشف عن إعجاز القرآن، فلو أنهم استقصوا كلام العرب واقتفوا آثار المحاسن فيه، وقيّدوها بالحدود، ونظموها في ترتيب حتى

---

(١) ينظر في بيان الفرق بين الثقافتين: التفكير البياني عند العرب؛ قراءة تداولية.

يصير لهم ميزان ومحكّ لمعرفة محاسن الكلام، ثم نظروا في براعة القرآن ونظمه المعجز = لكانوا أقرب إلى معرفته [يعني إعجاز القرآن]، ولكنهم لم يأخذوا من العرب ولا من كلامهم فَإِنَّهْم أثّرت فيهم علوم العجم، كما خالطتهم سجاياهم إلا الأوّلِين منهم كالجاحظ؛ فإنّه لا يبعد عن سُنَن العرب كبعد صاحب دلائل الإعجاز، ولم يبعد هذا إلا لقلّة ممارسته بكلام العرب الخلّص. فلو تيّسر له ذلك عرف منزلتهم في هذه الصناعة، واعترف بفضِلهم على المولّدين، وقال بقول الجاحظ: «لم أجد في خطب السلف الطيّب، والأعراب الأَقحاح ألفاظًا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديًّا، ولا قولًا مستكرهًا، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولّدين وفي خطب البلديين المتكلّفين ومن أهل الصنعة المتأدّبين، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتاج التخيّر والتفكّر». فلما تركوا منهج كلام العرب صار أهم شيء عندهم البديع ومطمح نظرهم التشبيه، وعند الأول [يعني الجاحظ] أولهما منكر، والثاني غير مهم لذاته»[1]. فبلاغة الجاحظ التي بنى عليها الفراهّي جمهرته هي بلاغة العرب الخلّص الأقحاح، والبلاغة المقابلة هي بلاغة المولّدين والبلديين المتكلّفين ومن أهل الصنعة المتأدّبين، وهي التي يمثّلها الجرجانيّ، ويقول أيضًا: «ثّم علمت أنَّ سبيلَهم في نقل الكلام لم يكن كسبيل صاحبِ أسرارِ البلاغة، وهو القُدوةُ للّذين جاؤوا مِن بعدِهِ، فاتَّبعوا خُطواتِه، فكان سبيلُهُ سدًّا بينَهم وبينَ العربِ. فلو التزموا كلامَ العربِ، ولم يلتفتوا إلى أصولِ مهَّدها المبعدون، لكان خيرًا

---

(١) جمهرة البلاغة ص ١٠١- ١٠٢.

لهم، وكانوا أقربَ إلى معرفةِ إعجازِ القرآنِ مِن طريقِ الذَّوقِ، وإن لم يكونوا من طريق الصِّناعة»[١]. وعن تأثّر البلاغيين بالأعاجم في بلاغة التحسين والبديع نورد كلام الفراهي الآتي: «لـمَّا رأَوْا أنَّ أرسطو أسّسَ الأمرَ على مهارةِ الاختلاقِ، سبقَ إلى ظنِّ بعضِهم أنَّ أحسنَ الشِّعر أكذبُه؛ وإذ ليسَ في أشعارِ العربِ مِن أمرِ القِصَّة والحِكايةِ إلّا التَّشبيهُ، ظنُّوا أنَّ الغُلُوَّ في التَّشبيهِ مِنَ المحاسنِ، وكما أنَّ المحاكاةَ صارَت عمودَ الرَّجاحةِ عندَ أرسطو، فكذلك صارَ التَّمثيلُ والتَّشبيهُ الَّذي يُشابِهُ القِصّةَ عندَهم قُطبَ البلاغةِ، ثُمَّ إنَّهم وافقوه في عين هذا الرَّأي، فإنَّه قال في عدِّ محاسنِ الكلامِ: «إنَّ أعلى كمالِ البليغِ أنْ يكونَ حاذقًا في استِعمالِ التَّشبيهِ». وقال صاحبُ أسرارِ البلاغةِ: «كأنَّ جلَّ محاسنِ الكلامِ ـ إن لم نقلْ كلَّها ـ متفرِّعةٌ عنها (أنواع التَّشبيهِ) وراجعةٌ إليها»[٢].

فالمقبوسات السابقة تتحدّث عن عدم تحرّي مبدأ البيان والوضوح، أمّا ما يتعلّق بعدم تحرّي الصدق، فنورد الأقوال الآتية للفراهيّ: «الصِّدق في الشِّعورِ والنِّيَّةِ والنُّطقِ»[٣]. ويقول الفراهّي في بيان أهمية الصدق ومركزيته في تحديد مفهوم البلاغة: «فاعلمْ أنَّ الأُمّةَ التي همُّها الصِّدقُ في الكلامِ تَزيدُ كلَّ يومٍ مِن حقائقِ الأشياءِ ما يَسهُلُ بهِ طريقُ البيانِ للمُتأخِّرِ، فاللُّغةُ تَكتسِبُ بذلك وسائلَ وأدواتٍ بها تتكامَلُ وتترقَّى وضاحةً وقوَّةً، والأُمَّةُ التي همُّها الإغراقُ، والوُلُوعُ بالمبالغةِ، والغفلةُ عن حقائقِ الأشياءِ، تملأُ اللِّسانَ بأمورٍ مُبعَدةٍ عن

(١) جمهرة البلاغة ص ١٠١.
(٢) جمهرة البلاغة ص ١٠٨.
(٣) جمهرة البلاغة ص ٢٠٩.

[البيان والوضوح]»[1]. ويدخل في ذلك ردّه لمذهب قدامة في عدم تحرّي الصدق، وذلك قوله: «فإنَّ أبا الفرج قدامة بن جعفر صاحبَ «نقد الشعر» قال قولًا يَضِلُّ به الغافلُ، وإن كان له وجهٌ صحيحٌ، فقال: «ليس فحاشةُ المعنى في نفسه ممّا يزيلُ جودةَ الشّعرِ فيه، كما لا يَعيبُ جَودةَ النّجارة في الخشب مثلًا رداءتُهُ في ذاته»، وقال أيضا: «إنَّ الشّاعرَ ليس يُوصَفُ بأن يكونَ صادقًا، بل إنّما يرادُ منه، إذا أخذَ في معنًى من المعاني، كائنًا ما كان، أن يُجيدَه في وقتِه الحاضرِ». فلم يروِ من الشّعرِ إلَّا شيئًا نازلًا وصناعةً دَنِيَّةً، كما هو وَجْدُ أكثرِ المنتسبينَ إليه، وإليهم الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. ونحن نلتمسُ محاسنَ الكلام كما يليقُ به، وكما وضعتْهُ الفِطرةُ الإلهيَّةُ، ويقتضيهِ كمالُ قوَّةِ النُّطقِ، ويَستعملُهُ الشّاعرُ أو الخطيبُ الجديرُ بهذا الاسمِ»[2]. ولنا أن نمثّل للبلاغتين في الجدول الآتي، مع الإشارة إلى أنّ الفراهي تبنّى البلاغة رقم ١:

البلاغة	الوصف	الغاية	مقابل بلاغيّ	مقابل نقديّ	العناية
١. العربيّة الصرف	الصدق	الحكمة وشرف المعنى	البيان والوضوح	الطبع	الرؤية
٢. المتأثّرة بالأجنبيّة	الاختلاق	اللّذة والتحسين	المبالغة والغموض	البديع	التشكيل

(١) جمهرة البلاغة ص ٢٠٩.

(٢) جمهرة البلاغة ص ١١٣.

المطلب الثاني: تبويب الكتاب وتوصيفه:

قسّم الفراهيّ جمهرته قسمين: الأوّل سمّاه العموميّ، والآخر الخصوصيّ، ثم ذيّلهما بمباحث متفرّقة في البلاغة والنقد والإعجاز والقوافي وسجايا العرب فيما يتعلّق بالبلاغة وقواهم العقليّة والكلاميّة. ويظهر أن القسم العموميّ مخصّص لأمرين: أوّلهما في بيان حسن الكلام وبلاغته ووجوه ذلك الحسن بما هي ردّ لمذاهب البلاغيين العرب في تأثّرهم بالأعاجم، والآخر في بيان أصول البلاغة، أمّا القسم الخصوصيّ فمعدّ لذكر أساليب الكلام؛ يقول الفراهيّ في ختام القسم العموميّ: «حانَ بنا بعدَ ذلك أن نشرحَ أساليبَ الكلامِ مِنَ الإطنابِ والإيجازِ، والوَصْلِ والفَصْلِ، والتَّصريحِ والكنايةِ وغيرِ ذلك شرحًا بَيِّنًا»[1]. فيبدو أنّ الفراهيّ سار على طريقة ابن المعتزّ الذي قسّم البديع إلى أبواب، فمحاسن، فجعل الجمهرة في أصول (القسم العموميّ)، فأساليب (القسم الخصوصيّ). غير أنّ ابن المعتزّ بدأ بما هو خصوصيّ، ثمّ انتقل إلى ما هو عموميّ، مع الإشارة إلى اختلاف المشروعين من جهة الأشكال والتقسيم، واتّفاقهما في تقديم شعراء الطبع على المولّدين بتصريح عند الفراهيّ، وبتلميح عند ابن المعتزّ.

تحدّث الفراهيّ في القسم العموميّ عن قضايا كثيرة في البلاغة والنقد والأدب، وكان حديثه في شقّين: الأوّل في مفهوم البلاغة التي يريدها وفي سياسة البلاغة وفي ردّ المقولات التي دخلت على البلاغة العربية الصرف التي نادى بها فحرفتها عن مسارها الأوّل الصحيح القويم، والشقّ الآخر في أصول

(١) جمهرة البلاغة ص ٢٠٩.

البلاغة. أمّا الشقّ الأوّل في تعيين مفهوم البلاغة، فبيّن فيه أنّ البلاغة المنشودة هي بلاغة العرب الأقحاح الفصحاء التي تنبني على البيان والصدق كما قدّمها الجاحظ، لا على الاختلاق والغلوّ كما قدّمها الذين تأثّروا بالمقولات الأجنبية كقدامة، أو الذين ساروا على نهجهم كعبد القاهر الجرجانيّ.

وأمّا الشقّ الآخر من القسم العموميّ، فقد أفرد له بابًا جعله «في بيانِ أُصُولٍ عامّةٍ للبلاغة ممَّا يتعلَّقُ بالكلامِ، والمتكلِّمِ، والسّامعِ، والمعنى. يقول: إنَّما أخَّرتُ المعنى؛ لكونِهِ هو الغرضَ، ولم أُرِدِ استقصاءَها، ولكنّي أوردتُّ ما كان جديرًا بالذِّكْرِ. فَما يتعلَّقُ بالكلامِ فأصُولُها:

أ ـ مطابقةُ الكلامِ بالمعنى.

ب ـ والوضوحُ.

ت ـ ونَفْيِ الفُضولِ، وحُسنُ التَّرتيبِ.

ث ـ والمقابلةُ، والتَّشبيهُ، والتّمثيلُ مِنَ الوضوحِ، وتنقيحُ اللَّفظِ مِنَ المطابقة.

وممَّا يتعلَّقُ بالسَّامعِ فأصولُها:

أ ـ الاستمالةُ بذِكْرِ مدحِهِم، وإلقاءُ المدحِ بعد اللَّومِ والزّجرِ أوقعُ.

ب ـ وجلْبُ التفاتِهم بذكرِ ما يُنشِّطُهُم مِنَ العجيبِ أو المدحِ أو بالسُّؤالِ»[1].

---

(١) جمهرة البلاغة ص ١٨٧.

لكنّ الفراهيّ لم يلتزم بذكر جميع تلك الأصول فحذف وأضاف، فكانت الأصول التي فصّل فيها كالآتي: الاعتدال، فمطابقة الكلام بالمعنى، فسذاجة الكلام، فالترتيب، فالمقابلة، فتمييز المعاني وفرق درجاتها، فتنقيح الألفاظ، فالإيجاز والإطناب، فادّخار الألفاظ والأساليب، فمنبع الكلام، ثم ختم بواسطة العقد. إن تلك الأصول المذكورة هي محاسن تنتهي إلى تعزيز مفهوم البلاغة التي أرادها الفراهيّ في النزوع إلى الصدق في النيّة والشعور والنطق، وهي تتعلّق بوصف الألفاظ والمعاني والأساليب.

وأمّا القسم الخصوصيّ فذكر فيه الفراهيّ: دلالة الوصل، فالوصل بالمحذوف، فدلالة الوصل بالحذف أو تقديم المتأخّر على السرعة وصحّة التصوير وأمور أُخَر، فدلالة الفصل، ففصلٌ ووصلٌ بالخيال، فحظّ السامع، فدلالة الحذف، فإدراج الدليل، فالمقابلة، فالاستثناء، فانتهاز الفرصة، فما يشبه انتهاز الفرصة في القرآن، فالمجاز والكناية والتشبيه، فدلالة المجاز في الأزمنة، فلسان الغيب، فالإشارة والكناية والتعريض. وهذه المحاسن تنخرط في أربعة أبواب رئيسية هي: الفصل، والوصل، والحذف، والتصوير.

أمّا المباحث المتفرّقة الملحقة بالقسمين السابقين فلا ناظم لها، فهي في: صرف الكلام عن سنّته، فالجملة المعترضة، فوجوه الخطأ في التمييز بين حَسَن الكلام وقبيحه، فروح البلاغة وسرّها، فكمال البلاغة والإعجاز، فمناط محاسن كلام العرب، فقوى العرب العقليّة والكلاميّة، ففي ارتجال العرب (من أبواب سجايا العرب فيما يتعلّق بالبلاغة)، فصوت الخطب، فمذهب العرب

في نقد الكلام، فبابٌ من التمرين في النقد، فمن باب نقد الكلام، فالفواصل والقوافي. وهي مباحث تتعلّق بالنقد والبلاغة والإعجاز والقوافي. إن هذه المباحث تندرج في المبحث الأوّل الذي أفردناه لنشأة البلاغة القديمة وأسسها.

والآن نضع جدولًا نوضّح فيه أبواب الكتاب وأقسامه وفق التصوّر الذي ارتأيناه، ما يبيّن للقارئ الخارطة التي اعتمدها الفراهيّ في بناء جمهرة البلاغة، وهو كالآتي:

الأقسام	الفروع			
القسم العموميّ	مفهوم البلاغة		أصول البلاغة	
	الصدق	البيان	الألفاظ والمعاني	الأساليب
القسم الخصوصيّ	الفصل	الوصل	الحذف	التصوير
مباحث متفرّقة في:	النقد	البلاغة	الإعجاز	القوافي

المطلب الثالث: المقولات المؤثّرة في فكر الفراهيّ؛ عرض ونقد:

ثمّة أربع شخصيّات مهمّة تردّد ذكرها في كتاب الجمهرة، هي الجاحظ، وأرسطو، وقدامة بن جعفر، وعبد القاهر الجرجانيّ، ونشير إلى أن مقولات تلك الشخصيات ذات صلة وثيقة بمضمون الجمهرة، بل إنّ الجمهرة تأسّست على تلك المقولات قبولًا أو ردًّا، ونرى أن تفصيل الكلام فيها سيسهم في جلاء أفكار الفراهيّ وأطروحاته البلاغية والنقديّة، فنشرع بذكرها بدءًا من الجاحظ الذي تبنّى الفراهي مقولاته، ثمّ أرسطو الذي كانت أفكاره وبالًا على البلاغة

العربية ـ بحسب الفراهي ـ ثم قدامة، فالجرجاني اللذين كان لهما أثر كبير في حرف البلاغة العربية الصرف عن مسارها.

١. مقولات الجاحظ:

لقد كان الجاحظ قدوة للفراهي في بناء مشروعه البلاغيّ، من جهة تمجيده لبلاغة العرب الأقحاح، ومن جهة حديثه عن سجايا العرب واقتدارهم، ومن جهة تحديد أسس البلاغة وغير ذلك. فنذكر من المقولات التي استلهمها الفراهيّ من الجاحظ وبنى عليها مشروعه:

ـ قول الجاحظ ـ وهو قول لم يورده الفراهي في الجمهرة؛ نذكره للاستئناس ـ في بيان أنّ البلاغة العربية هي بلاغة العرب الأقحاح: «والعتّابيّ حين زعم أن كلّ من أفهمك حاجته فهو بليغ، فلم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولّدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقّه، إنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه... وإنما عنى العتابي: إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء»[1]. من هنا تتعيّن جهة البلاغة المقصودة عند الفراهيّ.

ـ قول الجاحظ في تمييز كلام العرب الأقحاح من كلام المولّدين: «لم أجد في خطب السلف الطيّب، والأعراب الأَقحاح ألفاظًا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديًّا، ولا قولًا مستكرهًا، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولّدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة المتأدّبين، وسواء كان ذلك منهم

(١) البيان والتبيين ١/١٦١-١٦٢.

على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتاج التخيّر والتفكّر»[١]. والفراهي أخذ هذا الكلام وبنى عليه سبب انحراف البلاغة عن مسارها.

ـ قول الجاحظ في «ومَن أعارَه اللهُ من معرفتِه نصيبًا، وأفرغَ عليه من محبَّتِه ذَنُوبًا = حنَّتْ إليه المعاني، وسَلِسَ له نظامُ اللَّفظ، وكانَ قد أغنى المستمعَ من كدِّ التَّكلُّفِ، وأراحَ قارئَ الكتاب من علاج التَّفهُّم»[٢]. رأى الفراهي من هذا الكلام أن مدارَ البلاغة نور العلمِ وطهارة القلبِ.

ـ نقلَ الجاحظُ أنَّ بعضَ الحاكيةِ كان يُحاكي صوتَ الحمارِ، فإذا نَهَقَ نَهَقَ به كُلُّ حمارٍ حتّى الذي لم يكن يبعثُهُ نُهاقٌ، فكأنَّ الرَّجلَ جمعَ مِنَ النَّهيقِ كُلَّ طُرفةٍ، وجعلَها في نهيقٍ واحدٍ، فاشتدَّ أثرُهُ[٣]. يرى الفراهي من هذا الكلام أنّ المتصنّع المحاكي مخادِع ومُنافق لا روحَ في كلامِه.

ـ قال الجاحظ: «جَنَّبَك اللُه الشُّبْهةَ، وَعصَمك مِن الحَيرة، وجَعلَ بينَك وبينَ المعرفةِ نَسَبًا، وبينَ الصِّدق سَبَبًا، وحبَّبَ إليك التَّثبُّتَ، وزيَّن في عينِكَ الإنصافَ، وأذاقَكَ حلاوةَ التَّقوى، وأشعرَ قلبَكِ عِزَّ الحقِّ، وأودَعَ صدرَك بَرْدَ اليقينِ، وطَردَ عنك ذُلِّ اليأسِ، وعرِّفَكَ ما في الباطل من الذِّلَّةِ، وما في الجهل من القِلَّة»[٤]. هذا الكلام استشهد به الفراهي على براعة الترتيب.

---

(١) نفسه ٢/٨-٩. وينظر: جمهرة البلاغة ص ١٠١- ١٠٢.

(٢) نفسه ٢/٨. وينظر: جمهرة البلاغة ص ١١٨.

(٣) نفسه ١/٦٩-٧٠. وينظر: جمهرة البلاغة ص ١٣٣.

(٤) الحيوان ١/٣. وينظر: جمهرة البلاغة ص ١٩٣.

فالفراهيّ كما يبدو معجبٌ بالجاحظ وبأفكاره النظرية، وبمواقفه النقدية، وبكلامه الأدبيّ، وكان ملهمًا له في بناء مشروعه البلاغيّ، والطريف أنّ الجاحظ عربيّ، دافع عن العربية وأهلها ضد الشعوبية التي برزت في عصره، في حين أن الفراهي ليس من العرب باعتبار مكان النشأة والإقامة على الأقل، وكان وفاؤه للعربية والعرب كبيرًا بما اختارهم الله لحمل رسالته الخاتمة ونقلها للأمم.

٢. مقولات أرسطو:

ـ قال أرسطو: «إنَّ أصنافَ الشِّعرِ ـ والنَّغَمُ جنسُهُ الأعلى ـ محاكاةٌ، فإنَّ الإنسانَ إمَّا من الفِطْرة أو من التَّعلُّم يحاكي أشياءَ مختلفةً بوسيلةِ اللَّونِ والشَّكلِ أو بالصَّوت»[١]. قال الفراهي: فلو قال: إنّ الشِّعرَ بل كلَّ كلامٍ ونغمٍ جنسُهُ الأعلى تصويرٌ = لكان أقربَ.

ـ فلمَّا رأى أرسطو أنَّ غالبَ صِفة الكلامِ المُستحسنِ كونُه قصّةً وحكايةً عن الوقائع، ثمّ رأى أنَّ هذه الحكاياتِ ربّما لا تُطابق الواقعاتِ، وبكذبِها لا تزدادُ إلّا حُسنًا = غلبَ على ظنّهِ أنَّ حُسْنَ الكلامِ في كونِه حكايةً، ثُمّ الْتَمَسَ المِثَالَ، فوجد أنَّ التَّصويرَ يُستحسنُ وإنْ كان يحكي شيئًا قبيحًا، ثُمَّ أحكَمَ هذا الرَّأْيَ بالْتِماسِ عَلاقةٍ بين الاستحسانِ والحكايةِ[٢].

ـ يقول أرسطو: إنَّ الشَّاعرَ أو الصَّانعَ ينبغي أن يكونَ صانعَ حكاياتٍ

---

(١) فن الشعر ص٥٥-٥٦ و٧٩-٨٠. وينظر: جمهرة البلاغة ص ١٠٤.

(٢) يُنظر: نفسه ٧٩. وينظر: جمهرة البلاغة ص ١٠٦.

أو حبكاتٍ أوَّلًا [١]. فرأى الفراهي أنّه كما أنَّ المحاكاةَ صارَت عمودَ الرَّجاحةِ عندَ أرسطو، فكذلك صارَ التَّمثيلُ والتَّشبيهُ الَّذي يُشابِهُ القِصّةَ عندَهم قُطبَ البلاغةِ، ثُمَّ إنَّهم وافقوه في عين هذا الرَّأي.

ـ قال أرسطو: «إنَّ الشِّعرَ حكايةٌ عن أفعال النَّاس؛ إمّا معاليها أو مخازيها»[٢]. وقال الفراهي: أمّا إنَّا فلا نفرِّقُ الشِّعرَ من الخطابةِ من هذه الجهةِ، بل قد وجدْنا الشِّعرَ والخطابةَ شريكَينِ في البلاغةِ، فأيُّما كان منهما لا يكونُ أحسنُهُ إلّا ما كان أبلغَه.

ـ قالَ أرسطو: محاكاةُ الشَّاعرِ ينبغي أن تكونَ مثلَ تماثيلِ زُوْكسِيسَ، والتمثالُ أكملُ من أصلِ الشَّيءِ[٣]. يقول الفراهّي: لا غَرْوَ أن يقولُوا مثلَ هذا القولِ، فإنَّ غرضَ الشِّعرِ عندَهمُ التَّلذُّذُ[٤].

إنّ مذهب أرسطو في أنّ الشعر محاكاة، وأنّ غايته اللذّة، ومبناه على الاختلاق والكذب، ثم اقتداء البلاغيين العرب المتأخرين به حرف البلاغة عن مسارها الأوّل، فصار همّهم البديع والتزيين، ولو كان على حساب الصدق وصحّة التأثّر والإصابة والبيان، وقد لا نرتضي هذا الكلام بصرامته، غير أنّ له وجهًا من جهة أنّ أغلب الشعراء جرّدوا الشعر من جوانبه التداولية المتعلّقة

(١) يُنظر: نفسه ١١٥. وينظر: جمهرة البلاغة ص ١٠٧.
(٢) جمهرة البلاغة ص ١٢٣.
(٣) جمهرة البلاغة ص ١٣٦.
(٤) جمهرة البلاغة ص ١٣٦.

بالرؤيا والمقاصد والبيان، والأخلاقية المتعلّقة بشرف المعنى والحكمة والصدق، وجعلوا ديدنهم الإحسان في التشكيل والتصوير والتحسين.

٣. مقولات قدامة بن جعفر:

ـ قال قدامة: «ليس فحاشةُ المعنى في نفسه ممّا يزيلُ جودةَ الشَّعرِ فيه، كما لا يَعيبُ جَودةَ النِّجارة في الخشب مثلًا رداءتُهُ في ذاته»[١]، وقال أيضًا: «إنَّ الشَّاعرَ ليس يُوصَفُ بأن يكونَ صادقًا، بل إنّما يرادُ منه إذا أخذَ في معنًى من المعاني، كائنًا ما كان، أن يُجيدَه في وقتِه الحاضرِ»[٢]. قال الفراهي: لم يروِ من الشِّعرِ إلَّا شيئًا نازلًا وصناعةً دَنِيَّةً، كما هو وَجْدُ أكثرِ المنتسبينَ إليه.

لقد كان تأثّر قدامة بأرسطو ظاهرًا، وكان أظهر من جهة عدم تحرّي الصدق، ومن جهة ابتغاء التزيين والتحسين.

٤. مقولات عبد القاهر الجرجانيّ:

ـ قال الفراهي: اعلم أنَّ المولَّدينَ زعموا أنَّ النُّدرةَ والبُعدَ في التَّشبيهِ مِن محاسِنِهِ، وقد أسهبَ الجرجانيُّ ـ رحمَهُ اللهُ ـ في إثبات ذلك، وجمعَ التَّشبيهاتِ الرّديئةَ. يشير إلى قول الجرجانيّ: «إذا استقريت التشبيهات، وجدتَ التباعدَ بين الشيئين كلما كان أشدَّ، كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوسُ لها أطرب، وكان مكانُها إلى أن تُحِدث الأريحيّة أقرب»[٣].

---

(١) نقد الشعر ص٦٦ وينظر: جمهرة البلاغة ص ١١٣.

(٢) نقد الشعر ص٦٨ وينظر: جمهرة البلاغة ص ١١٣.

(٣) أسرار البلاغة ١٣٠. وينظر: جمهرة البلاغة ص ١٨٥.

ـ قال الفراهيّ: ولعلَّكَ تعلمُ أنَّ الـمُهذَّبَ هو الكامِلُ التَّهذيبِ، ولو قالَ «مهذَّب» لكان خطأً. ولكنَّ براعةَ هذا الشِّعرِ في هذا الخيالِ لا في نفسِ حرفِ المعرفةِ كما ظنَّ الجرجانيُّ، يشير إلى قول الجرجانيّ في (الموهوم) وهو الخبر المعرّف بأل، والذي يفيد كمال الصفة[1].

لم يكن تأثّر الجرجانيّ بأرسطو واضحًا أو متعيّنًا، غير أنه كان يجنح إلى المناداة بطلب البعد والندرة والفرادة على حساب البيان أحيانًا، ومع اشتراطه أحيانًا أخرى، ونرى أنّ الجرجانيّ على العموم كان يطالب ببلاغة المبالغة أو المناسبة التي تقع في منطقة دون الإغراق والغلوّ، لكنّه كان يميل إلى بلاغة النصّ أو التشكيل أكثر من المضمون والرؤية، وهذا هو المأخذ الذي أخذه عليه الفراهي، فكان مصيبًا فيه بحسب ما نرى.

❊ ❊ ❊

(١) دلائل الإعجاز ص١٨٥ وينظر: جمهرة البلاغة ص ٢٣٠.

طبعات الكتـاب

أولًا: طبعة الهند:

طبعت الدائرة الحميديَّةُ الكتابَ أوَّلَ مرَّةٍ، ونشرته بعد وفاة المؤلف، ولعلَّهُ نفد ولم يصل منه إلا بعض النسخ إلى العالم العربي، وهي طبعة حجرية قديمة أقرب إلى المخطوطات منها إلى المطبوعات، وهي بخط التعليق الذي يُعدّ أوّلَ أشكال الخطّ الفارسيّ؛ مقروء بصعوبة كبيرة؛ لأنه مُلبس بسبب عدم وجود الحركات والشدّات والهمزات، ولغرابة كثير من كلماته، ولتلك الطبعة الفضل في حفظ الكتاب ونشره.

ثانيًا: طبعة دبي:

بعد أن فرغنا من دراسة الكتاب وتحقيقه وقفنا على طبعة جائزة دبي للقرآن الكريم بعناية د. أحمد حسن فرحات؛ اعتمادًا على طبعة الهند آنفة الذكر، ولا شك أنها أفضل منها، وأقرب إلى الإفادة، وقد بُذِلَ فيها جهدٌ كبيرٌ لإظهار الكتاب في أحسنِ صورةٍ، لكن حاله كحال أي جهد بشري، لا بد أن يصيبه النقص، وتؤخذُ عليه بعض المآخذ، لعل أبرزها مع الإحالة إلى مثال على كلٍّ منها:

١ـ القراءة غير الصحيحة لكثيرٍ من الكلمات نحو: العرب الخالص[١] = والصحيح: العرب الخُلّص، التخيّر والتفكر[٢] = والصحيح: التَّحبير والتفكُّر.

(١) جمهرة البلاغة ص ٦١ (فرحات).
(٢) نفسه ص ٦١.

٢ـ ذكر الآية كاملة[١] مع أنها لم تكن كذلك في الأصل، وإضافة عبارات من نحو رضي الله عنه أو عليه السلام[٢]، وإن كانت غير واردة في المتن.

٣ـ الضبط غير الصحيح في مواضع كثيرة، ويؤدي في كثير منها إلى تغيير في المعنى والقصد[٣].

٤ـ الاستفاضة في ترجمة الأعلام المشاهير كامرئ القيس[٤] والنابغة الذبياني[٥] وزهير[٦] والجاحظ[٧] والجرجاني[٨] وأرسطو[٩] وغيرهم ممن هم أشهر من الفراهيّ نفسه، ولا أظن أنَّ ثمة من يجهل أسماءهم ممَّن عنده أدنى اطلاع على الأدب العربي والثقافة العربية عمومًا.

٥ـ إهمال التنبيه على ما في عبارة الفراهيّ من أثر العجمة نحو عودة الضمائر[١٠] والمطابقة في العدد[١١] والتذكير والتأنيث[١٢]، وكذلك ما فيها من

---

(١) نفسه ص ٩٤.

(٢) نفسه ص ٩٦.

(٣) نفسه ص ٦٣: إن أصناف الشعر والنغمِ ـ جنسه الأعلى محاكاةٌ. والصواب: والنغمُ جنسُه الأعلى.

(٤) نفسه ص ٥٨.

(٥) نفسه ص ٧٥.

(٦) نفسه ص ٧٣

(٧) نفسه ص ٦٠.

(٨) نفسه ص ٦١

(٩) نفسه ص ٦٢

(١٠) نفسه ص ٨٩: صفته الغالبة هو النطق.

(١١) نفسه ص ٨٧: وسيلة المحاكاة ثلاث...

(١٢) نفسه ص ٨٧.

لحنٍ أو ركاكةٍ كإسقاط الفاء من جواب الشرط[١] في مواضع وجوبها، وتصدير الخبر بـــ لكن أو إلا أن[٢]... وغير ذلك. وأحيانًا يُعدَّل ما في النص من دون الإشارة إلى ما ورد في الأصل[٣].

٦ـ إهمال تحقيق كثير من الأحكام التي أطلقها الفراهيُّ ومناقشتها وبيان مدى صوابيَّتِها، وإهمال كثير من الفراغات التي جاءت في الأصل، ولم يقدر للفراهي إتمامها، وعدم الإشارة إليها ولو بشيء يسير[٤].

٧ـ إهمال كثير مما يحتاج إلى شرح وتبيان، ذلك أنَّ الفراهيّ له استعمالات للغة نادرة يحاكي بها طريقة الأقدمين[٥] أو يحمّلها معاني جديدة كالتَّشدُّق مثلاً (كالحجاج والمتشدقين من أمثاله)[٦]. وكذلك بعض الكلمات التي استعملها وبدت عنده أشبه بكلمات عادية، وهي في الحقيقة مصطلحات بلاغيَّة معروفة نحو مصطلح التمثيل الذي عبَّر عنه بالمثال[٧].

٨ ـ تفسير كثير من الكلمات على نحو لا ينسجم مع السياق الذي وردت فيه[٨].

---

(١) نفسه ص ٨٩: وإن زفَّه الأثر ربما رقص.
(٢) نفسه ص ٩٤: فالمستمع ـ وإن فهم بعض ما أردت ـ ولكنه لم يفهم...
(٣) نفسه ص ٨٧: فهذه تحاكينا، عدلت عن الأصل: تحاكين، من دون التنبيه على ما فيه.
(٤) نفسه ص ١٤٧.
(٥) نفسه ص ٧٠: جراثيم.
(٦) نفسه ص ٧٧: المتشدقون.
(٧) نفسه ص ١٣١.
(٨) نفسه ص ٩٩: العفرناة.

٩ـ عدم توثيق أغلب نُقُول الفراهي من الكتب الأخرى أو عرض أفكار أصحابها[١]، وكذلك عدم توثيق بعض المعلومات التي يذكرها في الحواشي[٢].

١٠ـ عدم تصحيح الخطأ الوارد في أسماء بعض الأعلام والإبقاء عليه في المتن[٣].

١١ـ الخلل في علامات الترقيم ـ ولا سيما شرطتي الاعتراض[٤] ـ على نحو بيِّنٍ ومفسدٍ للمعنى في كثير من المواضع[٥].

١٢ـ الخلل في ترتيب فقرات الكتاب وتنضيدها، وتفقير الفقرة الواحدة إلى مقاطع قصيرة أثرت في تماسك النص في كثير من المواضع.

وثمة مآخذ أخرى نكتفي عن ذكرها بما أوردنا، فليس الغرض حصرها، بل ذكر أمثلة عليها، دون أن يعني هذا أننا نقلل من أهمية عمله وجهده الكبير في إخراجه، بل له فضل السبق وفضل إظهار الكتاب ونشره وتمهيد السبل للاحقيه لمتابعة ما بدأه، فجزاه الله خير الجزاء.

ثالثاً: طبعة إسطنبول:

وهي هذه الطبعة التي بين أيدينا، وقد بذلنا جهدنا لإخراج الكتاب على

---

(١) نفسه ص ٦٥ و٨١.

(٢) نفسه ص ٧٠- ٧١.

(٣) نفسه ص ٧١.

(٤) نفسه ص ٦٣ و٧١ و٨٩ و٩١.

(٥) نفسه ص ٥٨: إن أصناف الشعر والنغمِ، جنسُهُ الأعلى محاكاةٌ، فإنَّ الإنسان...، والصواب: «إنَّ أصنافَ الشِّعرِ ـ والنَّغَمُ جنسُهُ الأعلى ـ محاكاةٌ».

أحسن ما نرجو أن يكون عليه الإخراج، فكان عملنا أقرب إلى التحقيق، ومنه أننا قمنا:

١ـ بنسخ النص وفق قواعد الإملاء المعروفة اليوم، وتصويب ما وقع فيه، والتنبيه على ذلك في الحاشية، أو التنبيه على الأَولى في الاستعمال، وضبط النص ضبطًا يرفع اللبس، ويدفع الاحتمال، ويجلو المراد.

٢ـ والاستدراك على الطبعتين السابقتين ما فاتهما، وتصويب ما وقعتا فيه.

٣ـ وإتمام ما كان في الأصل من نقصٍ لم يُقدَّر للإمام الفراهي إتمامه بسبب وفاته. رحمه الله تعالى.

٤ـ وتخريج ما ورد في الكتاب من نُقُول وأفكار صرح بها المؤلف أو أشار إليها من مصادرها، وتبيان مدى موافقتها أو مخالفتها لما في تلك المصادر.

٥ـ وتخريج الأشعار من دواوين الشعراء، ونسبتها إلى قائليها إن أغفلها المؤلف، فإن لم يكن لشاعرٍ ديوانٌ مطبوعٌ خرَّجنا أبياته من المصادر البلاغية أو اللغوية القديمة.

٦ـ وإحالة كثير ممّا ناقشه إلى مصادره البلاغية أو النحوية أو اللغوية.

٧ـ وشرح ما يحتاج إلى شرح من استعمالات لغوية أو مفردات على الأصل بعد أن كاد استعمالها يستقر اليوم على غيره، وكذلك شرح المصطلحات التي استعملها بصيغ مختلفة.

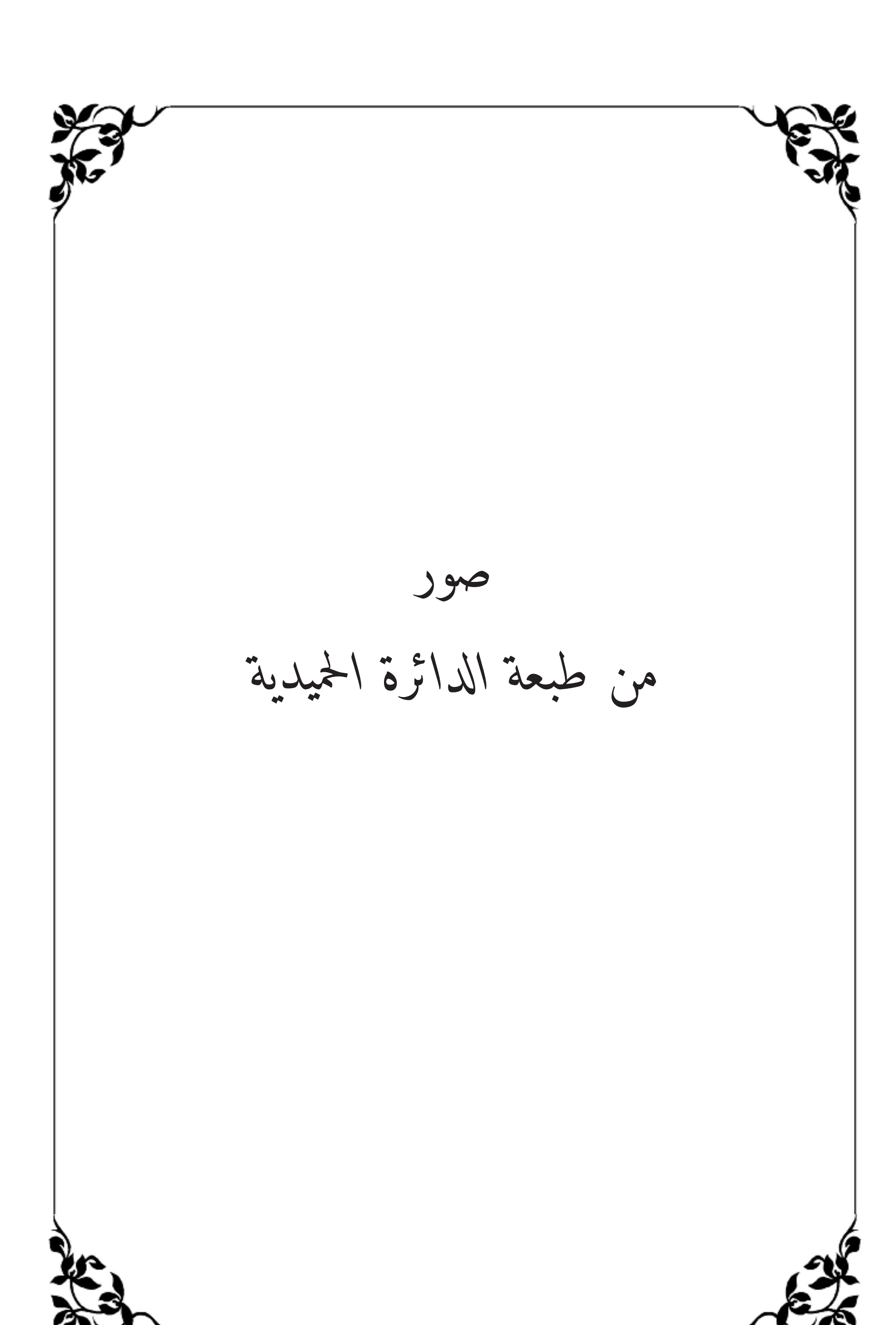
٨ ـ والتعليق على ما جاء في الكتاب في مواضع كثيرة تحتاج إلى مزيد من التفصيل أو التبيان أو الترجيح أو عرض وجهات النظر المختلفة.

٩ـ وتبيان قصد المؤلف في كثير من المواضع التي يُخشى أن يَخفى فيها ذلك القصدُ على القارئ نتيجة طول الكلام أو بسبب أثر العجمة في أسلوبه، أو ربما كان هذا الأخير متأتّيًا من عدم تمكُّن الفراهي من مراجعة كتابه وإعادة النظر فيه، فقد وافاه الأجل قبل ذلك. رحمه الله.

١٠ـ حدّدنا نهاية كل صفحة بحسب المخطوط ووضعنا أرقام الصفحات داخل قوسَين معقوفتَين بهذا الشكل [ ].

ونحن لا ندَّعي لطبعتنا هذه الكمالَ، فذلك ضرب من المحال، ومن ذا الذي يستطيع أن يدَّعي الوصول إليه أو الاقتراب منه، بل ليس عملنا إلا تكملة لما سبقه من جهود في خدمة الكتاب، ولعل ثمة من يأتي بعدنا يستدرك على عملنا ما فاته، ويصحّح ما وقعنا فيه، وهكذا هي الجهود الإنسانية يبني اللاحق منها على السابق.

❊ ❊ ❊



صور

من طبعة الدائرة الحميدية

١

20 7/06

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحن الذي فضل بني آدم على سائر الخلائق ۞ فجعله الحي الناطق ۞ كما فضل محمدًا على سائر بني آدم ۞ فاعطاه ابلغ الكلم ۞ فلنشكرن ربنا الرحمن، بداية على ان علمنا البيان ۞ ونهاية على ان نزل علينا القرآن ۞ ولا شكر لمن جهل بالنعمة فضيعها ۞ اوحولها فاخطأ موضعها ۞ فوجب علينا ان نعرف اسرار البيان وفضائله ۞ كما وجب علينا ان نعرف اعجاز القرآن ودلائله ۞ لنستكمل من فطرتنا عنصرها ۞ ونستقي من عيون الوحي كوثرها ۞ وها انا اشرع في المقصود ۞

القسم العمومي

distinctive feature

(بحث عن مخل هذا العلم ونسبه)

(جوهر)

اعلم ان البيان كالظل والاثر للنطق الذي هو مقوم للانسان كما ان النطق ظل من الوحي الاعلى وكلمة الله العليا فالبحث عن اوليات علم البيان يجلبنا الى الحكمة الالهية ولكنا الآن في الجدول فلا نغوص البحر غير ان لا ننساه ونعلم ان اليه منتهاه وهل المصير شئ الا الله وقدمنا هذه الكلمات ليتبين لك الفرق بين تعاطينا (ابتدا) العلوم لا سيما هذا العلم وبين تعرض الامم الاخرى له فانهم نظروا اليه من نظر دني ودنياوي فغالتهم غوائلها وابعدهم عن الحق باطلها فتراكمت عليهم ظلمات بعضها فوق بعض ولكي يسطع لك النور البازغ ويجتنك الى الافق الاعلى ثم تصعد بك الى ربوة النظر

غال : ہلاک کرنا   غائلة (جمع غوائل) : مصیبت

٢

والنقد والتأمل .

صعوبة معرفة محاسن الكلام

(١) قد اتفق الناس من القديم والحديث على ان في الكلام حسنا وقبيحا وعاليا وسافلا وكذلك اجتمعت كلمة كل امة على تحسين ما كان منه في الحسن على غاية الكمال مثل تحسينهم كلام هومروس في اليونان وامرئ القيس في العرب وفردوسي في الفرس . ولكنهم اختلفوا على تعيين موضع الحسن وتفضيل بعض الكلام على بعض . حتى ان البصراء بالنقد يخالف من هو ليس بدونه (وهكذا العادة في كل لذيذ مرغوب . لان اكثر الاشياء المستحسنة غير بسيطة) واسباب الحسن فيه غير واحد . فاما البسيطة كالنور والنشر والحلاوة والنعومة والراحة بعد التعب والعمل عند وجدان النشاط والحر بعد القر والبرودة بعد السخونة وكلما كان مثلها فلا ترى الناس فيه على خلاف الا في المدارج فان بعض النفوس لا تشبع بمقدار تشبع به اخرى وبزمان يكفي غيرها . فاما اذا كثرت وتلازمت اسباب الحسن وتركبت على اختلاف مقاديرها مالت كل نفس الى ما كان انسب لها . فالشيء الذي اجتمعت فيه اسباب المحاسن اكثر مما هي في دونه وعلى مقدار وسط يرتضيه اكثر النفوس واواسطها حكموا برجاحته واستقر له حكم الجمهور ثم الباقون يضمون اصواتهم باصواتهم ولكن مع ذلك منهم من يرجح عليه ما كان انسب بطبعه بالخصوص وربما يظهر رايه اذا لم يبال بمن لا يوافقه . ولما ان صوت الجمهور ارفع واجهر فيبقى الصيت لمن تعصبوا له ، لا سيما اذا كان فيه محاسن يستحبها العقلاء والحكماء ، واذا انضم رأيهم برأي الجمهور رسخت في القلوب رجاحة الشيء فان لم يتفق بذوق بعضهم فهو يتهم نفسه ويسعى ان يسمع ويرى ما يراه الائمة وسراتها . فان لم يلتذ به اخفاه في نفسه والقى كلامه مع كلام الناس . فهكذا وقع لهومروس وامرئ القيس واشباههما فليس

والعيش خير في ظلال — النوك ممن عاش كدا

"يقول ان العيش الناعم في ظلال النوك خير من العيش الشاق في ظلال العقل فاخل بشئ كثير" وهذا عين اسلوب العرب فانهم يحذفون مايدل عليه المقابل وذلك مبسوط في باب الحذف وفي البيت عند غير الماهر عيب آخر وهو المقابلة بين العيش والذي يعيش و لكنه عام في كلام العرب .

الفواصل والقوافي

هذا باب آخر من محاسن الكلام في نغمته وجودته لاهتمام خاص بشانه

فاعلم هداك الله واياي ان القافية شئ طربت له العرب ثم كانت تلتذ بمحاسنها. وتعدها كالوشي والتنميق في الكلام حتى انهم اعطوا للشعر اسم القافية ووصفوا الشعر بلذة مقاطعه كما انهم وصفوه بجودة نسجه انشد الجاحظ (ص ٩٠) ـه

فان اهلك فقد ابقيت بعدي — قوافي تعجب المتمثلينا

لذيذات المقاطع محكمات — لو ان الشعر يلبس لارتدينا

ثم اعلم ان محاسنها عند العرب ارفع ليس كما عند المولدين من التجنيس والزام مالا يلزم وجعلها مثنى كالمثنوي عندهم ولكن لها عندهم اصولا اخر فاعلم انهم انما يبنون الكلام على نوع واحد من القافية كما تجد في قصائدهم وانما يؤلفون قوافي شتى كما ترى في اسجاعهم. فالامر الذي يعم كليهما هو انهم يستحسنون للقافية ما كان سهلا غير ضئيل او جزلا غير ثقيل فان القافية في كلامهم كالبلق والحلية تنبه لها الاسماع من الغفلة فلم يصغر عندهم قدرها ولذلك لا لا تجد في كلام امرئ القيس وطرفة قافية مثل زليت وشتيت وفي كلام غيرهما لا تجدا امثالها الا قليلا

فلا تجد القافية المستهجنة فی طوال قصائدهم. ومدار الامر فی ذلک علی سهولة التنفس مع فخامة ما فی صوت الحرف.
فترٰهم اختاروا المدة والهاء لرويهم اما المدة فكثير واما الهاء فليست بنادرة مثل طارق تيشمه فی شرده.
ثم بعد ذلک الساكن بعد المتحرک كما قال المرقش ع

رقش فی ظهر الاديم قلم

فهذه ثلاثة اقسام. الاول والثانی سويان فی الشعر وغير الشعر والثالث اكثر فی غير الشعر منه فی الشعر
ثم القسم الرابع هو الساكن بعد المدة فهو نادر فی الشعر وكثير فی غير الشعر ومستحسن مثل وان عين روح ثم واحد
يختص بالشعر وواحد خاص بالمنثور فالخاص بالشعر ما فيه اشباع الروی واما الخاص بغير الشعر فالساكن
بعد الساكن غير المدة مثل والفجر وليال عشر، والشفع والوتر. فهذه ستة اقسام عامة تعم الحسن والروی
اذا اخذتها منفردة.

ثم اذا ركبت القوافی فلا تنوع فيها فی الاشعار غير اختلاف الياء والواو والمدتين ولا تعبأ بما نذر
من اختلاف الميم والنون. فاما فی النثر فلما تنوع له اصول تذكرها :-

(۱) لحاظ فی اختيار الياء والواو ليكون علی ترتيب حسن غير جامد علی التكرار المقرر فياتيک
نوع بعد نوع جديدا ولم تنتظر له.

(۲) تركيب الميم مع النون حسب ما مر.

(۳) تركيب بين حروف مختلفة وتخليطها واشتباكها جما مر.

(۴) تبديل آخر الروی مع اتحاد الحرف او الحركة قبله مثلا جمع صيف مع بيت وخوف جسام.

(۵) تبديل القافية فی انتهاء الجملة وهذا عون علی الاخبار بختم الكلام وكل متكلم يغير صوته
عند ما ينتهی كان ذلک امر فطری.




القسم الثاني
التحقيق

- خطبة الكتاب.
- القسم العمومي.
- القسم الخصوصي.
- مباحث متفرقة.

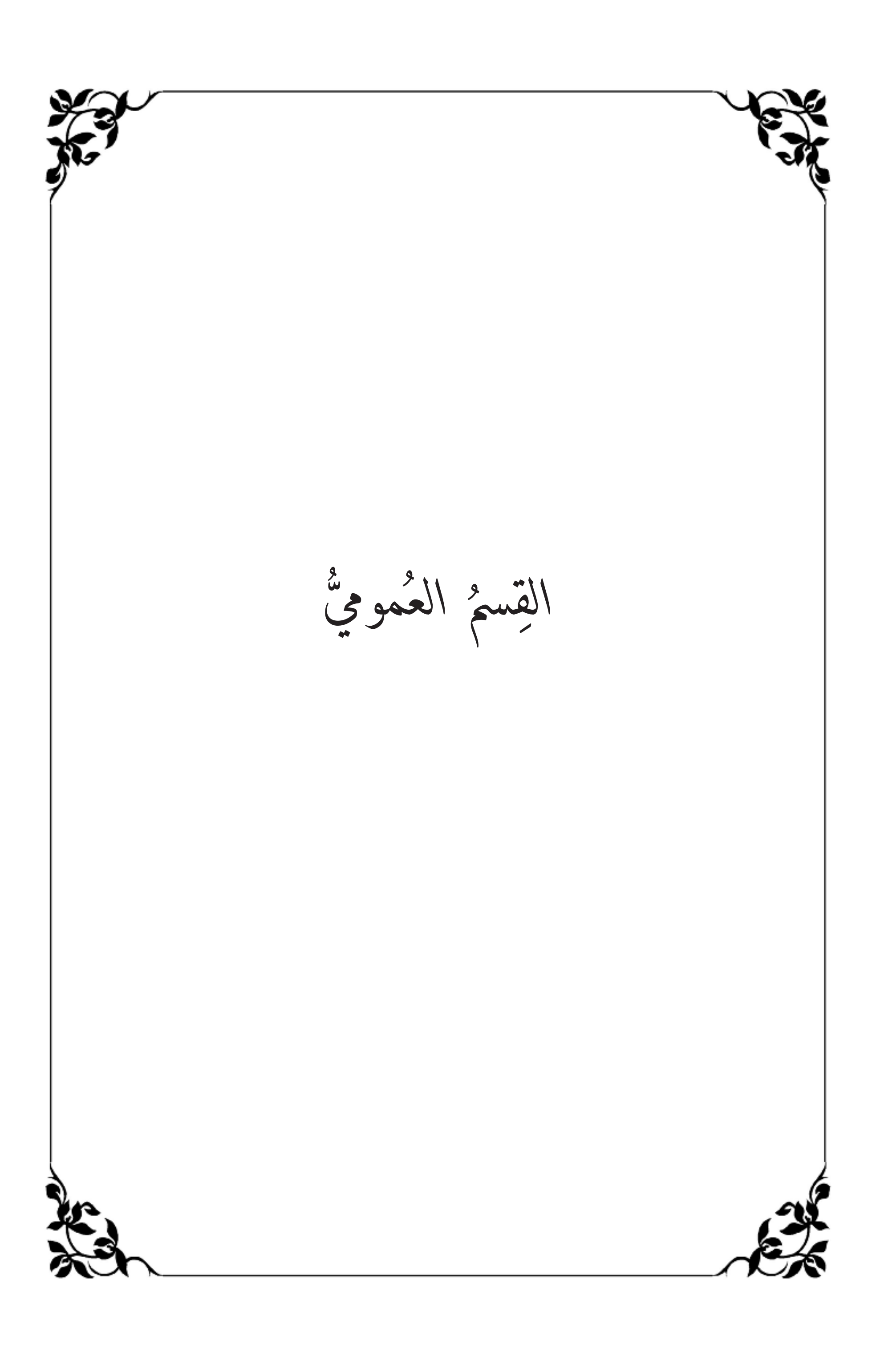



خُطبةُ الكِتابِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سبحانَ الذي فضَّل بني آدمَ على سائِر الخلائِقِ، فجعلَه الحيَّ النَّاطِقَ، كما فضَّلَ محمَّدًا على سائِرِ بني آدمَ، فأعطاهُ أبلغَ الكَلِمِ. فَلَنشكُرَنَّ ربَّنا الرحمنَ بدايةً على أنْ علّمنا البيانَ، ونهايةً على أن نزّلَ علينا القرآنَ، ولا شكرَ لمن جهِل بالنِّعمة، فضيَّعَها، أو حوَّلَها، فأخطأَ موضعَها. فوجبَ علينا أن نعرفَ أسرارَ البيانِ وفضائِلَه، كما وجبَ علينا أن نعرفَ إعجازَ القرآنِ ودلائلَهُ؛ لنستكملَ مِن فطرتِنا عنصرَها، ونستسقيَ مِن عُيونِ الوحيِ كوثرَها. وها أنا أشرعُ في المقصود.

❊ ❊ ❊



القِسمُ العُموميُّ

بحثٌ عن محلِّ هذا العلمِ ونَسَبِهِ

اعلمْ أنَّ البيانَ كالظِّلِّ والأثرِ للنُّطقِ الذي هو مُقَوِّمٌ للإنسان، كما أنَّ النُّطقَ ظِلٌّ مِنَ الوحي الأعلى وكلمةِ اللهِ العليا، فالبحثُ عن أُوْلَيَاتِ علم البيانِ يجلبُنا إلى الحكمةِ الإلهيّةِ، ولكنّا الآنَ في الجَدْولِ، فلا نغوصُ البحرَ، غيرَ أنْ لا ننساه، ونعلمَ أنّ إليهِ مُنتهاهُ، وهل المَصِيرُ لشيءٍ إلّا [إلى] [١] الله.

وقدَّمنا هذه الكلماتِ؛ ليتبيّنَ لك الفرقُ بين تعاطينا العلومَ لا سيَّما هذا العلمِ، وبين تعرُّضِ الأممِ الأُخرِ له، فإنَّهم نظروا إليه من نظرٍ دَنِيٍّ دنياويٍّ، فغالتْهم غوائِلُها[٢]، وأبعدَهم عن الحقِّ باطلُها، فتراكمت عليهم ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ؛ ولكي يسطعَ لك النُّورُ البازغُ وجَّهتُكَ إلى الأُفق الأعلى، ثمّ نصعدُ بك إلى رَبْوَةِ النَّظر [١] والنَّقد والتَّأمُّل.

* * *

---

(١) زيادة منّا يقتضيها السياق.

(٢) غوائلها: جمعٌ مفردُهُ غائلةٌ، ولها معانٍ عدَّةٌ، منها: الفسادُ والشرُّ والمصيبةُ. لسان العرب (غول).

صعوبة معرفة محاسن الكلام

قد اتَّفق النَّاسُ من القديمِ والحديثِ على أنَّ في الكلام حَسَنًا وقبيحًا، وعاليًا وسافلًا، وكذلك اجتمعت كلمةُ كلِّ أمَّةٍ على تحسينِ ما كان منه في الحُسْنِ على غايةِ الكمال، مثلُ تحسينِهم كلامَ هومِيروس[١] في اليونان، وامرئِ القيسِ[٢] في العرب، وفردوسيّ[٣] في الفُرْسِ.

ولكنّهم اختلفوا على تعيين مَوْضِعِ الحُسْنِ وتفضيلِ بعضِ الكلامِ على بعضٍ، حتّى إنَّ أبصرَ النَّاسِ بالنَّقد يُخالِفُ مَن هو ليس بدونِهِ، وهكذا العادةُ في كلِّ لذيذٍ مرغوبٍ؛ لأنَّ أكثرَ الأشياءِ المستحسنةِ غيرُ بسيطةٍ، وأسبابُ الحسنِ فيه غيرُ واحدٍة. فأمّا البسيطةُ كالنُّورِ، والنَّشْرِ[٤]، والحلاوةِ، والنُّعومةِ، والرَّاحةِ بعدَ

---

(١) لقبٌ لأعظمِ شعراءِ اليونان وحكمائها في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، لقِّب به لجلل نزل به في حياته، فغلب على اسمه المختلف فيه، ولد في إزمير، وفيها تعلَّم على يد فيميوس، وهو شاعرٌ كفيفٌ صار مجلسُهُ ديوانَ الأدبِ وكعبةَ الحكمةِ في زمانِه، توفي في جزيرة يوس، ودُفِنَ فيها. انظر ترجمته في مقدمة كتاب الإلياذة ص١١-٣٠.

(٢) انظر ترجمته في: طبقات فحول الشعراء ٥١/١، والشعر والشعراء ١٠٥/١.

(٣) أبو القاسم فردوسّي، شاعر فارسي من أعظم شعراء الملاحم، ولد في خراسان، وعاش في ظل حكم السامانيين، له ملحمة الشاهنامة التي تصل إلى ستين ألف بيت شعري، توفي في طوس ١٠٢٠ م تقريباً، ودفن فيها. انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٨٩/١٧.

(٤) النَّشْرُ: الرِّيح الطَّيِّبة. اللسان (نشر).

التَّعبِ، والعملِ عند وِجدان النَّشاطِ، والحَرِّ بعدَ القَرِّ، والبرودةِ بعدَ السُّخونةِ، وكلِّ ما[١] كان مثلها، فلا ترى النَّاس فيه على خلافٍ إلاّ في المدارج. فإنّ بعضَ النُّفوس لا تشبعُ بمقدارٍ تشبعُ به أخرى، وبزمانٍ يكفي لغيرها. فأمّا إذا كثرَتْ وتلاءَمَتْ أسبابُ الحسنِ، وتركّبت على اختلافِ مقاديرها، مالت[٢] كلُّ نفسٍ إلى ما كان أنسبَ لها.

فالشَّيءُ الذي اجتمعت فيه أسبابُ المحاسِنِ أكثرُ ممّا هي في دونِه وعلى مقدارٍ وسَطٍ ترتضيه أكثرُ النُّفوسِ وأواسطُها = حكموا برجاحتِه، واستقرَّ له حُكمُ الجمهورِ، ثمّ الباقون يضُمّون أصواتهم بأصواتهم. ولكنْ معَ ذلك مِنهم من يُرجِّحُ عليه ما كان أنسبَ بطبعِهِ بالخصوصِ، وربّما يُظهِرُ رأيَه إذا لم يُبَالِ بمن لا يُوافقُه.

ولِمَا[٣] أنّ صوتَ الجمهور أرفعُ وأجهرُ؛ فيبقى الصِّيتُ لمن تعصَّبوا له، لا سيَّما إذا كان فيه محاسنُ يستحبُّها العُقلاءُ والحكماءُ، فإذا انضمَّ رأيُهم برأيِ الجمهور رسخَتْ في القلوبِ رجاحةُ الشَّيء، فإن لم يتَّفِق بذوقِ بعضِهم فهو يتَّهِمُ نفسَه، ويسعى أن يسمعَ ويرى ما تراه الأُمَّةُ وسراتُها، فإن لم يتلذَّذْ به أخفاه في نفسِه، وألقى كلامَه مع كلامِ النَّاسِ. فهكذا وقعَ لهوميروس وامرئ القيس وأمثالِهما.

---

(١) في الأصل (وكّلما) موصولتان.

(٢) الأولى: فمالت؛ لأن جواب أمّا لا بدَّ له من الفاء الرابطة إلاَّ إذا قدَّرنا قولاً محذوفًا، وإذا استوى التَّقديرُ وعدمُهُ فعدمُه أولى.

(٣) ما: زائدة، والتقدير: ولأن صوت الجمهور...

فليسَ [٢] كلُّ واحدٍ من النَّاس يجدُ في كلامِهِم ما يهزُّ نفسَهُ، وما استقرَّ لهم هذا الفضلُ الباهِرُ إلَّا بعدَ مرورِ الزَّمانِ واتِّفاقِ كلمةِ الأمَّةِ لهم قرنًا بعدَ قرنٍ، فما زادَتْ لهم الأيَّامُ إلَّا استقرارًا وغلبةً حتى إنَّ سُلطانَهُم يقهرُ كلَّ مَن يخالفُهُم، وإن كانَ ملكًا مطاعًا.

فمَعَ أنَّ للكلامِ حُسنًا وعُلوًّا تُذعِنُ له الأذواقُ، صعُبَ سبيلُ النَّقدِ والتَّمييزِ، وأُبهِمَت معرفةُ كُنْهِ الحُسْنِ وسرِّ البراعةِ، حتى إنَّك ترى شعرًا ونثرًا يَروقُ أكثرَ النَّاقِدينَ وعامَّةَ أهلِ الذَّوقِ، ولكن إذا سألتَهُم عن وجْهِ الحُسْنِ اختلفَتْ كلمتُهُم، كما إذا سمعوا صوتًا أو شَمُّوا طِيْبًا، فسألتَهُم مِن أيِّ جهةٍ جاءَكُم هذا؟ اختلفُوا في جوابِهِم.

❊ ❊ ❊

بلاغةُ العجمِ

كما أنَّ علماءَ الإسلامِ أقبلُوا على هذا الفنِّ؛ لأجلِ الكشفِ عن إعجازِ القرآنِ، فلو أنَّهم استَقْصَوا كلامَ العربِ، واقتفَوا آثارَ المحاسِنِ فيه، وقيَّدُوها بالحدودِ، ونَظَمُوها في ترتيبٍ حتى يصيرَ لهم ميزانٌ ومَحَكٌّ لمعرفةِ محاسِنِ الكلامِ، ثُمَّ نظرُوا في براعةِ القرآنِ ونظْمِهِ المعجزِ = لكانُوا أقربَ إلى معرفتِهِ، ولكنَّهُم لم يأخذوا مِنَ العربِ ولا مِن كلامِهِم، فإنَّهم أثَّرتْ فيهم علومُ العجمِ، كما خالطَتْهُم سجاياهم، إلَّا الأوَّلِينَ منهم[1] كالجاحظِ، فإنَّه لا يَبعدُ عن سُنَنِ العربِ كبُعدِ صاحبِ دلائلِ الإعجازِ[2]، ولم يَبعُدْ هذا إلاَّ لقلَّةِ ممارستِهِ بكلامِ العربِ الخُلَّصِ، فلو تيسَّرَ له ذلك عرفَ منزلتَهُم في هذهِ الصِّناعةِ، واعترفَ بفضلِهِم على المولَّدينَ، وقال بقولِ الجاحِظِ: «لم أجدْ في خُطَبِ السَّلفِ الطَّيِّبِ والأعرابِ الأقحاحِ ألفاظًا مسخوطةً، ولا معانيَ مدخولةً، ولا طبعًا رديًّا، ولا قولًا مُستكرهًا، وأكثرُ ما نجدُ ذلك في خُطبِ المولَّدينَ [وفي خُطبِ][3] البَلديِّينَ المُتكلِّفِينَ، ومِن أهلِ الصَّنعةِ المتأدِّبِينَ، وسواءٌ كانَ ذلك [منهم][4] على

(١) لا داعي لذكر «منهم»؛ لأنها للتبعيض، و«إلا» للاستثناء، وإحداهما تؤدي الغرض.
(٢) هو عبد القاهر الجرجانيّ، ولم يسمّه لشهرته وشهرة كتابه، توفي ٤٧١ هـ.
(٣) زيادة من البيان والتبيين ٢/٩.
(٤) زيادة من البيان والتبيين ٢/٩.

جهةِ الارتجالِ والاقتضابِ، أو كانَ مِن نتاجِ التَّحبيرِ والتَّفكُّرِ»[١].

فلمَّا تركُوا منهجَ كلامِ العربِ صارَ أهمَّ شيءٍ عندَهُمُ البديعُ، ومَطمَحَ نظرِهِم التَّشبيهُ، وعندَ الأوَّل[٢] أوَّلُهُما مُنكَرٌ، والثَّاني غيُر مُهِمٍّ لذاتِه، وإن كانَ هذا البحثُ يتعلَّقُ بالتَّاريخِ، ولكنَّهُ يُمهِّدُ لنا [٣] سبيلَ الفرقِ بينَ بلاغةِ العرب وغيرِ العربِ، وأصلِ البلاغةِ والباطلِ الشَّبيهِ بها.

❊ ❊ ❊

(١) البيان والتبيين ٢/٨-٩.

(٢) أي الجاحظ.

بلاغةُ العرب

فاعلم[١] أنَّه ليس أنَّ العربَ أُعْطُوا البلاغةَ، ولم يُعطَوا تمييزًا بين محاسنِ الكلامِ ومساوئه، وانتباهًا لمواضعِ الجَودةِ والرَّداءة فيه، فإنَّهم كانوا يُباهون ببراعةِ الكلامِ، ويُحكِّمُون بينهم مَن كان أبصرَهم بنقدِهِ ـ والأخبارُ في ذلك كثيرةٌ[٢] ـ حتىّ بلغَ أمرُ البلاغةِ فيهم منزلةَ نظامِ المُعاشرةِ، فكان خطيبهم يأخذُ بزِمامِ القومِ، فيقودُهُم إلى حيثُ شاءَ، ويقومُ شاعرُهُم، فيرفعُ قومَه من الأرضِ إلى السَّماءِ، فأجدِرْ بقومٍ هذا شأنُهم أن يجريَ ذوقُهُم في هذه الصِّناعة على سُنَّةٍ وأُصولٍ معلومةٍ، وإلّا فكيف[٣] يقضي فيهم حَكَمُهم، أم كيف يُذعِنُ لِحُكْمِه أربابُ العقلِ فيهم؟!

وإنْ رأيتَ في كتب الأدب نقدَهم وبيانَهم وجوهَ[٤] المزيَّةِ لكلامٍ على كلامٍ علمتَ باليقينِ صِدقَ هذه الدَّعوى، وذكرنا نُبَذًا منه في باب اختيار اللفظ[٥].

ثّم علمت أنَّ سبيلَهم في نقل الكلام لم يكن كسبيل صاحبِ أسرارِ

---

(١) قال ابن الأنباري: لا يفتتح الكلام بالفاء. ينظر: البحر المحيط ٣٩٦/١٠، وغنية الأريب عن شروح مغني اللبيب ص٣٥٤.

(٢) من ذلك أخبار النابغة الذبياني. ينظر: الموشح ص٦٠، وخزانة الأدب ١١٠/٨.

(٣) في الأصل: كيف. وما أثبتُّ هو الصوابُ.

(٤) منصوب بالمصدر نقدهم أو بيانهم.

(٥) لم يعقد الفراهيُّ بابًا لاختيار الألفاظ، بل لتنقيحها. ص٢٠٠.

البلاغة[١]، وهو القُدوةُ للذين جاؤوا مِن بعدِهِ، فاتَّبعوا خُطواتِه، فكان سبيلُهُ سدًّا بينَهم وبينَ العربِ. فلو التزموا كلامَ العربِ، ولم يلتفتوا إلى أصولِ مهَّدها المبعدونَ = لكان خيرًا لهم، وكانوا أقربَ إلى معرفةِ إعجازِ القرآنِ مِن طريقِ الذَّوقِ، وإن لم يكونوا من طريق الصِّناعة[٢].

وكانوا أقلَّ عُذرًا من أرسطو[٣]، وهو أوَّلُ كاتبٍ يوجدُ رأيَهُ في هذا الفنِّ؛ فبدأ[٤] كتابه على الشِّعر[٥] بقولٍ كاد يَهديهِ إلى الصَّواب حيث قال: «إنَّ أصنافَ الشِّعرِ ـ والنَّغَمُ جنسُهُ الأعلى ـ محاكاةٌ، فإنَّ الإنسانَ إمَّا من الفِطْرة أو من التَّعلُّم يحاكي أشياءَ مختلفةً بوسيلةِ اللَّونِ والشَّكلِ أو بالصَّوت»[٦]. فلو قال: إنّ الشِّعرَ بل كلَّ كلامٍ ونغمٍ جنسُهُ الأعلى تصويرٌ = لكان أقربَ؛ إذ ليس بين المحاكاة والتَّصويرِ إلّا فرقٌ يسيرٌ، ولكنَّه أبعدَه عن الصَّواب خطؤُهُ في غاية الشِّعر ومادَّتِه ومَبدئِهِ، وكان مثارَ خطئِهِ كلامُ قومِهِ واستعمالُهُم [٤] إيَّاهُ.

ولو بحث عن أمرِ الشِّعر على طريق الفلسفة، ونظر فيه من جهة العِلَلِ التي ألحَّ على البحث عنها في «ما بعد الطبيعة»، وردَّ فيه على الحكماء الأقدمِينَ = لم

---

(١) هو عبد القاهر الجرجانيّ.

(٢) أي: وإن لم يكونوا ممَّن سلكَ طريقَ الصِّناعةِ.

(٣) فيلسوف يوناني ولد ٣٨٤ ق.م. انظر ترجمته في: مقدمة كتاب الشعر ص١١، ومعجم الفلاسفة ص٥٢.

(٤) في الأصل: فبدء.

(٥) وهو كتاب فنّ الشعر، وله طبعات عدة.

(٦) فن الشعر ص٥٥-٥٦ و٧٩-٨٠. (حمادة)، ص٤ (بدوي).

يَخْفَ عليه الصَّوابُ بعدَ الاقترابِ، ولم يَلتبِسْ عليه غايةُ الشِّعرِ، فمرّةً يزعُمُ أنّها الأثرُ والإطْرابُ، وحينًا يزعُمُ أنّها القِصّةُ؛ لأنّ العملَ غايةُ كلِّ شيءٍ لا الصِّفةَ، وهذا مع الخَبْطِ مَغلطةٌ أُخرى؛ فإنَّ العملَ لا وزنَ له من دون الصِّفة، ولكنَّ هذا أمرٌ يُخرجُنا عن فنِّ البلاغةِ إلى علم الأخلاقِ.

وإنّا لنُحْسِنُ الظنّ بأرسطو، فنقولُ: لعلَّ كتابَه على الشِّعرِ بداهةُ[1] ريْعَانِ حِكمتِه، وكان أولى بنا الصَّفحُ عن إبرازِ باطلِه، لولا أنْ رأينا أثرَهُ قد تغلغلَ في هذه الصِّناعة، والنَّاس أذعنوا له فيما مهَّدَهُ، فإنَّه عندَنا لأقربُ عُذرًا من علمائِنا الَّذين كتبُوا على البلاغةِ بعدَ ما رأَوا إعجازَ القرآنِ وعجائبَ لغةِ العربِ. وظنّي به أنَّ الرَّجُلَ لو كان في العربِ، ورأى حُسْنَ كلامِهم = أصاب الحقَّ، ولكنّه نظرَ في كلامِ قومِه، فبنى فنَّ نقدِ الشِّعر حسبَ ما وجدَ في أحسنِ كلامِهم، ولـمَّا كان جلُّ أشعارِ يونانَ قَصصًا وحكاياتٍ مكذوبةً مثل نظم هُومِيروس وسوفاكليس[2] وغيرِهما = أمعنَ[3] فيها لاستنباطِ أصولِ النَّقدِ ومَناطِ المحاسنِ، وهذا هو الطَّريقُ. فإنّ المحاسنَ تُوجَدُ أوَّلًا، ثُمَّ أهلُ النَّظرِ يستخرجون منها الأُصولَ، كما أنَّ أصولَ الطَّبيعيّات تُستخرَجُ من[4] آثارِها، ولكن قلّما يَسلمُ المرءُ من الخطأ

---

(١) البداهة: هي أوَّلُ كلِّ شيءٍ وما يَفْجَأُ مِنه. ويقول الأزهري: البَدهُ هو أن تستقبلَ الإنسانَ بأمرٍ مفاجأةً، والاسمُ البديهةُ في أوَّل ما يُفاجأُ به، وبَدَهَهُ بالأمرِ: استقبلَهُ بِهِ. لسان العرب (بده).

(٢) مؤلف مسرحي يوناني، وأحد شعراء المأساة المشهورين، ولد في أثينا عام ٤٩٦ قبل الميلاد، وتوفي ٤٠٥، له ما يقرب من ١٢٠ تراجيديا، لم تصل كلها. انظر ترجمته في: الموسوعة العربية العالمية ١٣/٢٤٨

(٣) في الأصل: فأمعن. ولا وجه للفاء، لأنَّه جوابُ لـمَّا.

(٤) في الأصل: عن. والصواب ما أثبتُّ.

في استنباط أُصولِ الآثارِ، فإنّ الشَّيء المؤثِّرَ يستجمعُ عدّة صفاتٍ. فالمستنبِطُ ربمّا يتوهَّمُ الصِّفةَ[١] الغالبِةَ على سائِرها مَناطَ الأثرِ الذي يُطْلَب أصلُهُ، مثلاً: إذا رأى زنجيٌّ أنَّ الإنسانَ أكثرُ عقلًا وأبينُ لسانًا من سائر الحَيَوانات، ورأى أنَّ الصِّفةَ الغالبَةَ الفارقةَ الظَّاهرةَ هي سوادُ جِلْدِه وتَعَرِّيهِ من الشَّعَر؛ فتوهَّمَ أنَّ الأَسْوَدَ الأمْلَسَ أكثرُ عقلًا وبيانًا من غيره. فإذا رأى رجلًا على غيرِ هذه الصِّفة ظنَّهُ أشدَّ النَّاسِ بَلادةً وعِيًّا، ولا تستبعدْ هذا الأمرَ من الملقَّبِينَ بالحكماءِ. ألا ترى ابن سينا كيفَ غلبَ على ظنِّهِ أنَّ الحياةَ والقوى من الحرارةِ، وأنَّ النُّضجَ أشدُّ ما يكون في الأقاليم الحارَّةِ، فأكملُ النَّاسِ بنيةً مَن يسكنُ تحتَ خطِّ الاستواءِ، ولمثل هذه التَّوهُّماتِ أمثلةٌ لا تحصى، فإنَّ موقفَ المستنبِطِ [٥] للأُصولِ موقفٌ صعبٌ، فكثُرَتْ فيه مصارِعُ الحكماء حتّى لا يخفى على العامّة شِدَّةُ اختلافِهم فيما بينَهم، وحسبُك مِنه هذا القَدْرُ هَهُنا.

فلمَّا رأى أرسطو أنَّ غالبَ صِفة الكلامِ المُستحسنِ كونُه قصّةً وحكايةً عن الوقائع، ثمّ رأى أنَّ هذه الحكاياتِ ربّما لا تُطابق الواقعاتِ، وبكذبِها لا تزدادُ إلّا حُسنًا =غلبَ على ظنِّهِ أنَّ حُسْنَ الكلامِ في كونِه حكايةً، ثُمّ الْتَمَسَ المِثَالَ، فوجد أنَّ التَّصويرَ يُستحسنُ وإنْ كان يحكي شيئًا قبيحًا، ثُمَّ أحكَمَ هذا الرَّأْيَ بالْتِماسِ عَلاقةٍ بين الاستحسانِ والحكايةِ، فاعتصمَ بأمرَينِ[٢]:

الأَوَّلُ: أنَّ الإنسانَ حاكيةٌ بالطَّبعِ أكثرَ مِن سائر الحيْوانِ، فهذه الصِّفةُ أنسبُ بطبعِه وأحبُّها إليه.

(١) في الأصل: صفة.

(٢) فن الشعر ص٧٩ (حمادة)، ص١٢ (بدوي).

والثّاني: أنَّ العلم مرغوبٌ بالطَّبعِ، وحكاية الشَّيءِ تُخبر عن الـمَحكيِّ عنه؛ فلذلك هي محبوبةٌ، فإذا رَسَخَ هذا الرَّأْيُ عندَه استقامَ عليه، وتعصَّبَ له، وردَّ على كلِّ امرئٍ رأى خلافَه. مثلًا: استحسنَ جوابَ سوفاكليس حينَ أَخذُوا عليهِ أنَّك وصفتَ النَّاسَ خِلافَ صِفتِهِم؟ فقالَ: إنِّي وصفتُهُم كما ينبغي. ويُوراب ديس[1] وصفَهم كما هُم عليه[2].

ثمّ لـمّا كان جلُّ أشعارهم للتَّلذُّذ والتَّلهّي في محافل المسامرة ونادي اللهو بحكاياتٍ مضحكةٍ أو مبكيةٍ = لم يجدْ لمحاسنِ الأشعارِ غايةً إلَّا الإطرابَ، فقالَ: إن يكن الصِّدقُ لا يُطرِبُ فينبغي للشَّاعرِ أن يزيدَ أو ينقصَ[3]. ولم يكن في هذا الرَّأْيِ بِدْعًا في قومه، فإنَّه ظنَّ كما ظنُّوا، فإنّ اسمَ الشَّاعر عندَهُم المُخْتَلِقُ الذي يصنعُ الحكاياتِ والقَصصِ لإطرابِ السَّامعينَ.

ولـمَّا رأَوْا أنَّ أرسطو أسّسَ الأمرَ على مهارةِ الاختلاقِ[4] = سبقَ إلى ظنِّ بعضِهم أنَّ أحسنَ الشِّعر أكذبُه[5]؛ وإذ ليسَ في أشعارِ العربِ مِن أمرِ القِصَّة والحِكايةِ إلّا التَّشبيه، ظنُّوا أنَّ الغُلُوَّ في التَّشبيهِ مِنَ المحاسنِ، وكما أنَّ المحاكاةَ

---

(١) يورابديس أو يوربيدس من كُتَّاب التراجيديا الإغريق ولد عام ٤٨٠ ق.م، وتوفي ٤٠٦ ق.م، له ما يقرب من تسعين تراجيديا، كان معاصرًا لأرسطو ومقرَّبًا منه. ينظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٧/٣٦٦.

(٢) فن الشعر ص٢١٧ (حمادة)، ص٧٣ (بدوي).

(٣) فن الشعر ص١١٥-١١٦ (حمادة).

(٤) يقول أرسطو: ... إنّ الشَّاعرَ أو الصَّانعَ ينبغي أن يكونَ صانعَ حكاياتٍ أو حبكاتٍ أوَّلاً. فن الشعر ص١١٥.

(٥) أسرار البلاغة ص١١٥ (حمادة)، ص٢٨ (بدوي).

صارَت عمودَ الزَّجاجةِ عندَ أرسطو، فكذلك صارَ التَّمثيلُ والتَّشبيهُ الَّذي يُشابِهُ القِصّةَ عندَهم = قُطبَ البلاغةِ، ثُمَّ إنَّهم وافقوه في عين هذا الرَّأي، فإنَّه [٦] قال في عدِّ محاسنِ الكلامِ: «إنَّ أعلى كمالِ البليغِ أنْ يكونَ حاذقًا في استِعمالِ التَّشبيهِ»[١]. وقال صاحبُ أسرارِ البلاغةِ: «كأنَّ جلَّ محاسنِ الكلامِ ـ إن لم نقلْ كلَّها ـ متفرِّعةٌ عنها (أنواع التَّشبيهِ) وراجعةٌ إليها»[٢]. فانظرْ:

. . . . ما أشبهَ اللَّيلةَ بالبارحةْ[٣]

فدَخَلَ في الكلامِ بذِكْرِهِ، وخرَجَ به، وكانَ نتيجةَ هذا الرَّأْيِ أنَّ المتكلِّفينَ من المولَّدينَ عكفوا عليه، فغابَ عنهم ما كان للعربِ من سحرِ الكلامِ وإعجازِهِ ـ والوُرودُ عليهِ ليسَ الآنَ ببعيدٍ عنَّا ـ ولجَّ بهم التَّسلُّلُ عن الصِّدْقِ من جِهةٍ أُخرى؛ فإنَّهم لـمَّا وجدوا الاستعارةَ ألذَّ من التَّشبيهِ التمسوا الفَرْقَ بينَهما، فبادَرَ إلى فهمِهم[٤] أنَّه هو الغُلوُّ؛ فإنَّك مثلاً إذا قلتَ: زيدٌ كالأسدِ، فإنّما شبَّهْتَهُ بالأسدِ، ولكن إذا قلتَ: رأيتُ أسدًا، فكأنَّك جعلتَه عينَ الأسدِ[٥]، فغلبَ على ظنِّهم أنَّ الـحُسْنَ أميلُ إلى الكذبِ، وستعلمُ أنَّ العربَ لهم أصولٌ أخرُ لمحاسنِ الكلامِ.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ في كتاب فن الشعر.

(٢) أسرار البلاغة ص٢٧.

(٣) رجز لطرفة بن العبد في ديوانه ص١٢٥، وقد ورد في كتب الأمثال أيضا، ينظر: مجمع الأمثال ٣١٧/١ و٢٧٥/٢.

(٤) المقصود هو عبد القاهر في أسرار البلاغة ص ٢٥٨.

(٥) هذا كلام عبد القاهر في أسرار البلاغة ص ٢٥٨.

وإنَّا لا نُنْكِرُ محاسنَ التَّشبيهِ وأنواعَه، ولكنَّا نجعلُه مُتفرِّعًا عن أصلٍ غيرِ التَّشبيهِ، وأساسُهُ الصِّدقُ، خلاف ما سمعتَ مِن مذهبِ أرسطو وأمثالِه، كما نُبيِّنُ لك حينَ نكشفُ عن أصلِ البلاغةِ، فبعدَما أشرتُ إليه بالإجمالِ من مذهبِهم في كُنْهِ محاسنِ الكلامِ وغايتِه والسبيلِ إليه لا أراك ترتضي به، وكيف يرتضي عاقلٌ بأنْ يَصرفَ هِمَّتَه إلى أمرٍ، عِلَّتُهُ التَّكلُّفُ كالقردة، واسمُهُ الاختلاقُ، وناصِرُه الكذبُ، وغرضُهُ التَّلهي لا سيَّما إن كان مـمَّن يعلمُ أنَّ البلاغةَ مِن أهمِّ كمالاتِ المرسلينَ، ولا سيَّما إن كان من الّذين يؤمنونَ بأنَّها من المعجزاتِ أعلاها وأوفاها وأبقاها، ولا سيَّما إنْ كان ممّن قامَ لدلالةِ النَّاس إلى حقيقتِها والإيضاحِ عن أسرارِها. فإنْ صدقَ ظنِّي بكَ ـ وأرجوه صادقًا ـ هاجَ بكَ الشَّوقُ إلى قصدِ السَّبيلِ بعدَ الحِيَادةِ عن جائرِه [٧].

❊ ❊ ❊

قصدُ السَّبيلِ إلى البلاغةِ

قد سبقَ في أوَّلِ الكلامِ أنَّ الإنسانَ في فطرتِهِ ناطِقٌ؛ فإنَّ النُّطقَ هو الفصلُ المقوِّمُ له لا المحاكاةُ كما زعمَ أرسطو[١]؛ فإنَّ الإنسانَ ليس من خِلالِه[٢] المحاكاةُ ـ كما يرى ـ في بادئِ الرَّأْيِ؛ فإنَّه لا يُحاكي أحدًا غيرَ الإنسانِ، فلو كان من طبعِه المحاكاةُ لحاكى كلَّ مَن مرَّ عليه. وأمَّا اتِّباعُهُ والدَيهِ وكبراءَ بيتِه فسائرُ الحيَواناتِ مِثلُهُ.

وحقيقةُ الأمرِ أنَّ الطِّفلَ له بالقوَّةِ خصائلُ الإنسانِ، ورؤيتُه الفعلَ تبعثُ فيه القوَّةَ فتَخرجُ، كما أنّ رؤيةَ الضَّحِكِ تُضحِكُ، ورؤيةَ البكاءِ تُبكِي، ورؤيةَ الطعامِ تبعثُ الميلَ إليهِ، وبعبارة أخرى: إنَّ النُّطقَ مُودَعٌ في فطرتِهِ، وكلُّ قوّةٍ تلتمسُ الوسيلةَ للعملِ. ألا ترى أنَّ القوى تُلْهِم استعمالَها؟ فمَن يُعلِّمُ النَّملَ الطَّيرانَ ـ إذا نَبتَ لها الجناحُ ـ والمصَّ للرَّضيعِ؟ فهكذا محاكاتُه للصَّوت؛ ليؤدِّيَ ما في نفسِهِ. وإنْ أمعنَّا في واقعة الحال حكمْنا بأنَّ الطِّفلَ هو المعلِّمُ للِّسان لا الـمُحاكي، وبيانُه: أنَّ الطِّفلَ هو الذي اخترعَ الأسماءَ من قِبَلِ نفسِهِ من غيرِ تعليمٍ؛ فإنَّه في أوَّلِ الأمرِ يعطي مثلًا للماء أسماءً، فيقول: (ممْ ممْ) أو (ببْ

---

(١) فنّ الشعر ص٧٩ (حمادة).

(٢) الخِلال: الخِصال. جمع خَلّة، والخَلَّة الخَصْلَةُ تَكُونُ فِي الرَّجُلِ... يُقَالُ فِيهِ خَلَّة صَالحَِةٌ وخَلَّة سَيِّئَةٌ. اللسان (خلل).

بِبْ)، وكذلك يعطي الاسم لأبوَيهِ: (ماما)، (بابا)، فهو المبدعُ لا المحاكي، وليسَ هذا إلَّا لأنَّ فيه هِمَّةً وجهدًا لأداءِ ما يريدُ، فيحرِّكُ الشَّفَةَ أوَّلًا، ويلفظُ بالحروفِ الشَّفويّةِ، وأوَّلُ ما يقرعُ صِماخَهُ ليسَ إلَّا بكاءه، وهو أوَّلُ لغتِه.

وممّا يُرى من أثره على أمِّه عند ألمِ الجوعِ والفزعِ، يتعلَّم معناه، ويستعملُهُ رفعًا وخفضًا ونحيبًا وعويلًا. فهذا البكاءُ يَفْتِقُ آلاتِ صوتِهِ، ويعلِّمُهُ جراثيمَ(١) الحروفِ الحلقيَّةِ، فيستعدُّ لأداءِ الأصواتِ الأُخَرِ، ثمَّ يأخذُ لغةَ أبوَيه المصنوعةَ المبدَّلةَ مِنَ اللُّغةِ الأصليَّةِ التي هي أمُّ اللُّغات؛ فيؤدِّي ما في نفسِه بلغةٍ خاصّةٍ، ولولاها لأدَّاهُ على جهةٍ أقربَ إلى وضع آلاتِهِ، فإنَّا لا نرى طائفةً مِنَ الإنسان من غيرِ لغةٍ، فمن علَّمَهم غيرُ فطرة الله؟! فإنَّ المحاكاة لا بدَّ لها من مُنتهى وأصلٍ ثابتٍ، كما أنَّ لكلِّ فرعٍ لا بدَّ من أصلٍ(٢)، ولكلِّ نظريٍّ من بديهيٍّ [٨].

فاعلم أنَّ النُّطقَ زهرةٌ تخرجُ من كمالِ الفهم وصلاح البنيّةِ؛ فليس لأحدٍ من الحيوان فطانةٌ كفطانة الإنسانِ، ولا لسانٌ كلسانِه، فمن كان أكملَهُم علمًا وجسمًا كان أشرفَهُم، ولا يخفى عليك أنَّ اللِّسانَ طَوْعُ الفهمِ بعدَما سُوِّيَتْ خِلقَتُهُ، فهو آلةٌ يقلِّبُها العقلُ، وهذا الأمرُ يهديكَ إلى أنَّ حُسْنَ النُّطقِ ليسَ في الحقيقة من جهة نغمتِهِ كنغمةِ البُلبلِ، بل حسنُهُ في كونِه آلةً صحيحةً للعقلِ؛

---

(١) جراثيمُ جمعُ جُرثومةٍ، وهي أصلُ الشيَّءِ ومصدرُهُ ومجتمعُهُ. لسان العرب (جرثم).

(٢) لا بد من التقديم والتأخير حتى يستقيم التركيب، والأولى أن يكون:
كما أنَّ لكلِّ فرعٍ أصلًا لا بدَّ منه. أو تجعل من زائدة على مذهب الأخفش، وجملة (لا بد) اعتراضية.

لكيلا يُقصرَ أدنى الإقصارِ عن إفصاحِ ما أرادَهُ العقلُ، وعن إبلاغهِ إلى قلبِ السَّامعِ. فالنُّطقُ هو الرَّسولُ بينَ العقل والقلب[١]. فاجعلْ هذا الأمرَ الفطريَّ أمَّ الأمرِ وقُطبَ رَحاهُ لا المحاكاةَ؛ فإنَّها أمرٌ ثانويٌّ؛ لِتُكتَسَبَ به وسائلُ النُّطقِ، فلو لم يكنِ النُّطقُ في الإنسانِ لَـمَا استطاعَ المحاكاةَ. فإنْ نظرنا من جهة الحكمة إلى أسباب الكلام تبيَّنَ لنا أنَّ قوَّة النُّطقِ هي العلَّةُ الفاعليّةُ، وأمَّا المعاني ثُمَّ الألفاظُ فهما المادَّةُ. فالنُّطقُ يأخذُ المعانيَ، ويُلبسُها ألفاظًا، سواءٌ كانت ممّا ابتدعَها أو[٢] ممَّا تعلّمَها الإنسانُ بوسيلة المحاكاةِ.

وأمَّا العلّةُ الغائيّةُ[٣] فرسالةُ العقل، فإنّ الأمرَ العامَّ الذي يجري إليه النُّطقُ ليس غيرَ هذا، وأمَّا اللَّذَّةُ فليستْ من غايةِ الكلام، بل ما مِن قوّةٍ إلّا في استعمالها لذّةٌ[٤]، كأنَّ كلَّ قوّةٍ بطبعها تشتاقُ البروزَ إلى الفعلِ، فالجاهلُ يَستعمِلُ القوّةَ للذّةِ، والعاقلُ لحكمتِها، فحكمتُها أحقُّ باسمِ الغايةِ.

وأمّا العلّةُ الصُّوريّةُ فحسنُ الكلامِ، فلا يكونُ كمالُهُ إلَّا من جهةِ كمالِ الإبلاغ، فالإبلاغُ هو معيارُ حسنِ الكلام.

واعلمْ أنّ حُسْنَ البلاغِ وكمالَهُ يحتوي حُسْنَ ما يُبلِّغُهُ من الصُّورِ والمعاني، وهو أدنى باللِّحاظ، فلا نقيمُ وزنًا لكلامٍ أبلغَ بكمالِ الصِّحَّةِ شيئًا

---

(١) في الأصل (بين العقل والعقل)، غير أنَّ سياقَ الكلامِ السَّابقِ يستوجبُ ذِكْرَ القلبِ.

(٢) الأولى استعمال «أم» المعادلة في هذا الموضع.

(٣) ينظر العلة وأنواعها عند الفلاسفة والأصوليين في: المعجم الفلسفي ٢/٩٥-٩٨

(٤) في الأصل: وفي استعمالها لذة. ولا وجه للواو غير الزيادة، وإن كان هذا ليس من مواضع زيادتها.

خبيثًا من نفسٍ متدنِّسةٍ؛ فالخَرَسُ أحسنُ من هذا النُّطقِ، وهذا رأيٌ يستدعي بيانًا لصِحّتِه؛ فإنَّ أبا الفرج قدامة جعفر[١] صاحبَ «نقد الشعر» ـ وهو أوّل من جعله فنًّا من العلوم ـ قال قولًا يَضِلُّ به الغافلُ، وإن كان له وجهٌ صحيحٌ، فقال: «ليس فحاشةُ المعنى في نفسه ممّا يزيلُ جودةَ الشَّعرِ فيه، كما لا يَعيبُ جَودةَ النِّجارة في الخشب مثلًا رداءتُهُ في ذاته»[٢]، وقال أيضاً: «إنَّ الشَّاعرَ ليس يُوصَفُ بأن يكونَ صادقًا، بل إنّما يرادُ[٣] منه إذا أخذَ في معنىً من المعاني، كائنًا ما كان، أن يُجيدَه في وقتِه الحاضرِ»[٤]. [٩] فلم يروِ من الشِّعرِ إلاَّ شيئًا نازلاً وصناعةً دَنِيَّةً، كما هو وَجْدُ أكثرِ المنتسبينَ إليه، وإليهم الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. ونحن نلتمسُ محاسنَ الكلام كما يليقُ به، وكما وضعتْهُ الفِطرةُ الإلهيَّةُ، ويقتضيهِ كمالُ قوَّةِ النُّطقِ، ويَستعملُهُ الشَّاعرُ أو الخطيبُ الجديرُ بهذا الاسمِ.

فاعلمْ أنَّ الشِّعرَ ليس إلَّا قسمًا من أقسامِ الكلام، والكلامُ ليس اسمًا للجَرْسِ المحضِ، بل هو مركَّبٌ من المعنى والصَّوتِ، والشَّيءُ المركّبُ يُحكَمُ

---

(١) في الأصل: فإن أبا جعفر قدامة، وهو سهو. وقدامة بن جعفر بن قدامة البغدادي هو أبو الفرج وليس أبا جعفر، أسلم أيام المكتفي بالله العباسي، كان من الفصحاء البلغاء المتقدمين في المنطق والفلسفة، توفي ببغداد سنة ٣٢٧ هـ. انظر ترجمته في مقدمة كتابه: نقد الشعر ص٥ وما بعدها، والأعلام ١٩١/٥

(٢) نقد الشعر ص٦٦

(٣) الأولى استعمال ربما أو إنما، ولا داعي لهما معًا، وهو من كلام قدامة بن جعفر، وليس للفراهي.

(٤) نقد الشعر ص٦٨

بحسِنه لِحاظًا إلى أصلِ الأمرِ فيه، مثلًا إنَّكَ لا تَصِفُ بالملاحةِ وجهَ رجلٍ أعورَ أفطسَ إذا وَجدْتَ إحدى عينَيهِ مليحةً، فكذلك الأمرُ في حُسنِ الكلامِ. نعم. إن شئتَ قلتَ: إنَّ وزنَ هذا الشِّعرِ أو صوتَه حَسَنٌ، ثُمَّ نُؤزِّرُ هذا الرَّأْيَ بأمرٍ أقربَ إلى الكلامِ من جهة الإبلاغِ، وهو أنَّ الكلامَ لا يبلغُ قلبَ العاقِلِ إلّا أن يكونَ معناه شريفًا، ولا اعتبارَ لتأثُّرِ الحمقى والأشرار، فإنَّنا إنّما نُعطي الأشياءَ أسماءً؛ لِحاظًا إلى سلامةِ الحال، وإلّا لزمكَ أن تُسمِّيَ الكلامَ حَسَنًا وقبيحًا معًا، أو لا تُسمِّيَهُ شيئًا. وهذا أمرٌ يتَّضِحُ لكَ كلَّ الاتِّضاح، إذا بحثنا عن أسباب بلوغِ المعاني القُلُوبَ، فترى أنَّ الألفاظَ ربّما تُصْرَفُ عن قواعدِها الصَّحيحةِ العامَّةِ لأجل المعنى الذي يُبلِّغُ نفسَه بقوَّةٍ فيه، ويجدُ الألفاظَ حجابًا وثِقَلًا عليه، كما أنَّ ملكًا جعل نفسَه سفيرًا. فالبليغُ هو المعنى، واللَّفظُ مَركبُهُ. فالمعنى أجدرُ باللِّحاظ في حُسنِ الكلام، فذانك[1] برهانان، ثُمَّ نُعزِّزُهما بثالثٍ؛ وهو أنَّ العربَ لم يحمدوا الكلامَ إلّا لحسنِ معناه، وليس لهم نُزوعٌ إلى قولٍ أدَّى الخُبثَ، فإنَّهم يذمُّونهُ ويستحقرونَهُ؛ كما قالَ زهيرُ بنُ أبي سُلمى[2]:

وذي نِعمةٍ تمَّمْتُها وشكرْتُها   وخَصْمٍ يكادُ يغلِبُ الحقَّ باطِلُهْ[3]

---

(١) في الأصل: فذلك.

(٢) انظر ترجمته في: طبقات فحول الشعراء ٥١/١، والشعر والشعراء ١٣٧/١

(٣) من الطويل، شرح شعر زهير بن أبي سلمى ص ١١٠-١١١.
والمراد بـ تممَّتها: نعمة لي علي غيري، ونعمة علي شكرتها. صائب: قاصد. أضلَّ النَّاطِقينَ مفاصلُهُ: لم يهتدوا لمفاصل الكلام ومَقاتلِهِ. الخَطَلُ: كثرةُ الكلامِ وخطؤُهُ. فما يُلملمْ به فهو قائلُهُ؛ أيْ ما حضرَهُ مِن شيءٍ فهو قائِلُهُ. عبأت له حلمي: جمعتُ له حِلمي وهيَّأْتُهُ. أكرمتُ غيرَهُ: يريدُ أكرمتُ نفسي بالتَّرفُّعِ والإعراضِ عنه. بادٍ مقاتلُه: ممكنةٌ ظاهرةٌ لي.

دفعتُ بمعروفٍ من القول صائبٍ إذا ما أَضَلَّ النَّاطِقينَ مَفاصِلُهْ

أي سجعه وقوافيه.

وذي خَطَلٍ في القولِ يحسِبُ أنّهُ مُصيبٌ فما يُلمِمْ بهِ فهْو قائلُهْ

عَبأْتَ لهُ حلمًا، وأكرمْتَ غيرَهُ وأَعْرَضْتَ عنْهُ،وهْو بادٍ مَقاتِلُهْ[١٠]

فانظرْ كيف جعلَ معروفَ القولِ صائبَهُ، وبيّنَ أنَّ حُسْنَ القوافي رُبَّما يُضِلُّ النَّاسَ، ولكن بإزاءِ المعروفِ يَضمحلُّ رونقُهُ، فإذا جاءَ الحقُّ زهقَ الباطلُ، ثُمَّ كيف استحقرَ مَن يقولُ كلَّ ما[١] يجري على لسانِه، ولم يُرِدْ أنَّهما لم يُبلغا معناهما، ولكنَّه عَدَّهُ غيرَ صائبٍ نُكْرًا[٢] ذا خَطَلٍ يَردُّه القلبُ، فهل تظنُّ أنّهم يُسمُّونَ أمثالَهُ بليغًا؟ أم تظنُّ إن رأيتَ صَخَّابًا يشتُمُ أحدًا ذاهبًا في كلِّ مذهبٍ من الاستعارة والتَّشبيهِ ومُصوِّرًا لكلِّ أمرٍ قبيحٍ، فهل تسمِّيهِ بليغًا أو فصيحًا؟ فهذا يبيِّنُ لكَ أنَّ حُسْنَ الكلامِ تابعٌ لحسنِ المعنى؛ فلا نُسمِّي الكلامَ حَسَنًا إلَّا بعدَ أنْ حَسُنَ معناه، ولا نتركُ للكلامِ فضيلةً إلَّا صِحَّةَ الأداءِ، فإذا أُدِّيَ الكلامُ مِن قلبِ المتكلِّمِ أُدِّيَ حقُّهُ، ولكنَّه معَ ذلك غيرُ بليغٍ إنْ لم يكنِ المعنى ممَّا يَبلغُ القلب.

وكثُرَ في كلام العرب ذمُّ الفُحشِ والخَنَا والهُجْرِ[٣] والبذاءة[٤]، حتّى إذا

---

(١) في الأصل الكلمتان موصولتان (كلّما).

(٢) في الأصل: نكر.

(٣) الهُجْر: الهذيان والقبيح من القول. لسان العرب (هجر).

(٤) في الأصل: البذاذة.

خُلِطَ شِعرُهم بهذه المساوئِ صارَ ساقطًا. ألا ترى كيفَ أمرَ الحَجَر[١] بقتل ابنِه امرئ القيس لقول الشِّعرِ، وسمَّاه النَّاسُ ضِلِّيلًا، وكيف ذمُّوا النَّابغةَ[٢] لمدحِه الملوكَ[٣]. والعربُ تُحِبُّ مدحَ الشَّاكر وذمَّ السَّاخط، وتَأْنَفُ عن مدح المُتَذلِّلِ.

ونورد عليك جملةً من كلامهم تشهدُ على صِدْقِ ما سردتُ لك، قالت الخِرْنِق[٤] ترثي بِشْرا[٥] ومَن قُتل معَهُ في يوم قُلاب[٦]:

لا يَبعَدَنْ قَوْمي الذين هُمُ ... سُمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزْرِ[٧]

النّازلونَ بكلّ مُعْتَركٍ ... والطَّيِّبون مَعاقِدَ الأُزْرِ[٨]

---

(١) هو حجر بن الحارث الكندي والد امرئ القيس، كان ملك أسد وغطفان، وقد قتله بنو أسدٍ. ينظر: الأغاني ٨٠/٩ وما بعدها.

(٢) زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانّي. انظر ترجمته في: الشعر والشعراء ١٥٧/١، والأعلام ٥٥/٣.

(٣) مدح النعمان بن المنذر ملك الحيرة في العراق، وملوك الغساسنة في الشام.

(٤) الخرنق بنت بدر بن هفان بن مالك، أخت طرفة بن العبد، من بني ضبيعة، شاعرة جاهلية مشهورة، وأكثر شعرها في رثاء زوجها بشر بن عمرو بن مرثد ومن قتل معه. تُنظر ترجمتها في مقدمة ديوانها ص٩، والأعلام ٣٠٣/٢

(٥) هو بشر بن عمرو بن مرثد زوج الخرنق بنت بدر سيد بني أسد، قتله بنو أسد في يوم قلاب، وهو يوم من أيام العرب في الجاهلية. الأعلام ٣٠٣/٢

(٦) من الكامل للخرنق بنت بدر بن هفان في ديوانها ص ٤٣-٤٦

(٧) لا يبعَدَنْ: بفتحِ العينِ والدَّالِ، من بَعِد يَبْعَد بعداً، إذا هَلَكَ، ومعناه لا يهلكنَّ قومي. العُداة: جمع عادٍ. آفةٌ: علّةٌ. آفة الجُزْرِ: المرادُ هنا أنّهم كانُوا يُكثرونَ مِن نحرِ الجُزُرِ للضِّيوفِ، والجُزُر: بضم الجيم والزاي، لكن سكن الزاي للضرورة.

(٨) معترك: موضع القتال. المعاقد: موضع عقد الإزار، والمراد في قولها معاقد الأُزْرِ: أنَّهم أعفَّاءُ الفروجِ. وتسكين الزاي أيضًا للضرورة.

إن يشربُـوا يَهَبُـوا، وإن يَـذَروا يتواعظوا عـن مَنْطقِ الهُجْرِ(١)

قَـوْمٌ إذا ركِبُـوا سَـمعْتَ لهـم لَغَطًـا مـن التَّأييـهِ والزَّجْـرِ(٢)

مِـنْ غَيْرِ ما فُحْشٍ يكُونُ بِهِم في مَنْتَـجِ المُهُـراتِ والـمُهْرِ(٣)

فانظرْ كيف مدحتْ قومَها بالنَّشاط للشَّجاعة والسَّخاوة وبالعِفَّةِ والفروسيَّةِ، ثُمَّ لم تترك المدح إلَّا ذكرتْ أنَّهم مع هذا النَّشاط والأريحيَّةِ برآءُ من منطق الهُجْرِ والفُحْشِ في القول [١١].

فإن سمَّيتَ تمامَ الكَذبِ والهُجْرِ والشَّتْمِ والخَنَا بلاغةً فإنَّما قد وضعتَ مِن منزلةِ هذا الاسم، وما زِدتَ في العلم شيئًا، ثُمَّ يبقى عليكَ أن تُعطيَ اسمًا لكلامٍ كمُلَ صِدْقًا وعدلًا وبلاغةً وإصابةً، ولا تغفلْ أنَّ الكلامَ مِن صِفات ربِّنا، وأنَّ كلامَهُ معَنا. فإنْ كان معيارُ الكلامِ أمرًا نازلًا غفلَ الجمهورُ عن معرفة أحسنِ الكلامِ، ووزنُوه بمعيارٍ سافلٍ، ولَمَسُوهُ بأيدٍ غيرِ طاهرةٍ. فإن قَصَرَ أحدٌ نظرَهُ على سفاسِفِ الكلامِ فإنّما نحن نبحثُ عن عواليه التي بها شَرُفَ الإنسانُ، ولكلٍّ وجهةٌ هو مولِّيها.

---

(١) يذروا: أي يتركوا الشراب. منطق الهجر: منطق الفحش.

(٢) اللَّغْط: الذي لا يكادُ يُفهمُ. التأييه: التصويت، يقال أيّهت به: إذا صحتُ به. الزجر: يعني به زجر الخيل.

(٣) من غير ما فحشٍ: لم يخرجوا إلى فحش. و«ما» زائدة؛ أي من غير فحشٍ. المهرات: جمع مُهْرة. والمهر: تريد به جنسَ الأمهارِ الذُّكورِ.
ومعنى البيت: أنهم لا يفحشون القول عندما تنتج خيلهم؛ أي تلدُ.

وإنّي ـ وإنْ لم أكنْ تبعًا في هذا الرَّأْيِ ـ فلستُ[1] فيه بِدَعاً؛ ولكي يَطمئنَّ به قلبُ مَن لا يعتمدُ على الـمُبْتَدِع أذكرُ من السَّلف رأي الجاحظ، قال: «ومَن أعارَه اللهُ من معرفتِه[2] نصيبًا، وأفرغَ عليه من محبَّتِه ذَنُوبًا = حنَّتْ[3] إليه المعاني، وسَلِسَ له نظامُ اللَّفظ، وكانَ قد أغنى المستمعَ من كدِّ التَّكلُّفِ، وأراحَ[4] قارئَ الكتاب من علاج التَّفهُّم»[5]. فجعلَ مدارَ البلاغة نورَ العلمِ وطهارةَ القلبِ، وهل ينشأُ الكلامُ مِن غيرهما؟ أو يُهتدى للقولِ الصَّائبِ بدونهما؟

وأمّا كلامُ الحجّاجِ[6] والمتشدِّقيَن من أمثاله[7] ـ فعصمَكَ الله عن المكرِ السَّيِّء، فلا يَحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلّا بأهلِه[8] ـ فأيَّ قلبِ حكيمٍ بلغَ ذلك الكلامُ ولم يَمُجَّهُ، وأيَّ سمعِ عليمٍ قرعَ ذلك القولُ ولم يشمئزّ منه.

والكلامُ أعاليه القرآنُ والزَّبُورُ، وهو الذي يُحيي القلوبَ، ويُنمِّي الأممَ مِنَ

---

(١) الفاء زائدة للاعتراض بالشرط.

(٢) في البيان والتبيين ٢/٨: معونته، وأشار محققه الأستاذ عبد السلام هارون إلى أنها في بعض النسخ: معرفته.

(٣) في البيان والتبيين ٢/٨: جُلِبت. وقد أشار المحقق إلى أنها في بعض النسخ: حنَّت.

(٤) في البيان والتبيين: وكان قد أعفى المستمعَ من كدِّ التَّكلفِ.

(٥) البيان والتبيين ٢/٨

(٦) الحجَّاج بن يوسف الّثقفّي: من أعظم الشخصيات في التاريخ الإسلامي. ينظر الدراسة القيمة عنه: الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه.

(٧) لعله أراد بالتشدُّق هنا المعنى الأخلاقي لا اللغوي، فهو يربط المعاني بمقاصد قائليها وأخلاقهم، والمراد بالتشدق الأخلاقي هو الاستهزاء بالآخرين والتعالي عليهم.

(٨) ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

الأرضِ إلى السَّماءِ، كما وصفَهُ القرآنُ والإنجيلُ، وعرفتْهُ العربُ، فقال شاعرُهم المقدامُ عَبيدُ بن الأبرص[١]:

القائِـلُ القَـوْلَ الّـذي مِثْلُهُ يَمْـرَعُ مِنْـهُ البَـلَدُ الـمَاحِلُ[٢]

ولذلك مدحوا القولَ الحسنَ الصَّادقَ المصيبَ، كما قال طَرَفَةُ[٣]:

وإنَّ أحسـنَ بَيْـتٍ أنْـتَ قائِلُـهُ بَيْـتٌ يُقَالُ، إذا أنْشَـدْتَهُ صَدَقَا[٤]

وهذان الشَّاعران ذكرا أمرَينِ:

الأوَّل: أرادَ قولًا تصلحُ به أمورُ النَّاسِ، فنظرَ إلى جهةٍ أخلاقيّةٍ.

والثَّاني: أرادَ قولًا يقبلُهُ القلبُ؛ لكونه حقًّا ناصعًا، فنظرَ إلى جهةٍ عقليّةٍ [١٢].

ثمّ نُكلِّلُ هذا الرَّأيَ بالاستنادِ إلى[٥] القرآن، فإنَّ الله تعالى سمَّى كلامَهُ بليغًا لكونِهِ يَبلغُ القلبَ حيث قال: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾

---

(١) عبيد بن الأبرص شاعر جاهلي، وصاحب أحد المعلقات، وسيد من سادات قومه بني سعد، قتله النعمان بن المنذر في يوم بؤسه. انظر ترجمته في مقدمة ديوانه ص٧ وما بعدها، والشعر والشعراء ٢٦٧/١، والأعلام ١٨٨/٤.

(٢) من السَّريع، ديوان عبيد بن الأبرص ص٩٤. وفيه: «يَنْبُتُ» بدل «يمرع». الماحِلُ: المُجْدِبُ؛ أيْ: أصابه المَحْلُ والجدب. والمعنى: كُلُّ سيِّدٍ مثلُهُ هو خيرٌ لقومِهِ، وبه يحيا البلدُ المُجْدِبُ.

(٣) طرفة بن العبد شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى. انظر ترجمته في: الشعر والشعراء ١٨٥/١، والأعلام ٢٢٥/٣

(٤) من البسيط، ديوان طرفةَ بنِ العبْد ص١٧٤.

(٥) في الأصل: مِن.

[النساء: ٦٣]، وحيثُ قال[١]: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩]، فاتَّضحَ أنَّ أبلغَ الكلام أبلغُه في القلوبِ وأهداه إلى العقلِ.

وإذْ علمتَ أنَّ حسنَ الكلام ليسَ في محضِ كونِه محاكاةً، بل في إبلاغِ المعاني من المتكلِّمِ[٢]، وأنَّ غايتَهُ ليستْ إطرابَ السَّامِعِ، بل كونُهُ سفيرًا صادقًا للعقل، وأنَّ التَّلذُّذَ بها ليس لكون المحاكاةِ داخلةً في عنصر الإنسانِ، بل لأنَّ فيه استعمالَ أرفعِ قِواه، وأنْ ليستِ المحاكاةُ بل النُّطقُ من خصائِص الإنسانِ، وأنَّ الصِّدقَ يلزمُ المخبرَ. فإنْ خالطَهُ الكذبُ أحبطَهُ عن درجته، وأنَّ سوءَ المعنى يمحو عنه اسمَ البلاغة. فإذا علمتَ هذه الأمورَ اتَّضحَ لكَ الفرقُ بين مذهب أرسطو ومذهبِنا، واتَّضحَ لكَ ما في هذا الرَّأْيِ من الائتلافِ والمناسبةِ بينَ أجزائِهِ معَ شرفِ المكانِ.

أمَّا الكذبُ الذي يوجدُ في الشِّعر فليس إلّا لغرضِ صِحّة التَّمثيل، فإنَّكَ لا تُبْلِغُ الأمرَ المبهمَ، فتعطيَهُ شكلًا وتشخُّصًا، فإن أعياكَ الخبرُ أعطيتَ الشَّكلَ من قِبَلِ خيالكَ، وليس المرادُ منه إلَّا التَّصويرَ، وهذا هو المطلوبُ من الأمثالِ وحكايات العجماوات، وهو أخو التَّشبيهِ، وزيادةُ البيان في بابِ التَّخييل. وأمَّا كذبُ المبالغة في التَّشبيهِ وغيرِ التَّشبيهِ فستعلمُ أنَّ الشَّاعرَ لا يُخبِرُ إلّا عن نفسِهِ، بل ليس الخبرُ من غايةٍ، ونفسُهُ من شِدَّة الأثرِ تَرى[٣] الدَّقيقَ جليلًا

(١) في الأصل: وَلِلهِ الحُجَّة البَالِغَة.
(٢) الأولى في التركيب: إبلاغ المتكلمِ المعانيَ.
(٣) في الأصل: يرى.

والجليلَ دقيقًا. ألا ترى المريضَ يشعرُ بطول الزَّمانِ، والزَّمانُ قصيرٌ، والـمُغتبِطُ يراه قصيرًا، وهو طويلٌ. وقد لَهَجَ الشُّعراءُ في ذكر طول ليل الكَرْبِ(١)، والمرادُ معلومٌ أنَّه يُذكرُ ما يُحِسُّهُ، فإنْ كانَ كذبُ المبالغةِ غيرَ مُتجاوزٍ هذا الحدَّ؛ أيْ إحساسَ النَّفْسِ، فهي عينُ الصِّدقِ، فمن لم يعلمْ هذا الأمرَ لم يفرِّقْ بين الإحساس والافتراء، فظنَّ الكذبَ من أجزاء الشِّعرِ، والشِّعرُ بناؤهُ ليسَ إلا على الصِّدقِ [١٣].

فإنْ تبيَّنتَ ما سبقَ من الكلامِ علمتَ شرفَ البلاغة؛ لكونِها مَعينَ العقلِ، وعنصرَ الإنسانيّة، وترجمانَ الصِّدق، وإكليلَ العزِّ، فشمَّرتَ لاقتنائِها، وحَلَلْتَ بفنائِها، وتيقَّنْتَ أنَّها حَرًى بأن تكونَ معجزةً لنبيٍّ عظيمٍ أكبرَ من قَلْبِ العصا حيّةً(٢)، أو جعل الجثّةِ حيًّا(٣). ألم تَرَ البَوْنَ البعيدَ في آثارها؟ فما

---

(١) من ذلك ما قاله امرؤ القيس (ديوانه ص١٨-١٩): [الطويل]

وليْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ ... عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُوْمِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمطّى بِصُلْبِهِ ... وأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ
ألاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ ألاَ انْجَلِي ... بِصُبْحٍ، وَمَا الإصْبَاحُ مِنكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مَنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ ... بكل مُغار الفتل شُدّت بيذبل
كَأَنَّ الثُرَيّا عُلِّقَت في مَصامِها ... بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ

(٢) يشير إلى معجزة سيدنا موسى عليه السلام الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۝ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٧-٢١].

(٣) يشير إلى معجزة سيدنا عيسى عليه السلام الواردة في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ =

عادتْ أممُ المعجزتينِ إلّا عبيدَ الصَّليبِ والعصيِّ، وهذا القولُ البالغُ أبلغَ حزبَهُ من الأرض إلى السَّماوات العلى، ولـمَّا رفضوه حبطهُمُ إلى حضيضِ السُّفلى. فإذا علمتَ لها الحدَّ والعلّةَ والغايةَ حانَ لنا الورودُ على الشّربِ المحتَضرِ بعدَ طولَ المنتَظرِ(١).

❊ ❊ ❊

= كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٧-٤٩].

(١) الشُّرْب: ما يُشَربُ، والشِّرْبُ: موردُ الشُّرَّاب. المحتضر: الحاضر. المنتظَر: الانتظار.

فصل
في حدّ الشِّعر والخطابة والفرق بينهما

وإذ إنَّ البلاغةَ أوضحُ وأرفعُ في الشِّعرِ والخُطَبِ؛ أبتدئُ[١] بذكرِهما وبيان الفرقِ بينَهما، قال أرسطو: «إنَّ الشِّعرَ حكايةٌ عن أفعال النَّاس؛ إمّا معاليها أو مخازيها»[٢]. وأمّا إنَّا فلا نفرِّقُ الشِّعرَ من الخطابةِ من هذه الجهةِ، بل قد وجدْنا الشِّعرَ والخطابةَ شريكَينِ في البلاغةِ، فأيُّما كان منهما لا يكونُ أحسنُهُ إلّا ما كان أبلغَه، ولكن مع ذلك بينهما فرقٌ عظيمٌ، فإنَّ الفرقَ بينَ الشّعر وغيرِ الشِّعر لا يُحصَرُ في الوزن والقافية، بل للشِّعر أوصافٌ أُخَرُ، كما أنَّ الخطيبَ ليس كلُّ مَن قال: أمَّا بعدُ.

والآنَ نبيِّنُ وجهَ الفرق، ونوجِّهُكَ إلى اسمَيهما عندَ العربِ، فإنَّهم أحذقُ الأُمَمِ في التَّسميةِ، فنِعْمَّا فعلُوا حينَ سمَّوا الشَّاعرَ شاعرًا والخطيبَ خطيبًا، فإنَّ الشَّاعرَ يشعرُ بأمرٍ، فيهتاجُ للقولِ، فيقولُ، كما أنَّ الضَّحكَ والبكاءَ والتَّثاؤبَ والرَّفَّةَ[٣] والعَطسةَ أفعالٌ غالبةٌ على النَّفس، فكذلك الشِّعرُ؛ وليس هيَجانُهُ للقول إلّا لأنَّه أكثرُ النَّاسِ شعورًا؛ أيْ إحساسًا نفسانيًّا، فكما أنَّ الجسمَ من جهة

(١) في الأصل: ابتدء.
(٢) فنّ الشعر ص ٦٧ (حمادة)..
(٣) الرفة: المرَّة من الرَّفِّ، وهو اختلاجةُ العينِ أو الحاجبِ. لسان العرب (رفف).

إحساسٍ قاهرٍ [١٤] جسمانيٍّ يصدُرُ عنه التَّثاؤُبُ والعَطسةُ، فكذلك النَّفْسُ تشعرُ بباعثٍ من السُّرور والحزن والرِّضا والسُّخطِ والعَجَبِ واليأسِ وأمثالِها، فتنطِقُ(١).

وليس المرادُ بأكثرِ النَّاسِ شعورًا أنَّه يحزنُ مثلًا بأكثرَ من سائر النَّاسِ، بل إنَّ شعورَهُ يعملُ فيه، فيُنبِّهُ مُتخيَّلَهُ ونُطقَهُ وغِناءَهُ، فتستيقظُ(٢) فيه هذه القوى، وأمَّا غيرُهُ فشعورُهُ جامِدٌ خامِدٌ، فكأنَّ الشَّاعرَ نباتٌ حيٌّ إذا سَقَيْتَ أصلَهُ ذهبَ الماءُ في كلِّ عِرقٍ منه، فاهتزَّ، فكذلك الشَّاعرُ يدبُّ الإحساسُ في جميع مشاعرِه، فيفيضُ منه الكلامُ؛ كما قال عبدُ الله بن عمرو بن عثمانَ(٣) حينَ قيلَ له: كيفَ تقولُ الشِّعرَ مع النُّسْكِ والفِقْهِ؟ فقالَ: «إنَّ المصدورَ لا يملكُ أن ينفُثَ»(٤). وقيل لصُحَار العبْديّ: ما هذا الكلامُ الذي يظهرُ منكَ؟ قال: «شيءٌ تجيشُ به صدورُنا، فتقذفُهُ على ألسنتِنا»(٥). أمّا الخطيبُ فليس هو بأقلَّ شعورًا من الشَّاعر، ولكنَّهُ فارقَ الشَّاعِرَ في أنَّه غالِبٌ على شعورِهِ، فليس حالُهُ

---

(١) في الأصل: فينطق.

(٢) في الأصل: فتيقظ.

(٣) حفيد الصحابي الجليل عثمان بن عفّان، وزوج فاطمة بنت الحسين. تزوج إليه أربعة خلفاء من أبناء عبد الملك بن مروان؛ تزوج الوليد بن عبد الملك ابنته عبدة، وتزوج سليمان ابنته عائشة، وتزوج يزيد ابنته أم سعيد، وتزوج هشام ابنته رقيّة، كان أجمل أهل زمانه، فنعت بالمطرف، مات سنة ٩٦ هـ. ينظر: المحبر ص٢٤٣، والمنمق في أخبار قريش ص٣٣٥، والمعارف ٢١٣/١.

(٤) البيان والتبيين ٣٥٧/١، وأمالي ثعلب ص١٧.

(٥) البيان والتبيين ٩٦/١ وفيه أن معاوية قال لصحار: ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال: شيء تجيش...

كالمصدُورِ والمتثاوبِ المقهورِ، ولكنَّهُ قاهِرٌ على نفسِهِ ومُنغمِسٌ في المخاطَبين، فهَمُّهُ التَّأثيرُ في غيرِه، كما أنَّ الشَّاعرَ لا همَّ له إلّا الانقيادُ لقُوًى تعملُ فيه.

فالخطيبُ لا يفارقُ الشَّاعرَ في الهيَجانِ ولا قلَّةِ الشُّعورِ، ولكنَّهُ بزيادةِ صفةٍ عاليةٍ استحقَّ هذا الاسمَ. فالشَّاعرُ مُلتفِتٌ إلى الماضي، والخطيبُ ينظرُ إلى المستقبلِ، فالخطيبُ أرفعُ منزلةً؛ لغرضِه الأعلى، وأقوى عقلًا، وأشدُّ قوّةً، وأذكى نفسًا، كما أنّ الشاعر أغنُّ طبعًا وأرقُّ فطرةً؛ ولذلك مَن نظرَ في كلامِ الخطيبِ وهيَجانِ قلبِه، ولم يؤمنْ بعلوّ غرضِه وطهارةِ نفسِهِ وصِحَّةِ رأيِهِ =لم يفرُقْهُ من الشَّاعرِ، بل لتصويرِهِ البعيدَ المنتظرَ الذي لا يَراهُ غيرُه يظنُّهُ مجنونًا؛ ولذلك ترى العربَ وصفُوا الخُطبةَ بالحكمةِ والبيانِ والفَصْلِ، كما أنَّهم وصفُوا الشِّعرَ بالسِّحرِ، فالشِّعرُ لخروجِه من رِقَّةِ الطَّبْعِ وجِهةِ النَّفْسِ يمسُّ النَّفْسَ، والخُطبةُ لخروجِها من صفاءِ العقل وجِهةِ البصيرةِ تمسُّ(١) العقلَ، فكان أثرُ الشِّعر مُشابهًا بالسِّحرِ، وأثرُ الخُطبةِ بنورِ العقلِ.

ثُمَّ لمَّا كان الشِّعرُ أنسبَ بالوزن لعلَّةِ ستعلمُها = صارَ الوزنُ من الصِّفاتِ الظَّاهِرة للشِّعر. فإنْ صدر كلامٌ من جِهةِ العِقلِ في لباسِ الوزنِ، فهو في الحقيقةِ أعلى وأرفعُ من الشِّعرِ، وكذلك [١٥] إنْ صدرت خطبةٌ من جِهةٍ نَفسانيَّةٍ فهي أقربُ إلى الشِّعرِ. والإنسان يُعطي خصائصَ بعضِ الشَّيءِ لغيره، وهم كانُوا يتعجَّبُون إذا وَجَدُوا في الشِّعر حِكمةً وفي البيان سِحرًا.

ثُمَّ مِن الشِّعر ما ينبعثُ من نبْعِ الرُّوحِ، فإنَّ الرُّوحَ أشبهُ بالنَّفْسِ في

---

(١) في الأصل: يمسّ.

الاشتِعالِ، وهذا الشِّعرُ أرفعُ من الخُطبةِ، فإنَّ طهارةَ الفِطرةِ وعلوَّ الغَرضِ بل علوًّا من الغرضِ يرفعُهُ على آثارِ العقلِ، ولكنَّ هذا الشِّعرَ لا يحتاجُ إلى الوزنِ، ولكنَّهُ إن زُوِّجَ بالوزنِ والنَّغْمةِ عَلِقَ بالرُّوحِ وأذابَها، فسالَت معه[١].

وعدمُ التَّمييزِ بينَ الشَّاعرِ والخطيبِ أوقعَ بعضَ النَّاسِ من جِهةٍ أُخرى في الالتِباسِ، فإنَّهم ظنُّوا أنَّ الشِّعرَ هو كلامٌ ذو مجازٍ وتشبيهٍ، فاشتبهَ عليهم كلامُ الحكماءِ بالشِّعرِ، مثلُ وعظِ عيسى، عليهِ السَّلامُ، فإنَّهُ ملآنُ مِن الأمثالِ والتَّشبيهاتِ، فنُريدُ أنْ نُفصِّلَ قولَنا: «إنّ الشَّاعرَ أغنُّ طبعًا وأرقُّ فطرةً»، فَعَنَينا منه أنَّ الشَّاعرَ يتأثَّرُ بأمرٍ، فيهيجُ فيه الوزنُ والنَّغمةُ والرَّقصُ، فما من شاعرٍ إلّا فيه عِرقٌ من هذه الانبعاثاتِ. ألا ترى داودَ ـ عليه السَّلامُ ـ كيفَ رَقَصَ حينَ امتلأَ مِنَ الشُّكرِ، وكلامُهُ كلُّهُ شِعرٌ فائِضٌ عن قلبِه المهتاجِ، فأمَّا عيسى فكان أقوى عقلًا، كما أنَّ داودَ كانَ أرقَّ فِطْرةً؛ فصوَّرَ الحِكَمَ من غيرِ أن تقهرَهُ سكراتُ الشِّعرِ.

وإنَّما سلكنا العَروضَ والنَّغمةَ والرَّقصَ في سلكٍ واحدٍ، فإنَّها في الحقيقةِ كذلك، وهذا أيضًا ممَّا خَفِيَ كُنْهُهُ على أرسطو، فإنَّه لم يكنْ شاعرًا، فلم يَدرِ مالم يَذُقْ، فزعمَ كما زعمَ في أمرِ الشِّعر أنَّ النَّغمةَ والرَّقصَ محاكاةٌ؛ لأنَّ فيهما إظهارًا لِوارِداتِ النَّفْسِ والأحوالِ والأعمالِ، وإنَّما قالَ ذلك؛ لأنَّه رأى الـمُغَنِّينَ والرَّقَّاصةَ يُظهِرونَ بالغناءِ والرَّقصِ مِن جِهةِ أثرِ الأوَّلِ وإشاراتِ الثَّاني =أحوالَ

(١) في الأصل: أذابه فسال معه.

النَّفسِ وأفعالَ النَّاسِ، فَمَرَّ بأمْرٍ لو تأمَّل فيهِ، أو كانَ له من الوجدانِ كوجدانِ الشَّاعِرِ =عَلِمَ أنَّ هذه الأمورَ لم تُستعمَلْ للمحاكاةِ وإظهارِ ما تُظْهِرُهُ إلّا لأنَّها نتائجُ مِن أحوالِ النَّفسِ، مثلًا التَّأوُّهُ لا يُظهِرُ الحزنَ، والتَّبسُّمُ لا يُظهِرُ المسرَّةَ إلّا لأنَّ النَّفسَ تَفهمُ هذه الإشاراتِ؛ لِمَا[1] أنَّها تبعثُ فيها حالةً خاصّةً؛ فالغناءُ والرَّقصُ والوزنُ أمورٌ تنشأُ في نفسِ مَن رقَّتْ فِطرتُهُ، ولِمَا [١٦] أنَّها نتيجةُ لحالةٍ نفسانيَّةٍ تبعثُ في مَن أُظْهِرَتْ عليه تلك الحالةُ، ونُبيِّنُهُ بعضَ التَّبيينِ.

إنَّ الفرحَ والحزنَ والخوفَ والتَّعجُّبَ والشَّوقَ والنّفْرةَ معَ أخواتِها وأصنافها تبعثُ[2] حركةً في القلب، وشدَّةُ الحركةِ تفيضُ، وتخرجُ، فتنقلبُ صوتًا أو غناءً أو رقصًا أو تململًا، وإذ هي آثارُ حركاتِ القلبِ على نوعٍ خاصٍّ، يُشابهُ كلُّ أثرٍ باعِثَهُ، فمَن أُدِّيَ إليه أثرٌ من هذه الآثارِ صارَ مُشابهًا لصاحبِ الأثرِ في حركةِ القلبِ، كأنَّ حركةَ قلبٍ انتقلَتْ إلى قلبٍ بوسيلة الحواسِّ، فالضَّحِكُ مثلًا ليس إلّا حركةً في قلبِ الضَّاحِكِ قد خرجَتْ، ثُمَّ انتقلَتْ إلى السَّامِعِ، ثُمَّ بلغَتْ قلبَه، فحرَّكَتْهُ، ثُمَّ خرجَتْ منه، فتشابهتْ الحركتانِ في النَّفسِ كما تشابهَتَا في الخارجِ. وهذا أصلُ التَّفاهُمِ بينَ الحيَوَاناتِ على قَدْرِ تَفتُّقِ حواسِّها.

فكما أنَّ النُّطقَ أمرٌ فطريٌّ، فكذلك هذه الإشاراتُ أمورٌ فطريّةٌ، ودلالتُها لِتَشابُهِ النُّفوسِ وموافقةِ العلَّةِ بالمعلولِ، وهذا هو أصلُ النُّطقِ. ولو كانَ لسائرِ

---

(١) ما: زائدة، والتقدير: لأنها.

(٢) في الأصل: يبعث.

الحيَواناتِ إحساسٌ كما للإنسانِ لنطقوا، ولكن ليس فيهم إلّا بعضُ الحسِّ، كما قدَّمتُ: أنَّ النُّطقَ زهرةٌ تخرجُ من كمالِ الفَهْمِ وصلاحِ البنيةِ، ولولا اضْطُرِرْنا لطوينا الكلامَ عن هذه المسألةِ، فإنَّ استقصاءَ البحث يُبعدُنا عمَّا نحنُ بصددِهِ، ولكنَّ تركَ القولِ قبلَ الإيضاحِ ظُلمٌ على المسألةِ.

* * *

الفرقُ بينَ الشّعرِ والنَّثرِ البليغ

وإذ قد جرَّ بنا الكلامُ إلى هذا المقامِ لا نتركُهُ من غيرِ استنتاجِ بعضِ الأمورِ، أخطأَ فيها[١] مَن يوشكُ أنْ يقلّدَهم النَّاسُ؛ فمنها عدمُ التَّمييز بينَ الشِّعرِ والنَّثرِ البليغِ، فأوَّلُ مَن أخطأَ فيه أرسطو، وآخرُ مَن علِمْنا اسمُهُ جان مِلْ[٢]، والأوَّلُ أشنعُ قولًا؛ فإنه ظنَّ أنَّ للمحاكاةِ طُرُقًا شتَّى، وفي الكلامِ وسائل[٣] المحاكاةِ ثلاث: وزنٌ وألفاظٌ ونغمةٌ، فهذه تُحاكى[٤] [١٧] فرادى ومثنى وبأجمُعِها.

ثُمَّ ظنَّ أنَّ المحاكاةَ هي الشِّعرُ، ومحاكاةَ معالي الأمورِ هي التي تُسمَّى (إبوبيه) (EPOPEE) القِسم الذي اختارَهُ هومِيروسُ، فقالَ: إنَّ إبوبيه تُحاكى بوسيلة الألفاظِ وحدَها كمُكالَمَةِ[٥] سُقراطَ[٦]، أو بوسيلةِ الألفاظِ معَ النَّظمِ،

---

(١) في الأصل: فيه.

(٢) جون ستيوارت مِل فيلسوف بريطاني، ذو منطق استقرائي وفلسفة تجريبية، ومن أبرز دعاة مذهب المنفعة، تربى على العلم والثقافة منذ صغره، فوالده جيمس مل أحد كبار أهل العلم والمعرفة، له كتب ومقالات عدة في السياسة والفلسفة والاقتصاد، توفي ١٨٧٣م، انظر ترجمته في مقدمة كتاب: النفعية ص١٥.

(٣) في الأصل: وسيلة.

(٤) في الأصل: تحاكيَن.

(٥) لعل المراد بالمكالمة هنا هو الجدل.

(٦) سقراط فيلسوف يوناني، توفي ٣٩٩ ق.م. تُنظر ترجمته في: معجم الفلاسفة ص٣٦٥.

كنظمِ فُلانٍ وفُلانٍ، ثُمَّ قالَ: إنَّ العادةَ علَّقتِ الوزنَ بالشِّعر، ولكنَّ الذين نظمُوا كتبًا في الطِّبِّ أولى باسْمِ الطَّبيبِ مِنهم باسْمِ الشَّاعِرِ، وأنَّهُ أصابَ فيما قال: إنَّ مجرّدَ الوزنِ لا يُتِمُّ الشِّعرَ، ولكنَّ العلَّةَ ليسَتْ أنَّ الوزنَ ليسَ مِن أجزاءِ الشِّعرِ، بل لأنَّ الكُلَّ لا يوجدُ بمجرَّدِ أن يوجدَ منه جزءٌ، فجَعَلَ كلامَ هومِيروس وسقراط شيئًا واحدًا، وزعمَ[1] علاقةَ الوزنِ بالشِّعر نشأَتْ من العادة[2]. وأمَّا جان مِل فقاربَ الإصابةَ فيما فَهِمَ أنَّ الشِّعرَ هَيَجانٌ، والشَّاعِرَ يخاطِبُ نفسَه، فأَمِنَ بهذا الظَّنِّ تخليطًا بين الشَّاعِرِ والخطيبِ أو الحكيمِ، فلا يكادُ يَعدُّ كلامَ سقراط من الشِّعرِ، ولكنَّه أوضحُ قولًا من أرسطو بأنَّ الوزنَ أمرٌ زائدٌ على الشِّعر.

وإذ قد تبيَّنْتَ مقامَ الخطأِ تأمَّلْ فيما مهَّدْنا مِن أنَّ الحركةَ النَّفْسانيّةَ تستولي عليها، وتلتمسُ الخروجَ من طرق النُّطقِ؛ فإنَّ الإنسانَ صفتُهُ الغالِبةُ هي النُّطقُ. ألا ترى أنَّ تَحْنانَ الحيَوانات وأصواتَ الغضبِ والمناغاةَ آثارٌ لتلك الحركةِ، ثُمَّ هيَجانُ القوَّةِ ينقلبُ في الإشاراتِ الموزونةِ، إن كان التَّخيُّلُ أمرًا موزونًا؛ فترى رقصَ الطَّاووسِ والحمام، واهتزازًا موزونًا من الحيَّةِ عندَ سماعِ

---

(١) الأكثر في «زعم أن يقع على المصدر المؤول، نحو قول كثيرّ:

وقد زعمَتْ أني تغيّرتُ بعدها ... ومن ذا الذي يا عزُّ لا يتغيرُ

وقد يقع على مفعوليه من دون «أن»، نحو قول أبي أميّة الحنفي:

وقد زعمَتْني شيخًا ولستُ بشيخٍ ... إنَّما الشَّيخُ مَن يدبُّ دبيبا

ينظر: النحو والصرف ص١٢٤-١٢٥.

(٢) فن الشعر ص٥٧ و١١٤ (حمادة)، ص٦ (بدوي).

النَّغمةِ، فمَن أُوتيَ نُطقًا ورِقَّةً وغناءً يخرجُ منه الشِّعرُ والتَّرنُّمُ، وإنْ زفَّهُ[١] الأثرُ فرُبَّما[٢] رَقَصَ.

فالشِّعرُ لا يتجرَّدُ عنِ الوزنِ والنَّغمةِ والرَّقصِ، ولكنَّ الوزنَ يُحتَملُ، فيبقى بالكلامِ، فأمَّا النَّغمةُ فلا يَحتمِلُها الكلامُ إلّا قليلًا، والرَّقصُ أمرٌ على نهايةِ الإحساسِ حتّى يُخرِجَ المرءَ عن وَقَاره، والكلامُ لا يحتمِلُهُ، فبقي من آثارِ حركاتِ النَّفسِ بالكلامِ قدْرٌ ممكنٌ، وتُرِكَ مالم يُمكِنُ ولم يلتزمْهُ. فإنَّ كمالَ الشَّيءِ ليس ممَّا يصحبُه في كلِّ حالٍ، ألا ترى العقلَ من مُقوِّماتِ الإنسان، ولكنَّ كمالَ العقلِ لا يلتزمُهُ، وكذلك البلاغةُ كمالُ النُّطقِ، ولكنَّها لا توجدُ في كلِّ [١٨] ناطِقٍ، فكذلك النَّغمةُ لا توجدُ معَ كُلِّ شاعِرٍ، ولكنْ مع ذلك لا يوجدُ الشِّعرُ خاليًا عن النَّغمة كُلَّ الخُلُوِّ؛ فإنَّا لا نَتصوَّرُ شاعِرًا لا يترنَّمُ، والعربُ لا تَعرِفُ[٣] الشِّعرَ بغيرِ الإنشادِ[٤]، والوزنُ طرفٌ من النَّغمةِ.

فإذا تبيَّنْتَ عَلاقةَ الشِّعرِ بالوَزنِ، ثمّ بالنَّغمةِ، ثمّ بالرَّقْصِ، وعَلِمْتَ أنَّها أمورٌ ناشِئةٌ مِن مَنْبَتٍ واحدٍ = لم تُفرِّقْ بينَها، ثُمَّ عَلِمْتَ أنَّ الوزنَ أشدُّ ائتِلافًا من الأُخْرَيَينِ، والعادةُ شهِدَتْ مِن القديمِ أنَّ النَّاسَ لم يجرِّدوا الشِّعرَ من الوزنِ

---

(١) زفّت الريح: هبّت هبوبًا خفيفًا. لسان العرب (زفّ)، والمراد حرَّكه الأثرُ.

(٢) في الأصل: رُبَّما. من دون فاء، والصواب ما أثبت؛ إذ إن هذا موضعٌ تجب فيه الفاء.

(٣) في الأصل: يعرف.

(٤) لأنهم كانوا ينشدون الشعر إنشادًا لا قراءة، وكان معاوية يسمِّي الأعشى صناجةً؛ لأنه كان يُطرِبُ بشعرِه، وقيل: لأنه أول من استعمل كلمة الصَّنج ـ وهو الدفّ ـ في شعره. وقيل: كان يغني بشعره. الشعر والشعراء ٢٥٨/١، محاضرات الأدباء ٨٢/١، معاهد التنصيص ١٩٦/١.

بل مِنَ النَّغمةِ، فمَن ظنَّ أنَّ مكالَمَةَ سقراط مِن جِنسِ الشِّعر لم يَعرفْ من كُنْهِ الشِّعرِ إلّا المحاكاةَ، ومن ظنَّ أنَّ الوزنَ ليس من الشِّعرِ لم يَعرفْ من أصلِ حقيقةِ الشِّعرِ إلّا طَرَفًا واحِدًا وهو الهيَجانُ المفضي[1] إلى النُّطقِ.

وهذا الذي قدَّمْتُ هو حالُ المطبوعِينَ مِنَ الشُّعراءِ والخطباءِ، فأمَّا المتصنِّعونَ ـ وهم الأكثرونَ ـ فهم تابِعةٌ لهم وعِيالٌ عليهم، فبِحَسبِ ما أحسنوا التَّتَبُّعَ أحسنوا العملَ، وبيانُ حال المتصنِّعينَ يستدعي تفصيلًا، وذلك الذي يَهمُّنا ويَعْنِينا، فإنَّ الصِّناعةَ وُضِعتْ لهم، كما أنَّها أُخِذتْ مِنَ المطبوعِينَ، فإنَّ المطبوعِينَ كالـمَلِك المختارِ تدورُ الصِّناعةُ معَهُم حيثُما دارُوا، والمتصنِّعون كالرَّعِيَّةِ يُطيعونَ قوانينَ الصِّناعةِ. ألا ترى في أمرِ اللِّسان والعَروضِ: لا تَسْلَمُ لكَ قاعدةٌ إلّا وهم يَضطرُّونَكَ إلى الاستثناءِ. ثُمَّ لا تُبدِّلْ أوهنَ قواعِدِكَ لغيرِهم، ولكنْ معَ ذلك إنْ فازَ سهمُ الصِّناعةِ، واستقرّ أمرُها على حقيقةِ العِلمِ =جعلْناها[2] حاكِمًا، ورجعْنا إليها. فالآنَ نُبيِّنُ الفرقَ بينَ المطبوعِيَن والمتصنِّعينَ، ونُبيِّنُ درجاتِهِم.

فاعلمْ أنَّ المتصنِّعَ لا يكونُ أجنبيًّا مِن إحساسِ البلاغةِ، وإلّا لم يكنْ حيًّا ناطِقًا، ولكنَّهُ ضعيفٌ، فيتَّبِعُ القويَّ المُضطَلِعَ، ويحاكيهِ بعضَ المحاكاةِ، فأحسنُهُم مَن كانَ أقربَهم محاكاةً.

فإنْ قلتَ: إنَّ لبعضِ المُتكلِّفينَ مِنَ المُتخيِّلةِ والعقلِ والبصيرةِ بصناعةِ

---

(١) في الأصل: المفيض.

(٢) في الأصل: جعلناه.

الكلامِ ما به يستطيعُ أنْ يأتيَ بأحسنَ ممَّا يُرتجى مِنَ المطبوعِ اللَّسِنِ، ولولا ذلك لما خَدَعَ زُخرُفُ القولِ أحدًا في النَّاسِ = قلتُ: ألا ترى أنَّ الجاهِلَ يحسبُ الزُّجاجةَ جوهرًا؟ ولكنَّ معَ ذلك بينَهُما فرقًا عند البصيرِ، [١٩] أو تظنُّ أنَّ زُخرفَ القولِ يخدعُ كلَّ أحدٍ؟

فإن قلتَ: إنَّ الكلامَ شيءٌ مصنوعٌ؛ فسواءٌ حالُهُ؛ أصنعَهُ صاحبُ القولِ أم غيرُه. ألا ترى النَّاسَ مُتخالفِينَ في أصواتِهم، ومعَ ذلك تجدُ مَن يُحاكِي عن رجلٍ، فلا تعلمُ واحِدًا مِنَ الآخرِ، بل رُبَّما يبلغُ المُحاكي كمالًا يسبقُ به المحكيَّ عنه، كما نقلَ الجاحظُ أنَّ بعضَ الحاكيةِ[١] كان يحُاكي صوتَ الحمارِ، فإذا نَهَقَ نَهَقَ به كُلُّ حمارٍ حتّى الذي لم يكن يبعثُهُ نُهاقٌ، فكأنَّ الرَّجلَ جمعَ مِنَ النَّهيقِ كُلَّ طُرفةٍ، وجعلَها في نهيقٍ واحدٍ، فاشتدَّ أثرُهُ[٢].

قلتُ: أَجْدِرْ بالحمارِ أنْ ينخدعَ، ورُبَّما ينخدعُ المرءُ السَّليمُ لحُسْنِ ظنِّهِ بالنَّاس وغرارتِهِ، ولكنّا قد بيّنّا أنَّ النُّطقَ أمرٌ فِطريٌّ للإنسان، فينشأُ مِنه كما تنشأُ جَذَباتُهُ، فلا كلامَ إلّا تحتَه إرادةٌ ونيّةٌ مِن صدقٍ أو كذبٍ، خيرٍ أو شرٍّ، مصلحٍ أو مفسدٍ، فإنّما هو صورةٌ لِمَا في القلبِ، وأثرٌ منه، وآيةٌ عليه، فهو ذو حياةٍ وروحٍ يحسُّ به السَّامِعُ، ويتأثَّرُ له حسبَ استعدادِهِ، فرُبَّ كلامٍ أحيا أمَّةً صالِحَةً، وإنْ شَقِيَ به ذو شقوةٍ كمَطَرٍ أصابَ صَلْدًا، ومِن هذا الإحساسِ قالُوا: الحقُّ أَبْلَجُ والباطِلُ لَجْلَجٌ[٣].

---

(١) هو أبو دبوبة الزِّنجيُّ مولى آل زياد. البيان والتبيين ٦٩/١

(٢) البيان والتبيين ٦٩/١-٧٠

(٣) مجمع الأمثال ٢٠٧/١

نَعَمْ، في الكلامِ قبيحٌ ومُفسِدٌ يَعْلَقُ بالقلوبِ المريضةِ، بل الكلامُ الحسنُ رُبَّما أضرَّ بالنُّفوسِ الشِّرِّيرةِ، كما جاءَ في القرآنِ الحكيمِ: ﴿**يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، فالمتصنِّعُ المتكلِّفُ لا يتكلَّمُ بروحٍ، ولا يَجري قولُهُ مِن قلبٍ مُهتاجٍ؛ فإنَّه يتصنَّعُ في إظهارِ العواطفِ، أو يتكلَّفُ في تأليفِ الكلامِ حسبَ عاطفتِه العاجِزةِ عنِ النُّطقِ، فيأخذُ من أقوالِ المطبوعِينَ ما يُوافِقُ مُستكنَّ ضميرِهِ، وهذا رُبَّما يُقرِّبُ المطبوعَ، وأمَّا المتصنِّعُ في أَوَّلِ أمرِهِ فهو مخادِعٌ ومُنافِقٌ لا روحَ في كلامِه، ولِلمتكلِّفينَ حِيَلٌ لا حاجةَ إلى تفصيلِ ذكرِ[٢٠].

❊ ❊ ❊

طريقُ البَلاغة

إذ قد علمتَ أنَّ الكلامَ ليسَ إلا البَلاغَ، ولا يَتِمُّ ذلك إلَّا بمطابقتِهِ بالأصلِ الأوَّلِ، وبالذي في خيالِ الـمُتكلِّمِ، وبكونِهِ واضحَ الدِّلالةِ، أو صائبَ الإشارةِ، وبكونهِ مُؤثِّرًا حسبَ حالِ الـمُستَمِعِ؛ إمَّا ليِّنًا سائِغًا، أو خَشِنًا دامِغًا، فنذكرُ الآنَ هذه الأمورَ.

ثُـمَّ الكلامُ، إمَّا هو خِطـابٌ إلى العواطِفِ، أو إلى العقـولِ، أو إلى الرُّوحِ. الأَوَّلُ: يُناسِـبُهُ محاسنُ ظاهرةٌ من مناسبةِ اللَّفظ، وتصويرِ المعانِي. والثَّاني: نظرُهُ إلى قوَّةِ الحُجَّةِ وَترتيبِ المقدِّماتِ مع الوَضَاحةِ. والثَّالِثُ: نظرُهُ إلى معالي الأمورِ. والثَّالـثُ يَحوي محاسـنَ الثَّاني، كما هو يحوي محاسِـنَ الأوَّلِ، والكلامُ على هذا البحث في موضعٍ آخرَ.

أمَّا مطابقةُ الكلامِ بالأصل فأمرٌ ظاهرٌ، وأراكَ تَعجَبُ مِن الذينَ استخَفُّوا به، وهم مِن أئِمَّة هذه الصِّناعةِ[1]، [٢١] ولا سيَّما أرسطو حيَن قالَ: محاكاةُ الشَّاعرِ

(١) أُدرجت تذكرة داخل المتن ففصلت بين فِقَرِه، فرأينا أن نجعلها في الحاشية حتى يتّصل الكلام؛ وهي:

تذكرةٌ: أسبابُ الوَضَاحَةِ والقَبولِ على غيرِ ترتيبٍ:

١- عِلمُ المستمِع بمعنى الكلامِ وأساليبه. ٦- الوصفُ مكانَ الاسمِ، أو معهُ.

٢- تشخيصُ الـمُنْتَزَعِ بالمحلِّ. ٧- الخاصُّ ونفيُ الاشْتراكِ. =

ينبغي أن تكونَ[1] مثلَ تماثيلِ زُوْكسِيسَ[2]: التمثالُ أكملُ من أصلِ الشَّيءِ[3]. ولكنْ لا غَرْوَ أن يقولُوا مثلَ هذا القولِ، فإنَّ غرضَ الشِّعرِ عندَهمُ التَّلذُّذُ، وقد تكلَّمْنا[4] على هذا فيما قدَّمْنا من ضرورةِ الصِّدقِ في الكلامِ[5]، وأمَّا بالذي في خيالِ المتكلِّم فإنّ الكلامَ لا بدَّ أن يُؤدِّيَ عن ضميرِ المتكلِّمِ، فإنْ قَصَّرَ فهو عِيٌّ أو مُخادعَةٌ.

وأمَّا وضاحةُ الدِّلالة فتستدعي تفصيلًا: فأوّلُ شيءٍ فيه أنْ تكونَ بينَ المتكلِّمِ والمستمِعِ عبارةٌ يشترِكانِ في علمِ دِلالتهَا، ولزِمَ من ذلكَ أن يعلمَا العبارةَ والمعنى معًا، مثلًا: إذا قُلْتَ لرجلٍ: رأيتُ اليومَ فيلًا. وهو لا يعرفُ هيئةَ الفيلِ، فلمْ يُصوِّرْ لهُ كلامُكَ، فإنْ سألكَ: ما هو الفيلُ؟ فقلتَ: حيَوانٌ عظيمٌ، لهُ أنفٌ طويلٌ، وأُذُنانِ عريضتانِ، ونابانِ كقرْنِ البقرِ ملسَاوانِ بيضاوانِ، وقوائمُ كالعَمَدِ. فإنْ علمَ معانِيَ هذهِ الألفاظِ فقدْ صَوَّرْتَ لهُ ما أردْتَ، ولكنْ معَ ذلكَ

= ٣- بتحويلِ الـمُنتَزَعِ إلى المحسوسِ.
٤- من الأسهلِ إلى الأصعبِ.
٥- تفخيمُ اللَّفظِ أحيانًا.
٨- من جهةِ الصوتِ.
٩- لسانُ الترجمةِ.
١٠- مُوافقةُ الحالِ من الغَرَضِ والـمُتكلِّمِ.

(١) في الأصل: يكون.

(٢) زوسكيس مصور يوناني، وأحد أعلام الرسم في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان يعيش من قوت رسمه، ومات بسبب استمرار ضحكِه من لوحة رسمها لأفروديت. تُنظر ترجمته في: كتاب ظهر البلد ص٢٠٤.

(٣) فن الشعر ص٤٥ (بدوي).

(٤) في الأصل: كلمنا.

(٥) ص١٠٧ و١٢٠.

ليسَ الخبرُ كالعِيَانِ، فإنَّكَ تمَلُّ وتسْأَمُ أنْ تُبيِّنَ لهُ كُلَّ شيءٍ من هيئةِ الفيلِ، فالمستمِعُ ـ وإن فهمَ بعضَ ما أردْتَ ـ ولكنَّهُ[1] لم يفهمْ كلَّ مُرادكِ؛ إذ لم يَتصوَّرْ ما صوَّرْتَ؛ لعدمِ اشتراكِهِ معَكَ[2] في عِلمِ المعنى، ولكنَّهُ إن كانَ قد عَلِمَ هيئةَ الفيلِ فقولكَ: رأيتُ اليومَ فيلًا = صوَّرَ لهُ ما في خيالِكَ؛ وهذا لأنهُ شاركَكَ في عِلْمِ اللَّفظِ والمعنى. والنَّتيجةُ أنْ لا يُكَلِّمَ الرَّجلُ إلا بلسانِهِ، كما قالَ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤].

ثُمَّ إنَّه لَمَّا لم نتعوَّدْ عِلمَ الصِّفاتِ إلَّا حينَ اتِّصافِ الذَّواتِ بها لا يكونُ في خيالِنا للمعاني المنتزَعةِ من الوَضَاحةِ والجَلاءِ مثلُ ما لها حينَ نراها مقرونةً بذواتِها، فكأنَّ الصِّفاتِ في ذواتِ الموصوفِ مُصَوَّرَةٌ مُمَثَّلَةٌ، وعندَ التَّجريدِ مُتَوَهَّمَةٌ غُفْلٌ، مثلًا لفظُ الأبيضِ أو الأسودِ لا يُعطيكَ من الجَلاءِ ما يُعطيكَ قولُنا: أبيضُ كالثَّلجِ، أَو أسودُ كالغُرابِ، وليسَتْ هذهِ الوَضاحةُ إلَّا لأنَّكَ ذكرْتَ من الذَّواتِ ما أخرجَهُما مِنَ التَّجرُّدِ إلى التَّشخُّصِ، فتمثَّلَا بينَ يدَيكَ إمَّا بأسلوبِ التَّمثيلِ أو بغيرِهِ، مثلًا: تُخبِرُ عن التَّكبُّرِ والغضبِ والمحبَّةِ والشَّفقةِ بعلاماتِها الظَّاهرةِ وبتشخيصِها [٢٢] بالمكانِ، كما قالَ[3]:

فَإِنَّ الَّتِي حُدِّثْتَهَا في أُنُوْفِنَا   وَأَعْنَاقِنَا مِنَ الإِبَاءِ كَمَا هِيَا

---

(١) من الاستعمالات غير الصحيحة تصدُّرُ الخبرِ بـ لكن، والصواب: فالمستمع ـ وإن فهم بعض ما أردتَ ـ لم يفهم كل مرادك.

(٢) في الأصل: بك.

(٣) من الطويل، للشاعر الحماسي جُزْء بن كُلَيْب الفقعسي. ينظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص٢٤١.

فأراكَ الإباءَ، فمثَّلهُ لكَ في شموخِ الأنفِ وصَوَرِ العُنُقِ[١]، وهذا هو الأصلُ لضَرْبِ الأمثال واختلاقِ القَصصِ وعملِها كما فعلتِ الهنودُ واليونانُ، والآنَ صارَ مِنَ الدَّواهي العامَّةِ[٢].

ثُـمَّ مِنَ الصِّفـاتِ ما هو أدَقُّ وأغمـضُ؛ لكونِها مُدْرَكَـةً بالعقلِ، والمعاني الـمُدْرَكَةُ بالعقلِ المحضِ أصعبُ تصويرًا للعامّةِ إلّا أنْ تُلْبِسَهَا لباسَ المحسوسِ، مثلًا تقولُ: الحكمةُ كَنْزٌ لا يَفْنى، فإذًا صَوَّرْتَ نَفْعَ الحكمةِ الذي يَبقى دائمًا بما ألبستَها لباسَ المحسـوسِ، فإنْ لم يلتبِسْ عليكَ شيءٌ ممَّا قدَّمْتُ لكَ انحسرَ لكَ القِناعُ عن وجهِ التَّشبيهِ، وعلِمْتَ أنَّ أكثرَ أقسامِه مُتفجِّرٌ من هذا اليَنبُوعِ، وفَهِمْـتَ أنَّ التَّصويرَ لا ينحصرُ في التَّشـبيهِ، بل كُلُّ كلمـةٍ تصويرٌ، فإنَّها تُحضِرُ صُورةَ معناها، وإنَّ الغَرَضَ الذي يتعلَّقُ بالتَّشبيهِ ليسَ غيرَ التَّصويرِ، فإنْ أقْصرَ وأسرفَ أو نَفَّرَ كانَ مُسْتَهْجَنًا.

وكما أنَّ بعضَ الأمورِ يعْسُرُ فهمُهُ؛ لتجرُّدهِ وَغموضهِ، فكذلكَ بعضُ الأمورِ يصعُبُ قَبولُهُ؛ لعدمِ اعتيادِ الطَّبعِ به، والشُّغْل بخلافِه، فحينئذٍ يلزمُ الوَضاحةُ أنْ يأتيَ المخاطَبَ بأَلْيَنِ جانِبِهِ مَسًّا، وأَحبِّهِ له حِسًّا؛ لكيلا يردَّهُ، فإنَّ ردَّ الأمرِ والتَّنَفُّرَ منهُ مثلُ عدمِ فهْمِهِ، وهذا ما أَرَدْتُ من أن يكونَ صائب[٣] الإشارةِ، وتفصيلُهُ في باب الكنايةِ وحُسْنِ التَّرتيبِ، وهذا لا يستدعي الكذبَ؛ فإنَّ

(١) صَوَر شيءٍ: ميلُهُ واعوجاجُهُ، وصَوَر العُنقِ: صفحتُهُ.
(٢) يريد أنَّ اختلاقَ القصصِ صارَ مِنَ المصائبِ العامَّةِ.
(٣) في الأصل: صائبة. وانظر طريق البلاغة ص١٣٥.

البلاغةَ أنْ تُخَاطِبَ الـمُسْتَمِعِينَ بأحسنِ قولٍ يُمكِنُ، فإن لم يقبلوهُ بعدَ ذلكَ، فالتَّقصيرُ منهم، فهم إذًا كالأصمِّ والأعمى، ألا ترى كيفَ أمرَ اللهُ رسولَهُ موسى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [سورة طه: ٤٤]، ورسولَه محمدًا: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [سورة النساء:٦٣]، ومثلُهُ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]، هذا عندَ [٢٣] شدَّةِ الخلافِ وعُتُوِّ المخالِف، وأمَّا في غيرِ ذلك فرُبَّما يكونُ الزَّجْرُ أبلغَ، وهذا الذي أرَدْتُ من قولي: خشِنًا دامغًا، ونبسُطُ القولَ عليهِ في بابِ التَّصريح، ومِلاكُ الأمرِ إلقاءُ الكلامِ بحيثُ ينطَبِعُ في قلبِ السَّامِعِ بعدَ أنْ كانَ كما هو في أصلِ وجودِ الشَّيءِ.

* * *

طُرقُ التَّوضيحِ مِن جهةِ استِعمالِ الألفاظِ

اعلمْ أنَّ اسْمَ كلِّ شيءٍ في طيِّ الكلامِ لا يُصَوِّرُ المعنى لنفسِكَ إلَّا مُبْهَمًا؛ لعلَّتَينِ: لسرعةِ تنقُّلِهَا[1] من كلِّ لفظةٍ، فإنَّها مُتوجِّهةٌ إلى عمودِ الكلامِ، ولجمودِ أكثرِ الأسماءِ. ولكنَّكَ إذا استعملْتَ لفظًا فَخِيْمًا غيرَ مُعتادٍ توجَّهتْ إليهِ النَّفْسُ، ولم تُسرِعْ منهُ كلَّ الإسراعِ، وهكذا إذا ضَمَمْتَ معَهُ صفةً أو جِئْتَ بصفةٍ في مكانِ الاسمِ مثلًا في عِوضِ قولِكِ: رأيتُ أسدًا، تقولُ: رأيت ضِرْغَامًا، أو رأيتُ أسدًا جَهْمَ الـمُحَيَّا، أو رأيت ذا لِبْدتَينِ هرِيتَ الشِّدْقِ، أو في مكان قولكَ: مشيْتُ وبيَدي سيفٌ، تقولُ: مشيْتُ وبيدي صَمْصَامٌ، أو بيدي سيفٌ صارمٌ، أو رَقيقُ الشَّفْرتينِ ذو شُطَبٍ[2]، فهذه ثلاثُ[3] وسائلَ إلى جعْلِ الـتَّصويرِ أوضحَ وأَبْيَنَ.

ثُمَّ معَ هذهِ الثَّلاثِ اختيارُ الخاصِّ في محلِّ العامِّ الـمُبهَمِ، مثلًا لفظُ زيدٍ أشدُّ تصويرًا من لفظِ رجلٍ، وهذهِ الوسيلةُ فيها العربُ أطولُ باعًا، فإنَّ لهم ألفاظًا

---

(١) أي تنقُّل الأسماء، وقد أعاد الضمير مجموعاً إلى المفرد: اسم، ولعل ما يسوِّغُ ذلك هو أن (اسم كل شيء) بمنزلة الأسماء.

(٢) الشُّطَب: خطوطٌ تتراءى في متن السَّيفِ، مفردها شُطْبَةٌ. قال الأعشى (ديوانه ١٨٧): [الوافر]

وإلَّا كلُّ ذي شُطَبٍ صقيلٍ   يَقُدُّ إذا علا العنُقَ الجِرانا

(٣) في الأصل: ثلث. ومثله في الكلمة التالية.

خاصَّةً تحتَ كلِّ جِنْسٍ عامٍّ أكثرَ منْ سائرِ اللُّغاتِ، فيُصوِّرونَ الشَّيءَ، ويُمثِّلونهُ مُشَخَّصًا بينَ يديكَ من غيرِ ضمِّ صفةٍ، وفي ذلكَ لهم طرقٌ كثيرةٌ:

الأَوَّلُ: وجودُ الأسماءِ الدَّالَّةِ على أنواعِ جنسٍ واحدٍ(١).

والثَّاني: وجودُ الأفعالِ، مثلُ ذلك كما تَرى في: كَسَّرَ، حطَّمَ، فتَّقَ(٢)، فلَّقَ(٣)، ولهذين الأمرين نحُوِّلُكَ إلى كتبِ هذا الفنِّ(٤).

والثَّالثُ: من جهة الاشتقاقِ للدِّلالةِ على:

ـ التَّأنيثِ، والتَّثنيةِ، وجمعِ القِلَّةِ، وعلى الشّدَّةِ؛ مثلُ: كَسَرَ وكَسَّرَ، وقَتَلَ وقَتَّلَ، وحَطَمَ وحَطَّمَ، ومثلُ: سَقَطَ وتَسَاقَطَ، وعَلَا وتَعالَى، ومثلُ: كَسَبَ واكْتَسَبَ، وجَهَدَ وَاجْتَهَدَ، [٢٤] ومثلُ: خَشُنَ واخْشَوْشَنَ، وحَدِبَ واحْدَوْدَبَ، ومثلُ: بَعَثَ وَبَعْثَرَ.

ـ وعلى هيئةِ الشِّدَّةِ في الأسماء؛ مثلُ: خِضَمٍّ(٥)، وعَفَرْنَاةٍ(٦)، وكذلكَ هيئةِ

---

(١) من ذلك الأسماءُ المترادفةُ للسَّيف أو العسل...

(٢) فتَّق: اشتد في الفتق وبالغ، وفتَّق الثوب: فصل نسيجه أو خياطته. لسان العرب (فتق).

(٣) فلَّق الشيءَ: بالغ في شقِّه. لسان العرب (فلق).

(٤) أي كتب الترادف، وكتب فقه اللغة التي تعرضت للترادف كفقه اللغة للثعالبي والمزهر للسيوطي وغيرهما.

(٥) المرادُ هنا القاطِعُ، يقال: سيفٌ خضمٌّ؛ أي قاطعٌ، والكلمة ترد بمعنى الواسع والكثير والجواد الكريم، يقال: فلانٌ خضمٌّ؛ أي جوادٌ كريمٌ. لسان العرب (خضم).

(٦) العَفَرْناةُ: الشَّديدةُ، يقالُ: ناقةٌ عفرناةٌ، وغولٌ عفرناةٌ، وأسدٌ عَفَرْنى وعفرناةٌ، ولبوءةٌ عَفَرناةٌ، قال الأعشى(ديوانه ص١٠٣): [البسيط]

بِـذاتِ لَـوْثٍ عَفَرْنـاةٍ إذا عَـثَرَتْ ... فالتَّعْسُ أَدْنى لَها مِـن أَنْ أَقُولَ لَعا

الشِّدَّةِ في الصِّفةِ[١] والمصدَرِ، مثلُ فاعلٍ وفعّالٍ، وخِلافَةٍ وخِلِّيْفى.

ـ وللدِّلالةِ على هيئةِ الاشتراكِ، ثُمَّ فُرِّقَ المتعدِّي مِن اللَّازمِ في الاشتراكِ؛ مثلُ: شَتَمَ، وشَاتَمَ، وتَشَاتَمَ.

ـ ومن[٢] ذلكَ جَعْلُ الأفعالِ من الأسْماءِ، مثلُ: تَأَبَّطَ، وَحَمْلَقَ، ومن الجملةِ، مثلُ: هَلَّلَ، وحَوْقَلَ، وجَعْلُ المجهولِ من المعروفِ من غيرِ زيادةٍ[٣].

ـ ومن جِهةِ الاشتقاقِ للدِّلالةِ على حالةٍ مع الفعلِ من التَّطَلُّبِ له: كـ استعَانَ، واستفْهَمَ، أو التَّكَلُّفِ فيهِ، مثل: تسَتَّرَ، ثُمَّ التَّعدِّي فيهِ، مثلُ: تَمَارَضَ[٤].

وهذا بابٌ عظيمٌ، إنما أوقفناكَ عليهِ، وإن دخلْنَا فيه دخلْنَا في علمِ الاشتقاقِ، ثم يصعُبُ لنا الخروجُ منهُ، فما أشرْتُ إلّا إلى أُنْمُوذَجٍ، وإلّا فدِلالاتُ[٥] الاشتقاقِ أكثُر من هذا، ونزيدُ قولاً على أمرٍ واحدٍ من الاشتقاقِ، إذا بحثنا عن دِلالةِ الصَّوتِ والنَّغْمةِ، ومن الاشتقاقِ ما يحتوي التَّشبيهِ، مثلُ: حَمْلَقُ، وتَنَمَّرَ، واسْتَنْسَرَ.

---

(١) أي في الاسم المشتق، نحو اسم الفاعل ومبالغته.

(٢) في الأصل: ومع ذلك.

(٣) أي بناء الفعل للمجهول من غير زيادة حروف، نحو قَتَلَ وقُتِلَ.

(٤) ينظر معاني صيغ الزيّادة في: الكتاب ٤/٦٨-٧٧

(٥) في الأصل: دلالات، من دون فاء.

فإن ظننْتَ أنَّ الدِّلالةَ على هذهِ المعاني يمكنُ بضمٍّ لفظٍ معَ لفظٍ في غيرِ اللُّغةِ العربيَّةِ، والتَّصويرُ يحصلُ، سواءٌ صنعناهُ من كلمةٍ أو من كلماتٍ، مثلًا: احْتَرَقَ الثَّوبُ مِن هَهُنَا وهَهُنَا. يُصَوِّرُ لنا كلَّ ما نفهمْ من: احْرَوْرَقَ الثَّوبُ. وكذلكَ أخذُ الشَّيءِ في الإبطِ، مثلُ: تَأَبَّطَ، أو فتحَ عينيهِ، كأنَّهُ جعلَهَا حلقةً، مثلُ: حَمْلَقَ، فأيُّ مزيّةٍ للعربِ في هذا الأمرِ؟! فإنَّ الغرضَ إنَّما هو تصويرُ الشَّيءِ.

قلنَا[1]: إنَّ التَّخييلَ يكونُ دُفعةً وجمُلةً، كما أنَّ إحساسَ الأشياءِ يكونُ جُملةً ودُفْعةً، فالذي في الخيال صورةٌ مُتَّحِدَةٌ، فإن أعطيتَ السَّامعَ جزءًا جزءًا خالفَ أصلَ الصُّورةِ، ولم يُؤدِّهَا، كأنَّكَ مزَجْتَ ماءً وسُكَّرًا وثَلْجًا ووَرْدًا، فشرِبْتَهُ، وأَشربْتَ السَّامِعَ ماءً، ثُمَّ أطعمْتَهُ سُكَّرًا، ثُمَّ أشممْتَهُ وَرْدًا، ثُمَّ أبلعْتَهُ ثلجًا، أفتظُنُّ أنْ لا اختلافَ بينَ الطَّعمَينِ؟! ولكنْ رُبَّما يكونُ المرادُ تصويرَ كلِّ شيءٍ على حِدَةٍ، فحينئذٍ يحْسُنُ التَّفصيلُ، والبحثُ عن مواقعهِ يأتيكَ في بابِ الإحكامِ والتَّفصيلِ؛ أيْ الإيجازِ والإطنابِ.

وهـذا الولوعُ بتصويرِ الشَّيءِ ورفعِ الإبهامِ عنهُ ذهبَ بهم إلى أن لم يقنعوا بأنْ [٢٥] يَدعُوا الرَّجُلَ باسمٍ سَمَّتْهُ به أمُّهُ حتَّى أعطَوهُ اسمًا آخرَ يدلُّ على صفةٍ لهُ، أو واقعةٍ منهُ، أو به، وكانَ يغلبُ هذا اللَّقبُ على اسْـمهِ، فكثُرَ فيهمْ مثالُ اللَّقبِ،

---

(١) جواب: فإن ظننت.

مثـلُ: تَأَبَّـطَ شَرًّا[١]، وَمُتَلَمِّـس[٢]، وَذُو الإِصْبَعِ[٣]، ممَّا يُذكَـرُ واقِعةً للرَّجلِ[٤]، ولـمَّا تدنَّسـتْ أخلاقُهُمْ بمخالطةِ العجمِ قبلَ البعثةِ، وتجـاوزوا الحدَّ في تنابُزِ الألقـابِ نهاهمُ اللهُ عن الفُسُـوقِ فيهِ[٥]، وأمَّا اللَّقبُ بالحـقِّ، فلم ينْهَهُمْ، ومنْ ذلـكَ زيدُ الفـوارسِ[٦] والخيرِ[٧]، وتسـميةُ أبي جهلٍ[٨] وأبي لهـبٍ[٩]، ومن هذا

---

(١) تُنظر ترجمته في: الشعر والشعراء ٣١٢/١، الأعلام ٩٧/٢.

(٢) تُنظر ترجمته في: الشعر والشعراء ١٧٩/١، والأعلام ١١٩/٢.

(٣) ذو الإصبع العدواني: حُرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة، من عدوان. تُنظر ترجمته في الأغاني ٨٩/٣ وما بعدها.

(٤) لقب بذي الإصبع؛ لأنَّ حيَّةً نهشت إصبع رجله، فقطعها، ويقال: كانت له إصبع زائدة. لُقِّب بذي الإصبع، وغلب اللَّقب على الاسم.

(٥) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

(٦) هو زيد بن حصين بن ضرار الضبي: فارس شاعر جاهلي، وسمي بزيد الفوارس؛ لأنه شهد يوم القرنتين ومعه ثمانية عشر من ولده يقاتلون معه، وزيد كان فارصهم؛ أي مناوبًا عنهم، وسمِّي أيضًا بالرَّديم؛ لأنه إذا وقف في جهة من الحرب ردم ناحيته؛ أي سدَّها، وطالت رياسته. ينظر: خزانة الأدب ١٧٧/٣.

(٧) زيد الخير هو زيد بن مهلهل بن زيد بْن منْهب الطَّائي، وَقيل لَهُ زيد الخَيْل لخمسة أَفْرَاس كَانَت لَهُ، قدم على رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَفد طَيئ سنة تسع، فَأسلم، وَسَماهُ زيد الْخَيْر، وَكَانَ زيد الْخَيل شَاعِرًا محسنًا خَطِيبًا لَسِنًا شجاعاً كَرِيمًا. ينظر: الشعر والشعراء ٢٨٦/١، خزانة الأدب ٣٧٩/٥-٣٨٠.

(٨) هو عمرو بن هشام أحدُ سادات قريش كان يقال له: أبو الحكم، فدعاه المسلمون أبا جهل. ينظر: الأعلام ٨٧/٥.

(٩) هو عبد العزَّى بن عبد المطلب بن هاشم، عمُّ رسول الله صلىّ الله عليه، كانَ أحمرَ الوجهِ، مُشرقًا، فلقِّب في الجاهليَّة بأبي لهب. قتل في غزوة بدر. ينظر: الأعلام ١٢/٤.

الاعتنـاءِ أنَّهـمْ كانُـوا يُسَـمُّونَ كلَّ سـيفٍ[١] وناقـةٍ[٢] وفـرسٍ[٣] ودرعٍ[٤] وحصنٍ[٥] وعمارةٍ[٦]، وفي بعضِ ذلكَ شاركَهُمُ العجمُ.

❋ ❋ ❋

---

(١) من أسماء السيف عند العرب: ذو الفقار، وهو سيف لعلي بن أبي طالب. ووَلْوَلٌ: اسم سيف عبد الرحمن بن عتَّاب بن أَسيد، قال مفتخرًا يومَ الجملِ:

أَنـا ابْـنُ عَتَّـاب وسَـيْفي وَلْـوَلْ والمَـوْتُ دُونَ الجَمَـل المُجَلَّلْ

وقيل: سمِّي بذلك؛ لأنَّهُ كانَ يقتلُ به الرِّجالَ، فتُوَلْوِلُ نساؤهم عليهم. ينظر: لسان العرب (ولول). وللاستزادة ينظر: ألفاظ القتال في الشعر الجاهلي؛ دراسة دلالية: ص٦٥ وما بعدها.

(٢) من الأسماء التي أطلقتها العرب على الجمال: غزلان، شرهان، حمران، عبدان، بويظان...، ومن الأسماء التي أطلقتها على النوق: سراب، الرهيفة، الزينة، الجهامة، قمراء، شرهة... وللاستزادة ينظر: ألفاظ القتال في الشعر الجاهلي؛ دراسة دلالية: ص١٥٤ وما بعدها.

(٣) من أسماء الفرس عند العرب: الأغرّ، البوّاب، الزايد، أشقر مروان، الحرون، العصا... وللاستزادة ينظر: ألفاظ القتال في الشعر الجاهلي؛ دراسة دلالية: ص١٧٤ وما بعدها.

(٤) من أسماء الدروع عند العرب: اليلب، سربال، مغافر، بُرْنُس... وللاستزادة ينظر: ألفاظ القتال في الشعر الجاهلي؛ دراسة دلالية: ص١٣٤ وما بعدها.

(٥) الحصون هي ما يعرف اليوم بالأسوار، وهي تحيط بالمدن لتحميها، مثل أسوار دمشق وأسوار بغداد، والمدينة المنورة والقيروان، أما القلاع فبناء حربي في منطقة استراتيجية، ومنها: قلعة دمشق، قلعة حلب، رحبة مالك بن طوق.

(٦) من أسماء العمارات: المساجد كالمسجد الأقصى والمسجد الأموي ومسجد قباء...، والقصور: قصر الحمراء، وقصر سيف بن ذي يزن وقصر الحيرة...

التَّوضيحُ مِن جهةِ الصَّوتِ

اعلمْ أنَّ للصوتِ دلالةً على بعضِ المعاني لمناسبةٍ بينَهما، وما من لغةٍ إلا فيها[١] آياتٌ على ذلكَ، وأمَّا لغةُ العربِ فالدِّلالةُ فيها أكثرُ وأبينُ من أنْ يُنْكِرَهُا[٢] مُنكِرٌ، وأعجبُ من صاحبِ دلائلِ الإعجازِ[٣] كيفَ غمَّضَ عينَهُ عنْ هذا الأمرِ، وردَّ على العلماءِ الذينَ جعلُوا لِلَّفظِ حظًّا في مَزيَّةِ الكلامِ من جهةِ صَوتِهِ ردَّ مُكابِرٍ ألدَّ[٤]. فالظَّاهِرُ منها ما اشتهرَ بيَن علماءِ الاشتقاقِ:

ـ أنَّ شدَّةً في البناءِ تدلُّ على شدَّةٍ في المعنى[٥]، مثلاً كَسَّرَ أشدُّ منْ كَسَرَ،

---

(١) في الأصل: وفيه. ولا وجه للواو فيه.

(٢) في الأصل: ينكره.

(٣) عبد القاهر الجرجاني.

(٤) ينظر: رسالة «رد الشبهة في جعل الفصاحة والبلاغة للألفاظ» المنشورة في دلائل الإعجاز ص٤٨٢.

(٥) ينظر: الخصائص ٢٦٨/٣ وما بعدها: باب في قوة اللفظ لقوَّة المعنى. قال ابن جني: «هذا فصلٌ من العربيَّة حسنٌ، منه قولهم: خشُنَ واخشوشنَ، فمعنى خشُنَ دونَ معنى اخشوشن؛ لِمَا فيه من تكريرِ العينِ وزيادة الواو...، وكذلك قولهم: أعشب المكان، فإذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا: اعشوشب. ومثله حلا واحلولى، وخلقَ واخْلَوْلَق، وغدنَ واغدودن. ومثله بابُ فعلَ وافتعلَ، نحو قدرَ واقتدرَ، فـ اقتدرَ أقوى معنى من قولهم: قدر. كذلك قال أبو العباس وهو محضُّ القياس، قال الله سبحانه: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، فمقتدرٌ هنا أوفقُ من قادِرٍ؛ من حيث كانَ الموضعُ لتفخيمِ الأمرِ وشدَّةِ الأخذِ. وعليه ـ عندي ـ قولُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ١٦].

وحَطَّمَ منْ حَطَمَ، واخْشَوْشَنَ منْ خَشُنَ، واحْدَوْدَبَ منْ حَدِبَ، وكذلكَ فَعَّالٌ منْ فاعلٍ، وصِدِّيْق منْ صَدِيْقٍ.

ـ وكذلك زيادةٌ في البناءِ تدلُّ على زيادةٍ في المعنى(١)، وهذا قريبٌ من الأوَّلِ، مثلُ: كَفَرَ، وَاكْفَهَرَّ.

ـ ثُمَّ قريبٌ منْ ذلكَ كيفيَّةٌ أُخرَى في الصَّوتِ تدلُّ على معنًى يُناسبُها، مثلًا توالِي الحركاتِ في الصَّوتِ تدلُّ على توَالِي الحركاتِ في المعنى، مثلًا: خَفَقَان، عَسَلَان، ضَرَبَان(٢).

ـ وقريبٌ منه تَكْرارُ صوتٍ يدلُّ على تَكْرارٍ في المعنى(٣)، مثلا: زَلْزَلَ، كَبْكَبَ، لَأْلَأَ.

ـ ثُمَّ بعدَ ذلكَ دلالةُ [٢٦] جوهرِ اللَّفظِ على المعنى.

١ـ أمَّا على الصَّوتِ فظاهرٌ(٤)، ولا أظنُّ لغةً تخلو عنها، مثلُ: قَطَّ، فَلَقَ،

---

(١) ينظر: الخصائص ٢٦٩/٣ -٢٧١. يقول ابن جني: «فإذا كانتِ الألفاظُ أدلةَ المعاني، ثُمَّ زِيدَ فيها شيءٌ، أوجبتِ القسمةُ لهُ زيادةَ المعنى به، وكذلك إن انحرف به عن سَمْتِه وهديته كان ذلك دليلًا على حادثٍ مُتجدِّدٍ له، وأكثرُ ذلك أن يكون ما حدثَ له زائدًا فيه، لا منتقصًا منه». وانظر بحث: إشكالية زيادة المبنى ودلالتها على زيادة المعنى.

(٢) قال ابن جني: فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال. ينظر: الخصائص ١٥٤/٢

(٣) ينظر: الخصائص ١٥٤/٢ وما بعدها: باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني. ومما قاله: «... وذلك أنَّك تجدُ المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير، نحو: الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، والقعقعة والصعصعة والجرجرة والقرقرة...، فجعلوا المثال المكرَّر للمعنى المكرَّر». ١٥٥/٢

(٤) ينظر: الخصائص ١٥٤/٢-١٥٥، وعلم الدلالة ص٧٧. قال ابن جني: «قال الخليلُ: كأنَّهم توهَّموا في صوتِ الجندب استطالةً ومدًّا، فقالوا: صَرَّ، وتوهَّموا في صوت البازي تقطيعًا،=

شَقَّ، خَرَّ، حتَّى إنَّ بعضَ المجتهدينَ[١] توهَّمَ أنَّ جميعَ ألفاظِ اللُّغةِ راجِعةٌ إلى الأصواتِ، ثُمَّ تركيبُ الخامسِ بالرَّابعِ، مثلُ: بَرْبَرَ[٢]، تَغَطْمَطَ[٣]، وَلْوَلَ[٤].

٢ـ وأمَّا على غيرِ الصَّوتِ فهذا أمرٌ ينبغي لهُ بعضُ تأمُّلٍ، ولم يغفَلْ عنهُ علماءُ الاشتقاقِ، فقالوا: إنَّ كذا وكذا من الحروفِ يدلُّ على معنًى فُلانيٍّ[٥]،

= فقالوا: صرصر... ووجدت أيضًا «الفَعَلى» في المصادر والصِّفات إنَّما تأتي للسُّرعة نحو: البشكى والجمزى والولقى».

(١) لعلَّهُ قصد ابنَ جنيٍّ وكلامه في الخصائص، لكنَّ ابنَ جنيٍّ لم يجعلْهُ عامًّا في كلِّ ألفاظِ اللُّغةِ، بل قال: «فأمَّا مقابلةُ الألفاظِ بما يُشاكلُ أصواتَها مِنَ الأحداثِ فبابٌ عظيمٌ واسعٌ... وذلك أنَّهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمْتِ الأحداثِ المعبَّر بها عنها...» وسيأتي نصُّهُ كاملًا في الحواشي اللاحقة.

(٢) البربرة: كثرةُ الكلامِ وغموضُهُ والصَّخبُ والجَلَبَةُ.

(٣) قال ابن منظور: «والغَطْمَطَةُ: التِطامُ الأَمواج، وجمعُهُ غَطامِط. وغَطامِطُه كثيرةٌ: أَصواتُ أَمواجه إِذا تلاطمَتْ، وذلك أَنَّك تسمعُ نغمةً شِبْه غَطْ ونغمةً شِبْهَ مَطْ، ولم يَبلُغْ أن يكونَ بيِّنًا فصيحًا كذلك، غيرَ أَنَّهُ أَشبهُ به منه بغيرِهِ، فلو ضاعفْتَ واحدةً من النَّغمتَيْنِ قلْتَ: غَطْغَطَ، أو قلتَ: مَطْمَطَ، لم يكنْ في ذلك دليلٌ على حكايةِ الصَّوتَيْنِ، فلمَّا أَلَّفْتَ بينهما، فقلتَ: غَطْمَط =استوعبَ المعنَى، فصارَ بمعنى المضاعَفِ، فتمَّ، وحسُنَ؛ وقال رُؤْبَةُ:

سالتْ نواحِيهِ إلى الأَوْساطِ ... سَيْلًا، كَسَيْلِ الزَّبَدِ الغَطْماطِ

قالَ أَبو عُبيدٍ: الهَزَجُ والتَّغَطْمُطُ: الصَّوتُ». لسان العرب (غطم).

(٤) الوَلْوَالُ: البَلْبالُ. ووَلْوَلَت المرأَةُ: دَعَتْ بالوَيْل وأعولَتْ، والاسمُ الوَلْوَالُ؛ قالَ العَجَّاجُ:

كأَنَّ أَصْواتَ كِلابٍ تَهْتَرِشْ ... هاجَتْ بِوَلْوَالٍ ولَجَّتْ فِي حَرَشْ

وفي حديثِ أسماءَ: جاءَتْ أُمُّ جميلٍ في يدها فِهْرٌ، ولها وَلْوَلَةٌ. وفي حديث فاطمةَ عليها السَّلامُ: فسَمِعَ تَوَلْوُلَها تُنادي يا حَسَنان يا حُسَينان. الوَلْوَلَةُ: صوتٌ مُتَتَابِعٌ بالوَيْل والاستغاثةِ، وقيل: هي حكايةُ صوتِ النَّائحةِ. وفي حديثِ أَبي ذَرٍّ: فانْطَلَقَتا تُوَلْوِلان. ووَلْوَلَتِ الفَرَسُ: صوّتتْ. لسان العرب (ولول).

(٥) الخصائص ١٤٨/٢ و ١٥٩-١٦٠ قال ابن جني: «فأمَّا مقابلةُ الألفاظ بما يشاكل أصواتها=

وسبيلُهُم كان سبيلَ الاستقراءِ، وتكلَّفُوا فيه بعضَ التَّكلُّفِ، ولكنْ معَ ذلكَ هو أمرٌ لهُ حقيقةٌ، كما ستعلمُ إنْ شاءَ اللهُ تعالَى. لا يخفى عليك أنَّ دلالةَ الحركاتِ أقلُّ ظهورًا منْ دلالةِ الحروفِ[1]، وإذ كانَتْ تلكَ، فعسى أنْ تكونَ هذهِ.

فاعلمْ أنهُ مهما كانَ مِنَ المحسوساتِ فلهُ صفاتٌ يشتركُ فيها غيرُهُ، والنَّاسُ لم يغفلُوا عنهُ، فقالُوا: قولٌ ليِّنٌ، وصوتٌ رَخيمٌ، وكلامٌ واضحٌ، وقالوا: أمرٌ غُمَّةٌ، وعيشٌ ضيِّقٌ. فإنْ قلتَ: هذا من التَّشبيهِ والتَّمثيلِ =قلنَا:لم نُرِدْ نحنُ إلَّا هذا، ولكنْ تأمَّلْ فيما قلتَ، الحلاوةُ تُدْرَكُ بالطَّعمِ، والظُّلْمةُ تُدْرَكُ بالعينِ، والنُّعومةُ تُدْرَكُ باللَّمسِ، فإذا أشبهْتَ بعضَ المحسوسِ ببعضٍ آخرَ = لم تفعلْ ذلكَ إلَّا بعدَ

= من الأحداث فبابٌ عظيمٌ واسعٌ، ونهجٌ متلئبٌ عندَ عارفيه مأمومٌ، وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره.

من ذلك قولهم: خَضَمَ وقَضَمَ، فالخَضْمُ لأكل الرَّطْبِ كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرَّطبِ، والقضمُ للصّلب اليابسِ نحو: قضمت الدَّابَّةُ شعيرها ونحو ذلك، وفي الخبر قد يدرك الخضم بالقضم، أي: قد يدرك الرخاء بالشدة واللين بالشظف... فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس؛ حذوًا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

ومن ذلك قولهم: النضح للماء نحوه، والنضخ أقوى من النضح، قال الله سبحانه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]، فجعلوا الحاء لرقَّتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه.

ومن ذلك القَدُّ طُولًا، والقَطّ عُرضًا، وذلك أنَّ الطَّاء أحصرُ للصَّوت وأسرعُ قطعًا له من الدَّال، فجعلوا الطَّاء المناجزة لقطع العرض؛ لقربِه وسُرعتِه، والدَّالَ المماطلةَ لِمَا طالَ مِنَ الأثر، وهو قطعُهُ طُولًا...

(١) نعم التعبير عن المعنى بالحركات أقل ظهورًا لكن لا يقل أهمية عن التعبير بها، سواء أكانت حركات في أول الكلمة أم في وسطها أم في آخرها. ينظر: جماليَّة التَّعبير بالحركة.

أنْ وجدتَ فيهما أمرًا مُشتركًا، والآنَ نخوضُ معكَ هذهِ اللُّجَّةِ، فانتبهْ.

فأَوَّلُ ما يهمُّنَا أن نلتمِسَ سبيلًا إلى ترجمةِ حاسَّةٍ بِلسانِ حاسَّةٍ أخرى؛ مثلًا: نُريدُ أن نُترجِمَ اللَّونَ للأعمى، والرِّيحَ للأخشمِ[١]، والطَّعمَ بلفظِ اللَّونِ، واللَّمسَ بلسانِ الصَّوتِ، وهكذا أيَّما شِئْنا مثَّلْناهُ باسمِ غيرِهِ، فإنْ وجدْتَ هذا السَّبيلَ مُمهَّدًا فُتِحَ لكَ بابٌ من علمٍ جديدٍ أمكنَكَ التَّعبيرَ عمَّا تجدُ[٢]، ولا تدري كيفَ تُخبُرِ عنهُ، وهذا العلمُ ليسَ بجديدٍ، بلْ كانَ في قديمِ الأيَّامِ، ولكنْ أضاعَهُ الغافِلونَ، والأمرُ الذي دعانِي إلى مَحْضِهِ أنِّي كنتُ أجِدُ ذوقًا خاصًّا في بعضِ الشَّيءِ، ولا أشُكُّ في أنَّ هذهِ الصِّفةَ لازمةٌ لذلكَ الشَّيءِ؛ أيْ كلُّ مَنْ يذوقُهُ يجدُ مثلَما وجدْتُ، ولكنْ لم أجدْ لتعبيرِهِ لسانًا؛ لأعلمَ أنَّ وُجداني كوُجدانِ غيرِي، فلم يُمكنِّي أنْ أُثبِتَ على مَنْ أَنكرَ، فإنَّ الأخشمَ مثلًا إنْ أنكرَ أنْ لا رِيحَ [٢٧] لِلوَردِ فكيفَ تُثبِتُ عليهِ غيرَ أنْ يشهدَ معَكَ كثيرٌ من النَّاسِ أنَّ فيهِ رِيحًا طيِّبًا؟

ولكنْ إنْ كانَ الأخشمونَ كثيرًا شَهِدُوا عليكَ وفنَّدوكَ، فهكذا في الأذواقِ الغامِضةِ ـ المُنكرونَ فيهِ كثيرٌ ـ بلْ بعضُ مَنْ يجدُ[٣] يُكذِّبُ نفسَهُ، أو يشُكُّ فيهِ؛ لإنكارِ العامَّةِ له[٤].

وسبيلُ الإثباتِ على المنكِرِ والإيضاحِ لمنْ هو في شكٍّ ليسَ إلَّا أنْ تُعبِّرَ

---

(١) الأخشم: الذي لا يستطيع الشم بأنفه. لسان العرب (خشم).

(٢) أيْ أمكنَكَ ذلك البابُ من التَّعبيرِ عمَّا تجدُهُ.

(٣) أي يجد شيئا في الأذواق الغامضة.

(٤) في الأصل: به.

عنهُ بلسانٍ تفهمُهُ العامَّةُ، فإذَا اتَّفقَ فيه جمعٌ يسيرٌ من أصحابِ الذَّوقِ عُلِمَ أنَّ الاتِّفاقَ في التَّمييزِ لا يكونُ في أمر معدومٍ، مثلًا إنْ كانَ البحثُ في أمرِ الرِّيحِ، فإذا اتَّفق جمعٌ يسيرٌ في أنَّ رِيحَ[1] هذا الشيِّءِ طيِّبٌ، وذاكَ نَتْنٍ، والثَّالِثُ بينَ بينَ = عَلِمَ الأَخشمُ أنَّ هناكَ صفةً ما، وإلَّا فكيفَ[2] يتفقُ حُكْمُ واحدٍ بحكمٍ آخرَ؟ فكذلكَ إذا بدَّلْنا هذه العبارةَ، وقلنا: إنَّ هذا الرِّيحَ مثلًا أخضرُ، وذاك أرمدُ[3]، والثَّالِثَ أبيضُ، واجتمعتْ فيهِ كلماتُ جمعٍ، ولوْ يسيًرا[4] عُلِمَ أن هناكَ شيئًا ما، ثُمَّ كانَ مع ذلكَ نوعٌ من التَّخيُّلِ للأخشمِ وإحساسٌ ما، فهذا ما نُريدُ بالتَّرجمةِ من حاسَّةٍ بحاسةٍ.

أمَّا الطَّريقُ إلى هذه التَّرجمةِ فَبِوَسيلةِ صِفاتٍ مُشتَرَكةٍ بينَ الحواسِّ الخمسِ من اللَّذَّةِ والألمِ وعدمِهما، ثُمَّ الشِّدَّةِ واللِّينِ وعدمِهما، ثُمَّ الحِدَّةِ والغِلْظةِ وعدمِهما، فإذا قسَّمْتَ كلَّ محسوسٍ باعتبارِ هذهِ الصِّفاتِ صارَ لكَ من كلِّ جنسٍ سبعةٌ وعشرونَ قِسمًا، فإذا أردْتَ ترجمةَ محسوسٍ بلسانِ حِسٍّ آخرَ أخَذْتَ ما كانَ مثلَهُ في هذه الصِّفاتِ المشتركةِ من اللَّذَّةِ والشِّدَّةِ والحِدَّةِ معَ أضدادِها، مثلًا أخَذْتَ في أوَّلِ المرتبةِ الزَّنجبيلَ في الطَّعمِ، والكافورَ في الشَّمِّ، والحُمْرةَ في اللَّونِ، والحرارةَ في اللَّمسِ، وصوتَ المِزمارِ في السَّمعِ، فوجدْتها في مرتبةٍ واحدةٍ من

---

(١) ريح هنا بمعنى رائحة، وقد استعملها هنا وفيما يأتي اسما مذكرا، مع أنها اسم مؤنث.

(٢) في الأصل: كيف، من دون فاء.

(٣) والأَرْمَدُ: الَّذِي علَىَ لَوْنِ الرَّماد وَهُوَ غُبرة فِيهَا كُدرَة. لسان العرب (رمد).

(٤) في الأصل: يسير. ولعل الصواب ما أثبتُّ، والتقدير: ولو كان الجمع يسيًرا، على حدِّ: التمسْ ولو خاتما من حديدٍ.

الحِدَّةِ معَ كونِها محسوساتٍ مختلفةً. فبعدَما استقرَّ هذا الاصطلاحُ، وعرفُوا معنى المطابقةِ، فإذا جاءَ أحدٌ بالكافورِ، وقالَ للأخشمِ: إنَّ لهُ ريحًا مثلَ الزَّنجبيلِ في الطَّعمِ، والحُمْرةَ في اللَّونِ، وصوتَ المِزْمارِ في السَّمعِ، كانَ لهُ سبيلٌ إلى تخييلٍ ما، وعَلِمَ ماذا درجتُهُ في اللَّذَّةِ؟

وكذلكَ إذا قلْتَ للأعمى: إنَّ صورةَ هذا الرَّجُلِ مثلُ نَهِيقِ الحمارِ، وضَرْبِ العصا، ونَتْنِ الجِيفةِ = تصوَّرَ شيئًا [٢٨] من أمرِ الصُّورةِ، وأُشْرِبَ في قلبِهِ مِنَ الكراهيةِ مثلُ مَنْ يرى الصُّورةَ رأيَ العينِ، وإنِ اتَّفقَ كلماتُ جَمعٍ ولوْ يسيرًا[١] على هذا الحُكْمِ تيقَّنْ بصحَّةِ الحُكْمِ، وهذا لسانُ التَّرجمةِ أصلُ التَّشبيهِ، ولم يترُكْهُ الشُّعراءُ، فإنَّهمْ يُعبِّرونَ عن حِسٍّ بلسانِ حِسٍّ آخرَ كثيرًا. ونُورِدُ بعضَ الأمثلةِ في تمثيلِ القولِ، قالَ القُطاميُّ[٢]:

وَفِي الخُـدُورِ غَمَامَـاتٌ بَرَقْـنَ لَنَا ... حَـتَّى تَصَيَّدْنَنَـا مِـنْ كُلِّ مُصْطَادِ

فَهُـنَّ يَنْبِـذْنَ مِـنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ ... مَوَاقِعَ المَاءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ الصَّادِي[٣]

وهذا أكثرُ من أنْ تفتقِدَهُ، ولكنَّنا نُشيرُ إلى أمرٍ عَجِبَ النَّاسُ منهُ، وكُنْهُهُ

---

(١) في الأصل: يسير، وقد سبق التعليق على مثله.

(٢) من البسيط، للقطامي في ديوانه ص٨٠-٨١.

والقطاميُّ ـ بضم القاف وفتحها ـ لقب لعُمير بن شُييم بن عمرو بن عبّاد، وهو ابن أخت الأخطل، شاعر غزل فحل. كان من نصارى تغلب في العراق، وأسلم. جعله ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين، مات ١٣٠ هـ. تُنظر ترجمته في مقدمة ديوانه ص٦ وما بعدها، والأعلام ٥/٨٨

(٣) ينبذن: يرمين به، يتكلمن. الغُلَّةُ: الحرارة. الصَّادي: الظَّمآنُ.

في هذهِ لغةُ التَّرجمةِ، وبيانُهُ أنَّ مَنْ حُرِمَ حِسًّا كانَ أميلَ إلى التَّشبيهِ وإجادتِه[١]، فإنَّهُ لا يعلمُ مِنَ الشَّيءِ الذي لا يُحسُّهُ إلَّا مثالَهُ، فيجمعُ في خيالِهِ صورَ الشَّيءِ ملبوسةً بلباسِ الحِسِّ الآخرِ، ثُمَّ كثرةُ تعاطيهِ بالتَّمثيلِ تجعلُهُ أقوى عليهِ، فإنَّ القُوَى تشتدُّ بإعمالِها، ومِن كثرةِ التَّعرُّضِ لهُ رُبَّما يعثرُ على أحسنِ شيءٍ فيهِ، وهذا أمرٌ معلومٌ مُشَاهَدٌ في العُميَانِ، وفي الشُّعراءِ هذا بشَّارٌ الأعمَى مُجِيدٌ في تشبيهِ المرئيَّاتِ، وتعجّبوا من قولِهِ المشهورِ[٢]:

كَأَنَّ مُثَـارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤوسِـنَا وَأَسْـيَافَنَا لَيْلٌ تَهَـاوَى كَوَاكِبُهْ

وتراهُ كثيرًا ما يُشبِّهُ الأشياءَ بالمرئياتِ وغيرِها لسببٍ أشرنا إليه، فقالَ[٣]:

وَكَـأَنَّ رَفْـضَ حَدِيْثِهَـا قِطَعُ الرِّيَـاضِ كُسِـيْنَ زَهْـرَا

وَتَخَـالُ مَـا جَمَعَـتْ عَلَيْـ ـهِ ثِيَابَهَـا ذَهَبًـا وَعِطْـرَا

وَكَـأَنَّ تَحْـتَ لِسَـانِهَا هَـارُوْتُ يَنْفُـثُ فِيْـهِ سِـحْرَا

وقالَ أيضًا[٤]:

وَبِكْـرٍ كَنَوَّارِ الرَّبِيْـعِ حَدِيْثُهَا تَرُوقُ بوَجْـهٍ وَاضِحٍ وَقَوَامِ [٢٩]

---

(١) في الأصل: وإجادتها.

(٢) من الطويل، لبشار بن برد في ديوانه ٣٣٥/١، وهو من الأبيات التي أكسبت الشاعر بشارًا شهرة كبيرة؛ لما له من براعة التشبيه وجمال الصورة، واشتهرت رواية البيت كما ذكرها الفراهيُّ، والذي في الديوان: ... فوق رؤوسهم. ورجَّح رواية الديوان محقِّقُهُ العلَّامةُ الطاهر بن عاشور، وقال: إنَّها أرشقُ.

(٣) من مجزوء الكامل، ديوان بشار بن برد ٥٥/٤-٥٦

(٤) من الطويل، ديوان بشار بن برد ١٨٣/٤

وهكذا ترى أكبرَ الشُّعراءِ تخييلًا لِمَا يُبصَرُ مَنْ كُفَّ بصرُهُ، مثلُ: هومِيروس اليونانِيِّ، وملتونِ الإنكليزيِّ[1].

ثُمَّ لا يخفى عليكَ أنَّ هذا جُهدٌ لأداءِ ما لا يُمكِنُ تعبيرُهُ ـ كما هو هو ـ لِمَنْ حُرِمَ الحِسَّ الذي يُخبِرُهُ عن حقيقةِ الشَّيءِ، وأمَّا إذا كانَ الكلامُ بينَ الذينَ رُزِقوا ذلكَ الحِسَّ، فهذهِ التَّرجمةُ تُنَبِّهُ فيهمْ ذوقًا نائِمًا، كما تقولُ لرجُلٍ: هذا لفظٌ ثقيـلٌ، وهذا خفيـفٌ، انتبهَ فيه الذُّوقُ إن لم يكنْ في غايـةِ البلادةِ، ولولا هذه التَّرجمةُ لم يترَقَّ اللَّفظُ مِنَ المحسوسِ إلى الـمُدرَكِ، كالظُّلمِ والعَدْلِ، والانبساطِ والكشفِ، ومِنَ الصِّغَرِ إلى العِظَمِ، كالخَلْقِ والفَلقِ، والدَّليلِ والفَصلِ، ولم يُمكِنْ جمعُ الصُّورِ، كالذُّوقِ والمسِّ في قولِهِ تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [سورة القمر:٤٨]، فجمعَ التشـبيهينِ، وكقوله تعـالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ [سورة هود: ٩]، فجمَعَ تشبيهَيْ الحُلْوِ واللِّباسِ.

ومن أجَلِّ منافعِ هذه التَّرجمةِ أنَّ اللِّسانَ يُمكِنُ به التَّعبيرُ عمَّا وراءَهُ، فإنَّ قولَكَ: إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ، وظاهِرٌ وباطِنٌ، ورؤوفٌ ومُنتقِمٌ = ليسَ إلَّا تعبيرَ معانٍ فوقَ هذه الألفاظِ، وقد نَبَّهَنا اللهُ تعالى على ذلك فقالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ

(١) في الأصل (ملطن الإنكليسّي). جون ملتون شاعر إنكليزيّ عاش في القرن السابع عشر الميلاديّ، من أعماله الشهيرة (الفردوس المفقود). أصيب بالعمى في آخر حياته، وكتب في ذلك قصيدة من أربعة عشر بيتًا. انظر كثيرًا من أخباره في مقدمة كتابه الفردوس المفقود.

﴿فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: ٧]؛ أيْ مثلًا إنَّ اللهَ تعالى يعلمُ لا غيرُهُ أنَّهُ كيفَ يسمعُ، وكيفَ يُبصِرُ، أو كَيفَ يرحمُ، أو كيفَ يُعاقِبُ، فإنَّ هذه الصِّفاتِ فينا انْفعالٌ، ثُمَّ فِعْلٌ، ثُمَّ هيَ زائدةٌ مُستعَارةٌ فَتُنقَصُ، وتزولُ، ويبقى[1] بعضُها معَ زوالِ بعضِها، فلا تلازُمَ بينَها، وأمَّا صفاتُ اللهِ فليستْ كذلكَ.

فالآنَ نرجِعُ من مسألةِ التَّرجمةِ قبلَ استقصائِها؛ لأنَّها من عِلْمٍ آخرَ = إلى ما يَعنِينا، وهوَ [٣٠] أنَّ للأصواتِ من جهةِ جَرْسِها دِلالةً على معنًى لمناسبةٍ بينَهُما، ولكنْ ليسَ كلُّ لفظٍ يدلُّ على معناهُ بهذا الطَّريقِ، فإنَّ الاشتقاقَ والمجازَ تقاذُفُ بالألفاظِ من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، وليسَ كلُّ محلٍّ ممَّا ينبغي فيهِ زيادةُ التَّصويرِ، كما شرحْناهُ في بابِ قواعدِ التَّصويرِ، فأمَّا إذا كانَ المحلُّ مُناسبًا، فيُعطيكَ الصَّوتُ- لا سيَّما في لغةٍ وسيعةٍ مثلِ لغةِ العربِ ـ تصويرًا لمعناكَ من جهةِ دلالتِهِ على الفخامةِ أوِ المهانةِ، وعلى الشِّدَّةِ أوِ اللِّينِ، وعلى الحِدَّةِ أوِ الغِلْظةِ، بل على صفاتٍ أخصَّ مِنْ هذهِ العامَّةِ، فالبليغُ إذا أرادَ زيادةَ التَّصويرِ التَمَسَ مِنَ المرادِفاتِ أنسبَها بالمعنى، فإن لم يَجِدْ بدّلَ الأسلوبَ، فإنَّ الألفاظَ مُنقادَةٌ للأساليبِ، وإلَّا لم يُمكِنِ النَّظْمُ أوِ السَّجْعُ أوِ التَّرصيعُ أوِ التَّاريخُ، والماهرُ بفُنونِ الأسلوبِ يأتيكَ بكلامٍ تظنُّ أنَّهُ هو الظَّاهِرُ المُتبادَرُ، وما كانَ لصاحبِ الكلامِ مَحيصٌ عنهُ، ولكنَّهُ سحرَتْكَ صنعتُهُ.

والعجبُ كلُّ العجبِ، كيفَ غلبَ الوهْمُ على صاحبِ دلائلِ الإعجازِ،

(١) في الأصل: وتبقى.

فزعمَ أنَّ المتكلِّمَ لا يعنيهِ إلَّا المعنى، ولا همَّ لهُ في الألفاظِ من جهةِ جواهرِها[(١)]، وخالفَ جُمهورَ العلماءِ، فإنَّ تصرُّفَ البليغِ في أنحاءِ الكلامِ حتى يصطفيَ ما شاءَ من الألفاظِ المناسِبةِ معنًى وصوتًا =أمرٌ معلومٌ لا يَخفى إلَّا على مَنْ أضلَّهُ الوهْمُ، وتسلَّطَ عليهِ الوُلوعُ بالـمُبتدَعِ، فلا تضيقُ السُّبُلُ على البليغِ عن الإتيانِ بما يَشتهي مِنَ اللَّفظِ، وكما أنَّ للصَّوتِ مناسَبةً بمعنًى خاصٍّ، كذلك له مناسبةٌ بالمقصدِ، فبعضُ الأغراضِ يَستدعي كلامًا سهلًا، وبعضُها كلامًا فَخيمًا جزْلًا، مثلًا في الغَزَلِ والآدابِ لا يَليقُ مِنَ الأصواتِ ما فيهِ الشِّدَّةُ والفخامةُ، وهكذا للصَّوتِ مناسَبةٌ بالمتكلِّم، فإنَّ كلامَ الملوكِ والحكَّامِ ينبغي أن يكونَ أفخمَ من كلامِ العامَّةِ، وهكذا يُراعَى جانبُ الـمُخاطَبِ، فهذهِ أربعةُ وجوهٍ لاختيارِ الألفاظِ على صفةٍ مُناسِبةٍ من الصَّوتِ، وهذا أمرٌ يتعلَّقُ بالأوزانِ والنَّغَمِ، كما هو المعلومُ عندَ أصحابِ هذا الفنِّ، ولا نرى الحاجةَ إلى تفصيلها، ولكنَّا لا نطوي هذا البحثَ قبلَ الإيرادِ ببعضِ الأمثلةِ لمناسبةِ الصَّوتِ بمعناهُ حسبَ الوجوهِ الأربعِ له...[(٢)] [٣١].

---

(١) قال عبد القاهر: «... علمتَ أنَّ الفصاحةَ والبلاغةَ وسائرَ ما يجَري في طريقِهما أوصافٌ راجعةٌ إلى المعاني، وإلى ما يُدَلُّ عليه بالألفاظِ، دونَ الألفاظِ أنفُسِها...». دلائل الإعجاز ص٢٥٩، وينظر: ص٢٥٢ و٢٦٣ و٢٦٦-٢٦٧ و٤٨١

(٢) بياضٌ في الأصل أُشيرَ إليه في الحاشية، ولعله أراد أن يورد أمثلة على مناسبة الصَّوت للمعنى، لكن لم يُقدَّر له أن يعود إلى هذا الفصل؛ ليتمَّهُ. رحمه الله تعالى. نقول: إنَّ هذه الأقسامَ الأربعةَ التي ذكرها متداخلةٌ، فمناسبةُ الصَّوتِ للمعنى تتعلَّقُ بالغرضِ وبالمتكلِّم وبالمخاطَبِ في الوقت نفسِهِ، فاللَّفظُ السَّهلُ مثلًا قد يكون مراعاة للغرض كالزهد، فهو يتطلب ألفاظاً مألوفة غير بذيئة أو محظورة، وللمتكلم من أجل إيصال ما يريد، وللمتلقي من أجل التأثير فيه، وكذلك ألفاظ الغزل وغيره من الأغراض الأخرى، ودونك أمثلة على ما أورده: =

فصلٌ
في الوضاحةِ من جهةِ اختيارِ المعاني

قدْ علمْتَ في الفصلِ السَّابقِ أنَّ مِلاكَ الوضاحةِ تعيينُ المعاني وتصويرُهَا، وقدْ ذكرْنَا ما كانَ يُمكِنُ منْ ضمِّ بعضِ الألفاظِ معَ بعضٍ أو من اتِّخاذِ بعضِ البدلِ لها، وكذلك ذكرْنَا ما تيسَّرَ للغةِ العربِ من طُرُقِ توضيحِ المعاني بدلالاتِ

= الأول: ما يستدعي كلامًا سهلًا، كما في شعر الزهد والوعظ، والغزل والحكمة والآداب والشعر الموجه نحو العامة، وهو بذلك يراعي مقتضى حال المخاطب، من ذلك مثلًا قول بشار (ديوانه ص٥٢ بتحقيق السيد بدر الدين العلوي): [مجزوء الوافر]

ربَّابـةُ ربَّـةُ البيـتِ ... تَصَـبُّ الخَـلَّ فـي الزَّيـتِ
لهـا عشـرُ دجاجـاتٍ ... وَدِيـكٌ حَسـنُ الصَّـوتِ

الثاني: ما يستدعي كلامًا فخمًا، نحو الهجاء والفخر والمدح والتحريض على الحرب ووصفها، من ذلك قول بشار (ديوانه ١/٣٣٥): [الطويل]

كأنَّ مثارَ النَّقعِ فوقَ رُؤوسِنا ... وأسيافُنا ليلٌ تهاوَى كواكبُهْ

الثالث: ما يتعلق بالمتكلِّم، فإنَّ خطب الملوك أفخمُ من كلامِ العامَّةِ، وخطبُهم في الحرب مختلفةٌ عنها في الأمورِ العامَّةِ، ولغةُ شعراء الصَّعاليك التي تصف حالَهم وتعبِّرُ عن مواقفهم الاجتماعية = مختلفةٌ عن لغة شعراء البلاط الذين يتسوَّلونَ على أبواب الملوك والأمراء.

الرابع: ما يتعلق بالمخاطب، تختلف فخامة الصوت والكلام عمومًا بحسب المتلقي، فالشعر في مدح الملوك والأمراء مختلفٌ عن الشِّعر الموجَّهِ نحو العامَّةِ. فقصائدُ النَّابغةِ في مدح النُّعمان، وقصائد جرير والأخطل في مدح عبد الملك، وقصائد المتنبي في مدح سيف الدولة = تختلف عن شعر بشار في وصف الجارية السابق أو الخياط الأعور أو الحمار. يقول بشار (ديوانه ص ١٢ بتحقيق السيد بدر الدين العلوي): [مجزوء الرَّمل]

خـاطَ لي عمـرٌو قُبـاءْ ... ليـتَ عَيْنَيـهِ سـواءْ
قُلْت شـعرًا ليـس يُدرى ... أمديـحٌ أم هِجـاءْ

كلماتِها المفردةِ، فهذا كُلُّ ما ذكرْنا كانَ من جهةِ النَّحوِ والاشتقاقِ والصَّوتِ، والآنَ نُريدُ أن نذكُرَ ما يُعطي الكلامَ وضاحةَ الصُّورةِ من اختيارِ المعاني المناسِبَةِ للشَّيءِ، ونُمثِّلُهُ من كلامِ العربِ.

فاعلمْ أنَّ العربَ كما أنَّهمُ اختارُوا للمعاني من الألفاظِ ما يكونُ أحسنَ تصويرًا لها، فكذلكَ إنَّهمُ اختارُوا لها مِنَ المعاني ما يكونُ أرفقَ لتوضيحِها ورفْعِ إبهامِها، فإذا ذكروا شيئًا لم يُهمِلُوهُ غُفْلًا مُتَوَهَّمًا، بل ذكروا معَهُ جارَهُ وخليطَهُ، فلا ترى معانيَهُمْ كهباءٍ هافيًا في هواءٍ، أو غُثاءٍ طافيًا على ماءٍ، فكما أنَّهمْ يُصوِّرونَ الصِّفاتِ قائمةً بجواهرِها؛ لكي يُطابَقَ الحاكي بالمحكيِّ، فكذلك يُزوِّجُونَ أفرادَ المعاني بقُرنائِها؛ ليُطابَقَ التَّصويرُ بالـمُصوَّرِ.

فلذلكَ تراهمْ إذا وقفُوا على منزلٍ قفْرٍ للأحبَّةِ يبكونَ لِذِكراهمْ صوَّرُوهُ لكَ بما حولَهُ، ورُبَّما وجَّهُوكَ إليه، كأنَّكَ تراهُ، فسمُّوا ديارًا أُخَرَ على جوانبِهِ[1]، فإذا قرأْتَ أشعارَهُمْ، ظننْتَ نفسَكَ معَهُمْ، حتَّى إن شئْتَ جمعْتَ من أشعارِهمْ

---

(١) كأني به يتحدث عن مطلع معلقة امرئ القيس (ديوانه ص٨): [الطويل]

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكرَى حبيبٍ ومنزِلِ ... بِسقطِ اللِّوى، بينَ الدَّخُولِ، فحَوْمَلِ

فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يَعفُ رَسْمُها ... لَما نَسجَتْها مِن جَنُوبٍ وشَمأَلِ

رخاءً تَسُحُّ الرّيحُ في جَنَباتِها ... كَساها الصَّبا سَحْقَ المُلاءِ المُذَيّلِ

تَرَى بَعَرَ الآرامِ في عَرصَاتِها ... وَقيعانِها، كأنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

كأنّي غَداةَ البَينِ، يَومَ تَحَمَّلُوا ... لدَى سَمُراتِ الحَيِّ ناقِفُ حَنظَلِ

وُقُوفاً بها صَحْبي عَليَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقولونَ: لا تَهلِكْ أَسىً، وتجَمَّلِ

فَدَعْ عَنكَ شَيئاً قد مَضَى لسَبيلِهِ ... ولكِنْ على ما غالَكَ اليَوْمَ أقبِلِ

وقَفْتُ بها حتّى إذا ما تَرَدَّدَتْ ... عمايَةُ مَحزونٍ بشَوقٍ مُوَكَّلِ

وإنّ شِفائي عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ ... فهل عَنْدَ رَسْمٍ دارِسٍ من مُعَوَّلِ

جغرافيةً تُخبِرُ عن خواصّ كلِّ بُقعةٍ من بلادِ العربِ[١] [٣٢].

ولذلكَ تراهمْ في التَّشبيبِ يُسمُّونَ الحبيبَ[٢]، بلْ يلْتذُّونَ بذكْرهِ[٣]، كما ترى النَّابغةَ[٤] وغيرَهُ، وفي المدحِ[٥] والرِّثاءِ كذلكَ يُسمُّونَ، بل يُكثُرونَ

---

(١) ينظر: شعرية المكان في الشعر الجاهلي؛ المعلقات العشر أنموذجا، وملامح الصورة المكانية في الشعر الجاهلي، وجمالية التَّعبير المكاني في الشعر القديم.

(٢) ومِن كثرةِ ذِكْرِهِم لأسماءِ محبوباتِهِم نُسِبُوا إليهنَّ؛ لذلك تجد جميل بثينة، ومجنون ليلى، وقيس لبنى...

(٣) يقول ابن الفارض (ديوانه ص٩٥): [الطويل]

أَدِرْ ذِكْرَ مَن أَهْوَى وَلَو بِمَلامِ ... فإنَّ أحاديثَ الحبيبِ مُدامِي

لِيَشْهدَ سَمْعِي مَن أُحِبُّ وإنْ نَأَى ... بطَيْفِ مَلامٍ لا بِطَيْفِ مَنامِ

فَلِي ذِكْرُها يحلو على كُلِّ صِيغةٍ ... وإنْ مَزَجُوهُ عُذَّلي بِخِصامِ

(٤) في قصيدته المشهورة (ديوان النابغة ص٢٠٢): [البسيط]

عُوجُوا فحَيّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدَّارِ ... مَاذَا تُحَيَّونَ مِنْ نُؤْيٍ وأَحْجَارِ؟

أَقْوَى وَأَقْفَرَ مِنْ نُعْمٍ، وَغَيَّرَهُ ... هُوجُ الرِّياحِ بِهَابِيْ التُّربِ مَوَّارِ

وَقَفْتُ فيها، سَراةَ اليَومِ، أَسْأَلُها ... عَنْ آلِ نُعْمٍ، أَمُوناً، عَبْرَ أَسْفَارِ

فَاسْتَعْجَمَتْ دَارُ نُعْمٍ ما تُكَلِّمُنا ... والدَّارُ لَوْ كَلَّمَتْنَا ذاتُ أَخْبَارِ

وَقَدْ أَرَانِي وَنُعْماً لاَهِيَيْنِ بها ... وَالدَّهْرُ والعَيْشُ لَمْ يَهْمُمْ بِإِمْرارِ

أَيَّامَ تُخْبِرُنِي نُعْمٌ وأُخْبِرُها ... ما أَكْتُمُ النَّاسَ مِنْ حاجي وأَسْراري

لَوْلاَ حَبَائِلُ مِنْ نُعْم عَلِقْتُ بها ... لأقْصَرَ القَلْبُ عَنْهَا أَيَّ إقْصارِ

نُبِّئْتُ نُعْماً على الهِجْرَانِ عَاتِبَةً ... سَقْياً وَرَعْياً لِذَاك العَاتِبِ الزَّاري

رَأَيْتُ نُعْماً وَأَصْحابي على عَجَلٍ ... والعَيْسُ لِلْبَيْنِ قَدْ شُدَّتْ بِأَكْوَارِ

فَرِيعَ قَلْبِي، وكَانَتْ نَظْرَةٌ عَرَضَتْ ... حَيْناً، وتَوْفِيقَ أَقْدارٍ لأَقْدَارِ

(٥) من ذلك المدح النبوي، يقول البوصيري في قصيدته المحمدية (ديوان البوصيري ص ٢٠٩): [البسيط] =

بذكرِ اسمِ المرثيّ عليهِ[١]، وفي ذكرِ حروبِهِمْ يذكُرونَ أسماءَ مواضعِ القتالِ وممرَّ جيوشِهُمْ، ويُصوِّرونَ هيئةَ الأرضِ والبلادِ، كما أنَّهمْ في مراثيهمْ يذكرونَ مصارعَ الأبطالِ ومواقعَ الأجداثِ، وكذلكَ في مُنافرتِهِمْ يذكرونَ نسبَهمْ، وأسماءَ رجالِ عشائرِهِمْ، وأسماءَ منْ غلبُوا عليهمْ، ويُلمِّعونَ من وقائِعِهِمُ المشهورةِ، كما ترى في قصيدةِ عمرِو بنِ كُلثُومٍ[٢] وحارثِ بنِ حِلِّزَةَ[٣] ومُهَلْهِلٍ[٤] وغيرِهِمْ.

= محمدٌ أشرف الأعراب والعجـم   محمدٌ خير من يمشـي على قدمِ
محمـدٌ باسـط المعـروف جامعـه   محمدٌ صاحب الإحسان والكرمِ
محمـدٌ تـاج رسـل الله قاطبـةً   محمدٌ صـادق الأقـوال والكلمِ
محمـدٌ ثابـت الميثـاق حافظـه   محمدٌ طيـب الأخلاق والشـيمِ

(١) من ذلك ذكر الخنساء لأخيها صخرا ترثيه (ديوانها ص ٣٨١-٣٨٥): [البسيط]

فمـا عجـولٌ على بـوٍّ تُطيـفُ بـه   لهـا حنينـانِ إصغـارٌ وإكبـارُ
يومًـا بأوجـدّ مـني يـوم فارقـني   صخـرٌ وللدهـر إحـلاءٌ وإمرارُ
وَإِن صخـرًا لوالينـا وَسَـيِّدنَا   وَإِنَّ صخـرًا إذا نشـتُو لنحّـار
وإنَّ صخـرًا لمقـدامٌ إذا ركبـوا   وإنَّ صخـرًا إذا جاعـوا لعقَّـارُ
وَإِن صخـرا لتأتـم الهـداة بِـهِ   كَأَنَّـهُ علـم فِـي رَأسـه نَـار

(٢) تُنظر ترجمته في: الشعر والشعراء ٢٣٤/١، والأغاني ٣٥/١١ (طبعة دار صادر). والقصيدة التي أشار إليها الفراهي هي معلقته التي مطلعها:

أَلَا هُـبِّي بِصَحْنِـكِ فَاصْبَحِيْنـا   ولا تُبْقِـي خُمـورَ الأَنْدَرِينـا

وقد أكثر فيها من الفخر والحماسة. ينظر: ديوان عمرو بن كلثوم ص٣٠٧.

(٣) شاعر جاهلي أحد أصحاب المعلقات. تُنظر ترجمته في: الشعر والشعراء ١٩٧/١، الأغاني ٢٩/١١ (طبعة دار صادر)، الأعلام ١٥٤/٢. والقصيدة التي أشار إليها الفراهي هي معلقته التي مطلعها:

آذنتـنـا ببينـهـا أسـمـاءُ   ربَّ ثـاوٍ يمـل منـه الثـواءُ

وقد أكثر فيها من الفخر، وجمع كثيرا من أخبار العرب ووقائعهم فيها. ينظر: ديوانه ص٦٦.

(٤) عديّ بن ربيعة بن مرة، من تغلب، شاعر، من أبطال العرب في الجاهلية. تُنظر ترجمته في: الشعر والشعراء ٢٩٧/١، والأعلام ٢٢٠/٤.

ومن هذا الأصلِ يتفرَّعُ أنَّهمْ رُبَّما لا يقنعونَ بتشبيهِ الشَّيءِ بالشَّيءِ حتَّى يُصوِّرُوا المُشَبَّهَ بالتَّفصيلِ، كما تجدُهُ في كلامِ هومِيروسَ، فهذا تصويرُ الـمُشَبَّهِ ينفُثُ في التَّشبيهِ سِحرًا لولاهُ لكانَ جامِدًا عاطِلًا، مثلًا (زهراءُ كالنَّجْمِ) ليسَ مثلَما قال شيخُنا الفيضُ[1]:

. . . . زَهْـرَاءُ نَـيِّرَةٌ كَالنَّجْـمِ فِي الأُفُقِ

فبضمِّ كلمتِي «نَيِّرةٌ» و«في الأُفُقِ» صوَّرَ الشَّيءَ، وبزيادةِ قولِهِ: «نَيِّرةٌ» مَكَّنَ في نفسِكَ صورةَ النُّورِ، وبزيادة قولِهِ: «في الأُفُقِ» مثَّلهُ بينَ يدَيكَ كأنَّكَ تراهُ.

وهكذا دأبُهمْ في كلِّ أمرٍ يأتُونَ بذكْرِهِ مِنَ الصَّيدِ والسِّباقِ والحربِ والشَّجاعةِ والسَّيرِ والنُّعاسِ والجُودِ والضِّيافةِ والغَزَلِ والسُّكرِ والمدحِ والنِّياحةِ، فلا يذكُرونَ شيئًا إلا وهمْ ينشرُونَ بينَ يدَيكَ صفحاتٍ مُصوَّرةً، بل يختلسونكَ

---

(١) هذا عجز بيت من البسيط، وصدره: بَيْضَاءُ مَا مَسَّها عَارٌ وَمَنْقَصَةٌ. والأبيات في مدح أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها. وقد نقل القنوجي الأبيات، ونسبها لصاحب التحفة الصديقية. يُنظر: السراج الوهَّاج ٩/٤٠٨، وطبعة دار الكتب العلمية ٧/١٠٦-١٠٧. والتحفة الصديقية لمحمد المهدي الفاسي الفهري المتوفى ١١٠٩ هـ، وليس في ترجمته ما يدلُّ على أنه شاعر. ينظر الأعلام ٧/١١٢، لكن الفراهي ـ والله أعلم ـ أراد به شيخه فيض الحسن السهارنفوري ١٣٠٤ هـ، وهو أحد كبار علماء العربية في الهند، وشاعر مفلَّق، وأديب بليغ، وله ديوان شعر مطبوع في باكستان، لم نقف عليه، وله شروح للمعلقات وللحماسة وغير ذلك. ينظر: شعر الإمام الفراهي ص٢١.
ولعلَّ الذي أوقع القنوجي في هذا هو أنَّ لفيض الحسن السارنفوري تعليقات على التحفة الصديقية. انظر بحثًا منشورًا على موقع الألوكة بعنوان: ديوان الفيض بتحقيق د. ظهور أحمد ظهر للدكتور أورنك زيب الأعظمي.

عنكَ، ويُوقفُونَكَ بإزاءِ الشَّيءِ، فكأنَّهمُ استودعُوا أشعارَهُمْ جغرافيَّتَهُم وتارِيخَهُم وحِكَمَهم وشمائلَهُم حتَّى إنَّ كلَّ مَنْ يقرأُ أشعارَهُم غيرَ غافلٍ يعرفُهُم كأنَّهُ أقامَ فيهم وعاشَرَهُم؛ ولذلكَ قالوا قديمًا[1]: الشِّعْرُ ديوانُ العَرَبِ.

وفيما قلنا ليسَ إلَّا إشارةٌ إلى جُملَةِ الأمرِ، فأمَّا طُرُقُهُم إلى تصويرِ المعاني الخاصَّةِ فلا أدريْ [٣٣] كيفَ أكشِفُ عنها دونَ أن نورِدَ نُبذَةً من الأمثلَةِ من غيرِ إطالةِ الكلامِ فيها، فصَمِّمْ إلى الأمثلةِ الآتيةِ تأمُّلَكَ وألمِمْ بها، بل خيِّمْ عليها حتَّى يتبيَّنَ لك، فإنِّي لا أُحبُّ الإسهابَ، ونُحسِنُ الظَّنَّ بعقلِكِ، فإنَّ هذا حديْثُ تصويْرِ الشَّيءِ ذو أفانينَ لا نستطيعُ استقصاءَها، فلْيَكْفِنا منهُ قدْرٌ صالحٌ يُبيِّنُ لكَ ما نُريدُ، ويُصوِّرُ لكَ ما أشرْنا إليهِ، فإذا انكشفَ لكَ سبيلُهُمْ رأيْتَ أنَّ أشعارَهُم قد تضلَّعَتْ منهُ، حتَّى تَجِدَ جُمهورَ محاسِنِها منهُ لا مِنَ التَّشبيهِ، كما زعمُوا، بلِ التَّشبيهُ فرعٌ منهُ، فالأمثلةُ الآتيةُ قِسمانِ:

الأَوَّلُ: ما ليسَ فيهِ تشبيهُ شيءٍ بشيءٍ.

والقسمُ الثَّاني: أشعارٌ فيهَا التَّشبيهُ الصَّادِقُ المُصوِّرُ للأصلِ حقَّ التَّصويرِ، لا ما استحسنُوهُ مِنَ التَّشبيهاتِ الغاليةِ؛ لكي تعلمَ أنَّ حُسْنَ الكلامِ

---

(١) ينظر: خاص الخاص للثعالبي ص ٧٦، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ٣٠/١، وفي هذا المعنى يقول أبو فراس الحمداني (ديوانه ص٣): [مجزوء الكامل]

الشّعرُ دِيوانُ العَرَبْ ... أبدًا وعنوانُ النسبْ

لَمْ أعْدُ فِيهِ مَفَاخِري ... ومديحَ آبائي النجبْ

ومقطعاتٍ ربما ... حَلّيتُ مِنْهُنّ الكُتُبْ

لا في المديحِ ولا الهجا ... ءِ وَلا المُجُونِ وَلا اللّعِبْ

في الصِّـدْقِ، وكمـالَ التَّصويرِ في المطابقـةِ بالـمُصَوَّرِ، قالَ امْـرُؤُ القَيْسِ يصفُ حالتَهُ وأصحابَهُ بعدَ الصَّيدِ(١):

فَقُلْتُ لِفِتْيَـانٍ كِـرَامٍ أَلَا انْزِلُوا فَعَالُوا عَلَيْنَا فَضْلَ ثوْبٍ مُطنَّبِ(٢)

وَأَوْتـادُهُ مَـاذِيّـةٌ وَعِمَـادُهُ رُدَيْنِيَّـةٌ فِيْهَـا أَسِـنّـةُ قَعْضَبِ(٣)

وَأَطْنَابُـهُ أَشْـطَانُ خُـوْصٍ نَجَائِبٍ وَصَهْوَتُهُ مِـنْ أَتْحَمِيٍّ مُشَرْعَبِ(٤)

فَلَمَّـا دَخَلْنَـاهُ أَضَفْنَـا ظُهُورَنَـا إِلَى كُلِّ حَارِيٍّ جَـدِيْدٍ مُشَطَّبِ(٥)

نَمُـشُّ بِأَعْـرافِ الجِيـادِ أَكُفَّـنَا إذا نَحْنُ قُمْنا عَن شِواءٍ مُضَهَّبِ(٦)

لم يأخذْ من الأمورِ إلا كلَّ ما صوَّرَ لكَ الحالَ، وليسَ فيهِ غُلُوٌّ ولا تفريطٌ، فهذهِ الألفاظُ اليسيرةُ أخبرَتْكَ عن كلِّ ما اختصَّ بهمْ، فإنْ زادَ على ذلكَ كانَ سميجًا، وإن تركَ منهُ شيئًا كانَ التَّصويرُ ناقصًا.

---

(١) من الطويل، ديوان امرئ القيس ص٥٢- ٥٤ وفيه: وقلنا لفتيان...

(٢) فعالوا علينا؛ أظلونا بالثوب واسترونا به من حرِّ الشمس. مطنَّب: المشدود بالأطناب؛ أي حبال الخباء.

(٣) أي ربطوا أسفل الثوب بدروعهم، فأقاموها مقام أوتاد الخباء. والماذيَّة: الدِّرع الصافية اللينة. ردينية: رماح تنسب إلى ردينة، وهي امرأة كانت تبيع الرماح. قعضب: اسم رجل من بني قشير كان يعمل الأسنَّة، وقيل: هو زوج ردينة.

(٤) أطنابه أشطان خوص؛ أي أطناب هذا البيت حبال إبلهم. خوص: العيون الغائرة. صهوته: أعلاه. الأتحمي: ضرب من برود اليمن. المشرعب: المصنَّف.

(٥) حاري؛ أي منسوب إلى الحيرة، والمراد السيوف أو الرحال. المشطَّب: الذي فيه خطوط وطرائق كمدارج النمل. وشطب السيف: طرائقه.

(٦) نمشُّ: نمسح. مضهَّب: الذي لم ينضج جيداً بسبب العلجلة.

وقالَ امْرُؤُ القَيْسِ يصفُ راميًا[١]:

رُبَّ رامٍ مِـــن بنـــي ثُعَـــلٍ   مُتْلِـجٌ كَفَّيـهِ فِيْ قُتَـــرِهْ [٣٤][٢]

عَـارِضٍ زَوْراءَ مِـــنْ نَشَـــمٍ   غَيْـــــرِ بَانَـــــاةٍ عَلَى وَتَرِهْ[٣]

قَـــدْ أَتَتْـــهُ الـوَحْـــشُ وَارِدَةً   فَتَنَحّـى النّـزْعُ فِـيْ يَسَـرِهْ[٤]

فَـــرَمَـــاهَـــا فِـــيْ فَرَائِصَـها   بِـإِزَاءِ الحَـــوْضِ أوْ عُقَـرِهْ[٥]

بِــــرَهِيْـشٍ مِـــنْ كِنَانَتِـهِ   كَتَلَظّـي الجَمْـرِ فـي شَـرَرِهْ[٦]

رَاشَـــهُ مِـــنْ رِيْـشِ ناهِضـةٍ   ثُـمَّ أَمْهَـاهُ عَـــــلَى حَجَـرِهْ[٧]

فَهْـــوَ لَا تَنْـمِي رَمِيَّتُـــــهُ   مَـــا لَهُ لَا عُــدَّ مِـنْ نَفَـرِهْ[٨]

---

(١) من المديد لامرئ القيس في ديوانه ص١٢٣-١٢٦

(٢) بنو ثعل: قبيلة من طيئ. متلج كفيه؛ أي يدخل كفيه. القُتَرَ: بيوت الصائد التي يكمن فيها؛ لئلا يفطِن له الصيد، فينفر منه.

(٣) عارض؛ أي هذا الرامي عرض هذه الزوراء، وهي القوس المائلة الجوانب؛ ليرمي بها. غير باناة؛ أي غير باينة، ثم قلبه فصار غير بانية، ثم قلب كسرة النون فتحة، فانقلبت الياء ألفًا، وهذه لغة في طيئ.

(٤) تنحّى النزع؛ أي تحرَّف حيال وجهه. والنزع: مدُّ اليد في الرَّمي. في يسره؛ أي قبالة وجهه وجبهته.

(٥) رماها في فرائصها: وصفه بالحِذق في الرمي. الفرائص: جمع فريصة، وهي بَضْعَةٌ في مرجِع الكتف تتَّصلُ بالفؤاد، وهي مقتلٌ. والإزاء: مهراق الدَّلْوِ ومصبّها من الحوض. وعقر الحوض: مُقام الشاربة، وهي موضع أخفاف الإبل عند الورود.

(٦) الرهيش: السهم الخفيف. الكنانة: مثل الجعبة للسهام.

(٧) راشه من ريش ناهضة؛ أي جعل للسهم ريشا من ريش فرخ من فراخ النسور أو العِقبان حين نهض. والتاء في «ناهضة» للمبالغة على حدّ علَّمة ونسَّابة. أمهاه: أَرَقَّهُ وحدَّده.

(٨) لا تنمي رميّته: لا تنهض بالسهم وتغيب عنه، بل تصيب مكانها. لا عُدَّ من نفره: دعاء على سبيل التعجب كما تقول لشخص: قبَّحه الله، ما أسرع جوابه!

مُطْعَـــمٌ لِلصَّيْـدِ لَيْـسَ لَـهُ غَيْرَهَـا كَسْـبٌ عَلَـى كِبَـرِهْ[١]

في عَجُـرِ البيتِ الخامسِ تشـبيهٌ حسَـنٌ، ولكـنَّ المرادَ ههنَـا غيرُ ذلكَ العَجُرِ، انظرْ كيفَ يُعطيكَ خصائصَ الحكايةِ، وكلُّ أمرٍ يجعلُ البيانَ عِيَانًا. قالَ امْرُؤُ القَيْسِ يصفُ حالةَ السُّكْرِ[٢]:

وَنَشْرُبُ حَتَّى نَحْسِبَ الخَيْلَ حَوْلَنَا نِقَادًا وَحَتَّى نَحْسِـبَ الجَوْنَ أَشْقَرَا

لم يخترْ من تبدُّلِ الأشياءِ على حواسِّهِ بعدَ السُّكرِ إلا ما كانَ يقعُ له ولقومهِ، وفي حُسْنِ بيانهِ وتصويرِ حالهِ. قالَ امْرُؤُ القَيْسِ يصفُ سَكْرةَ الموتِ[٣]:

كَأَنَّ الفَـتَى لَمْ يَغْنَ فِي النَّاسِ لَيْلةً إِذَا اخْتَلَفَ اللَّحْيانِ عِنْدَ الجَرِيْضِ

فهذا اختلافُ «اللَّحيانِ»[٤] أقربُ شيءٍ لتصويرِ الموتِ كأنَّكَ ترى الميِّتَ تفيضُ نفسُهُ. قالَ الحاتمُ الطَّائِيُّ يُصوِّرُ سخاءَهُ وَحُكْمَهُ على أموالهِ[٥]:

فَقِدْمًا عَصَيتُ العَاذِلَاتِ وَسُلِّطَتْ عَلَى مُصْطـفَى مَالِي أَنَامِـلِيَ العَشْرُ

---

(١) مطعمٌ للصيد؛ أي لا يكادُ سهمُهُ يخطئُ صيدَهُ.

(٢) من الطويل، ديوان امرئ القيس: ص٧١. النقاد: غنمٌ صغار. الجون: من ألفاظ الأضداد يدلُّ على الأبيض والأسود.

(٣) من البحر الطويل، ديوان امرئ القيس: ص٧٧. الرواية فيه: ساعة بدل ليلة.
والجريضُ: اختلاف الفكين عند الموتِ. وقولهم: حال الجريضُ دون القريضِ، قيل: الجريضُ هو الغُصَّةُ، والقريضُ هو الجِرَّةُ، وضَرِجَت الناقةُ بجرَّتها وجرضت، وقيل: الجريضُ الغَصَصُ، والقريضُ الشِّعرُ. وقال الرياشي: القريضُ والجريضُ يحدثان بالإنسان عند الموت، فالجريض تبلُّعُ الرِّيق، والقريضُ صوت الإنسان. لسان العرب (جرض).

(٤) رفع الكلمة على الحكاية.

(٥) من البحر الطويل، لحاتم الطائي في ديوانه ص ٢٠٣

انظرْ كيفَ صوَّرَ كمالَ التصرُّفِ والحُكْمِ على شيءٍ بتصويرِ القبْضِ بأناملهِ العشْرِ. [٣٥] قالَ الحاتمُ يُصوِّرُ قِلَّةَ غَناءِ المالِ عن صاحبهِ الذي لا بُدَّ تاركُهُ[١]:

أَمـاوِيَّ مَا يُغْنِي الـثَّرَاءُ عَنِ الفَتى ... إِذا حَشْرَجَتْ نَفْسٌ وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

إِذَا أَنَـا دَلّانِـي الّذِيْـنَ أُحِبُّهُــمْ ... لِمَلْحُـودَةٍ زَلْـجٍ، جَوَانِبُهَـا غُبْرُ[٢]

وَرَاحُـوْا عِجَالًا يَنْفُضُـوْنَ أَكُفَّهُمْ ... يَقُوْلُوْنَ قَدْ دَمّى أَنَــامِلَنَـا الحَفْرُ

تَـرَى أَنّ مَا أَهْلَكْتُ لَمْ يَكُ ضَرّنِي ... وَأَنّ يَـدِي مِمّـا بَخِلْـتُ بِـهِ صِفْرُ

فَهُهَنا صوَّرَ حالَ الموتِ والخُذلانِ كأنَّكَ ترى الذي يُدفَنُ ويُخذَلُ، وفي هذهِ الأشعارِ حركاتٌ مُحَاكيةٌ. قالَ قَيْسُ بنُ الخَطِيْمِ الجاهِلِيُّ يصفُ طَعْنةً واسعةً[٣]:

طَعَنْتُ ابنَ عَبْدِ القيْسِ طَعْنَةَ ثَائِرٍ ... لَهَـا نَفَذٌ لَوْلَا الشّـعَاعُ أضَاءَهَا[٤]

مَلَكْتُ بِهَـا كَفّي فَأَنْهَـرْتُ فَتْقهَا ... يَـرَى قَــائِمٌ مِنْ دُوْنِهَا مَا وَرَاءَهَا[٥]

فقدْ صوَّرَ لكَ سَعةَ الجراحةِ، وما شبَّهَ شيئًا بشيءٍ، وانظرْ إلى إصابتهِ التَّخيُّلَ، فلمْ يترُكْ من التَّصويرِ ظاهرًا وباطنًا، أظهرَ باعثَ الطَّعْنةِ وحالةَ الكفِّ وحركتَها، ثُمَّ صوَّرَ النَّفَذَ، وجلَّى شكَّ مُرْتَابٍ بأن استدركَ قولَهُ: «لها نَفَذٌ» بأنَّ المتطايرَ من الدَّمِ وهُدَّابِ اللَّحمِ سدَّ النَّفَذَ، ولا تظنَّ قولَهُ: «ثائر» يُظهِرُ التَّشبيهَ،

---

(١) من البحر الطويل، لحاتم الطائي في ديوانه ص١٩٩-٢٠١

(٢) ملحودة؛ أي حفرة لها لحد. زلج؛ أي ملساء لا تثبت فيها القدَمُ.

(٣) من الطويل، ديوان قيس بن الخطيم ص٤٦

(٤) لها نفذ؛ أي نفذت. الشُّعاع: حمرة الدم. ويروى: الشَّعاع، بفتح الشين، ومعناه انتشار الدم.

(٥) ملكت: شددت. أنهرت: أجريتُ الدَّم.

فإنَّهُ أرادَ بـ«ثائرٍ» نفسَهُ، فهو بيانُ حالتهِ، فإنَّهُ يقولُ بعدَ هذهِ الأشعارِ(١):

ثَـأَرْتُ عَدِيًّا وَالخَطِيمَ فَلَمْ أُضِع   وِلَايَةَ أَشْـيَـاخٍ جُعِلْتُ إِزَاءَهَا

فإنْ تجدْ في الشِّعرِ حِسًّا فهوَ ليسَ إلَّا من جهةِ الصِّدقِ وقيامِهِ على حدِّ الحقيقةِ. قالَ امْرُؤُ القَيْسِ يَذكُرُ حُزنَهُ حينَ أَتى ديارَ الأحبَّةِ، وقدْ أقفرَتْ عنهمْ(٢):

غَشِـيْتُ دِيَـارَ الـحَيِّ بِالبَكَـرَاتِ   فَعَارِمَــةٍ فَبُرْقَــةِ العِـيَرَاتِ(٣)

فَغُـوْلٍ فَحِلِّيْـتٍ فَأَكْنَــافِ مُنْعِجٍ   إِلَى عَاقِلٍ فَالجُبِّ ذِي الأَمَرَاتِ[٣٦](٤)

ظَلِلْـتُ رِدَائِي فَـوْقَ رَأْسِيَ قَاعِـدًا   أَعُـدُّ الحَصَى مَـا تَنقَـضِي عَبَرَاتي

فانظرْ كيفَ صوَّرَ لكَ الأمكنةَ، وهذا أمرٌ شائعٌ فيهمْ، ثُمَّ انظرْ كيفَ صوَّرَ لكَ حالتَهُ في الحُزنِ، ومحاسنُ التَّصويرِ لا تحتاجُ الشَّرحَ، وما علمتُ أحدًا جاءَ بتصويرِ الباكي يكونُ مثلَهُ، وقدْ ذهبُوا فيهِ كلَّ مذْهبٍ. قالَ امْرُؤُ القَيْسِ يصفُ مرضَهُ، ويذكُرُ أوانَ الصِّحَّةِ والشَّبابِ(٥):

فَإِمَّـا تَرَيْنِـي لَا أُغَمِّـضُ سَـاعَةً   مِـنَ اللَّيْـلِ إِلَّا أَنْ أُكِـبَّ فَأَنْعَسَـا

---

(١) من الطويل، ديوان قيس بن الخطيم: ص٤٣. والرواية فيه: ولاية أشياخ.

(٢) من الطويل، ديوان امرئ القيس ص٧٨.

(٣) البَكَرات: جبال صغيرة بطريق مكة كأنها شُبِّهت بالبكرات من الإبل. عارمة: اسم موضع. والبُرقة: أرض فيها حجارة ورملٌ. العِيَرَاتُ: مواضع الأعيار، جمع عير، وهو الحمار الوحشي.

(٤) روايته في الديوان: فغولٍ فحلِّيتٍ فَنَفْءٍ فمنعِجٍ.... وهذه كلها أسماء مواضع. عاقل: اسم جبل صغير. الأمرات: الأعلام، واحدها أَمَرَة، وهي الجبل الصغيرُ.

(٥) من الطويل، ديوان امرئ القيس ص١٠٥-١٠٧.

فَيـا رُبَّ مَكـرُوبٍ كَـرَرْتُ وَرَاءَهُ ... وَطَاعَنْتُ عَنْهُ الخَيْلَ حَتَّى تَنَفَّسِا

وَيَـا رُبَّ يَـوْمٍ قَـدْ أَرُوْحُ مُرَجَّـلا ... حَبِيْبًا إِلَى البِيْضِ الكَوَاعِبِ أَمْلَسَا[١]

وَمَا خِفْـتُ تَبْرِيْحَ الحَيَاةِ كَمَا أَرَى ... تَضِيْـقُ ذِرَاعِي أَنْ أَقُـوْمَ فَأَلبَسَـا

تأمَّلْ كيفَ صوَّرَ حالتَي المرضِ ونعمةِ الشَّبابِ، وذكرَ من الحالتَينِ أمرَيْنِ، وجمعَ فيهما كلَّ ما يُخبِرُ عنْ كثيرٍ وراءَها لم يُذكَرْ، ثُمَّ ليسَ في الشِّعرِ إلا بيانُ الحالة من غيرِ غُلُوٍّ. قالَ الحاتمُ يُصوِّرُ الشِّتاءَ، ولهم فيهِ مذاهبُ شتَّى مِن تصويرِ شِدَّةِ الرِّيحِ وشِدَّةِ القَرِّ وتساقُطِ أوراقِ الشَّجرِ وشُحِّ النَّاسِ وشقائِهِم[٢]:

وَإِنِّي لَيَغْـشَى أَبْعَـدُ الـحَيِّ جَفْنَتِي ... إِذَا وَرَقُ الطَّلْـحِ الطِّـوَال تَحَـسَّرا

فقولُهُ: «إذا ورقُ الطَّلحِ الطِّوَال تحسَّرا» صوَّرَ لكَ الشِّتاءَ كأنَّكَ تراهُ عِيانًا. قالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبْي سُلْمَى يُصوِّرُ ثغرًا مَخُوفًا في وصفِ هَرِمٍ[٣]:

وَإِنْ سُـــدَّتْ بِـهِ لهَـــوَاتُ ثَغْـرٍ ... يُشَـــارُ إِلَيْـهِ، جَانِبُـهُ سَـقِيْمُ[٤]

مَخُـوْفٍ بَأْسُـهُ يَكْـلَاكَ مِنْـهُ ... عَتِيْـــــقٌ لَا أَلَفُّ وَلَا سَـؤُوْمُ[٥]

فقولُهُ «يُشارُ إليهِ» زادَ على صفةِ «جانبُهُ سقيمُ» بما صوَّرَ لكَ النَّاسَ يُشيرُونَ

---

(١) المرجَّل: المسرَّح الجمَّة المدهونها. أملس؛ أي أنه شاب ناعمٌ، وقيل: هو الخميص البطن، وقيل: النقي من العيوب.

(٢) من الطويل، ديوان حاتم الطائي ص٢٥٦. الجفنة: القصعة الكبيرة. الطلح: شجر شوكي له ساق عظيمة وأغصان طويلة، والمراد بسقوط ورقه الكناية عن الجفاف والمحل وقلة الزاد.

(٣) من الوافر، شرح شعر زهير بن أبي سلمى ص١٥٤. ورواية الديوان: متى تسدُدْ...

(٤) لهوات: جمع لهاةٍ. جانبُهُ سقيمٌ؛ أي مُخَوفٌ يخشى القومُ أن يُؤتوا منه.

(٥) مخوف: صفة لثغر. يكلأك: يحفظك. لا ألفُّ؛ أي لا ضعيف الرأي ثقيل. سؤوم: ملول.

إليهِ بأيديهم، [٣٧] فجعلَ القولَ فعلًا مُحاكيًا. وقالَ يفتخرُ بمقامٍ منيعٍ لقومِهِ[١]:

أَلَا أَبْلِـغْ لَدَيْـكَ بَنِـي تَمِيْـمٍ وَقَدْ يَأْتِيْـكَ بِالخَبَـرِ الظَّنُونُ[٢]

بِـأَنَّ بُيُوْتَنَـا بِمَحَـلِّ حَجْـرٍ بِكُـلِّ قَـرَارَةٍ مِنْهَـا نَكُـوْنُ[٣]

إِلَـى قَلَهَـى تَكُـوْنُ الـدَّارُ مِنّـا إِلَى أَكْنَـافِ دَوْمَـةَ فَالحَجُوْنُ[٤]

بِأَوْدِيَـةٍ أَسَـافِلُهُـنَّ رَوْضٌ وَأَعْلَاهَـا إِذَا خِفْنَـا حُصُـوْنُ

نَحُـلُّ سُـهُوْلَهَا فَـإِذَا فَزِعْنَـا جَـرَى مِنْهُـنَّ بِالآصَـالِ عُـوْنُ[٥]

بِكُـلِّ طُوَالَـةٍ وَأَقَـبَّ نَهْـدٍ مَرَاكِلُهَـا مِـنَ التَّعْـدَاءِ جُـوْنُ[٦]

تُضَمَّـرُ بِالأَصَائِـلِ كُلَّ يَـوْمٍ تُسَـنُّ عَلَى سَـنَابِكِهَا القُرُوْنُ[٧]

وقالَ زُهَيْرٌ يصفُ الحمارَ حينَ أَلقَى وبَرَهُ في آخرِ الصيفِ، فزادَ في التَّشبيهِ

---

(١) من الوافر، شرح شعر زهير بن أبي سلمى ص١٣٩

(٢) رواية الديوان: وقد يأتيك بالنُّصحِ الظَّنونُ. الظَّنون: كثير الظن الذي لا يوثق بما عنده ولا يكادُ يصدقُ في خبرٍ.

(٣) حَجْر: في شِقِّ الحجازِ. والقرارة: مستقرُّ الماء في الوادي. منها نكون؛ أي هي دارنا.

(٤) قلَهى: اسم موضع. الحجون: موضع بمكة. دومة: هي دومة الجندل تقع بين الحجاز والشام. أكنافها: نواحيها.

(٥) الآصال: جمع أصيل، وقت الغروب، وذهب الأصمعي إلى أن الرواية: بالأصلاء، وهي مواضع. عونٌ: هي الحميرُ، واستعارها هنا، وجعلها بمنزلة الخيل.

(٦) أقبّ: ضامر البطن. نهْد: ضخْمٌ. التعداء: العَدْوُ. المراكل: حيث يركل الفارس برجله. جونٌ: من ألفاظ الأضداد الدالة على البياض والسواد، والمراد في البيت اللَّونُ الأسود.

(٧) روايته في الديوان: نُعوِّدها الطِّراد، فكلَّ يومٍ .... مع الإشارة إلى الرواية المذكورة هنا. سنابكها: مقدَّم الحوافر. القرون: جمعُ قرنٍ.

كلمةً لا حاجةَ إليها إلَّا للتَّصويرِ، كأنَّهُ يُمثِّلُ الـمُشَبَّهَ بهِ بينَ يديكَ[(١)]:

فَـآضَ كَأَنَّـهُ رَجُـلٌ سَـلِيْبٌ   على عَلْيَـاءَ لَيْـسَ لَهُ رِدَاءُ

ومِثلُهُ قولُ امْرِئِ القَيْسِ[(٢)]:

لَهَـا مَتْنَـتـانِ خَظَاتَـا كَمَـا   أَكَـبَّ على سـاعِدَيْهِ النَّمِـرْ

فصوَّرَ جانبَي المتنِ بساعدَي النَّمرِ، ولكنْ بقوله: «أكبَّ على ساعديهِ» أَكملَ التَّصويرَ. قالَ النَّابِغةُ يصفُ بخيلا[(٣)]:

قَــذَاهَـا أَنَّ صَاحِبَهـا بَخِيْـلٌ   يُحَاسِـبُ نَفْسَـهُ بِكَمِ اشْتَرَاهَا

ما أقربَ هذا تصويرًا للبخيلِ، فإنَّهُ لا يزالُ يتحسَّرُ على ما أنفقَ في اشتراءِ شيءٍ، فلا يزالُ يُحاسِبُ نفسَهُ، ويذكرُ مقدارَ المالِ الـمُنْسَلِّ من يدَيهِ [٣٨].

---

(١) من الوافر، شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ص٦٣. آض: رجع. سليب: عُريان. علياء: مكان مرتفع.

(٢) من المتقارب، ديوان امرئ القيس ص١٦٤. متنتان: مثنى متنة، يقال: متن ومتنة، مثل منزل ومنزلة. خظاتان: مكتنزتان، وأراد بذلك الصَّلابةَ لا كثرةَ اللَّحمِ، وقد حذفت نون المثنى للضرورة، وقيل غير ذلك. ينظر: ضرائر الشعر ص٤٩، وشرح أبيات المغني ٢١٤/٤، وخزانة الأدب ٥٠٠/٧

(٣) من الوافر، ينسب للنابغة الذبياني، وليس في ديوانه، وهو بيت مفرد له قصة: روى الأصمعي أن أول ما تكلم به النابغة من الشعر أنه حضر مع عمه عند رجل، وكان عمه يشاهد به الناس ويخاف أن يكون عيّيًا، فوضع الرجل كأسًا في يده، وقال: [الوافر]

تطيـبُ كؤوسُـنا لـولا قذاهـا   ويحتمـلُ الجليـسُ علـى أذاها

فقال النابغة: [الوافر]

قذاهـا أنّ صاحبَهـــا بخيـــلٌ   يحاسـبُ نفسَـهُ بكـم اشـتراها

ينظر: شرح شواهد المغني ٨٠/١

يصفُ النَّابِغةُ الذُّبْيانِيُّ قانِصًا، وأخذتُهُ من تصويرِ الصَّيدِ، وهو طويلٌ عريضٌ[١]:

أَهْـوَى لَهُ قَانِـصٌ يَسْـعَى بِأَكْلُبِـهِ عَارِي الأَشَاجِعِ مِنْ قُنَّاصِ أَنْمَارِ[٢]

مُحَالِفُ الصَّيْـدِ هَبَّـــاشٌ لَهُ لَحَمٌ مَـا إِنْ عَلَيْهِ ثِيَابٌ غَـيْرُ أَطْمَارِ[٣]

يَسْـعَى بِغُضْفٍ بَرَاهَا فَـهْيَ طَاوِيَةٌ طُـوْلُ ارْتِحَـالٍ بِهَا مِنْهُ وَتَسْـيَارِ[٤]

حَـتَّى إِذَا الثَّوْرُ بَعْدَ النَّفـرِ أَمْكَنَهُ أَشْلَى وَأَرْسَـلَ غُضْفًا كُلُّهَا ضَارِ[٥]

فصوَّرَ لكَ ظاهرَ أمورِ الصَّيدِ وباطنَهُ ممَّا تراهُ عِيانًا وممَّا تفهمُهُ. قالَ عَمْرُو بنُ قَمِيْئَةَ يصفُ ضعفَهُ[٦]:

عَلَى الرّاحَتَيْنِ مَـرَّةً وَعَلَى العَصَا أَنُـوْءُ ثَلَاثًـا بَعْدَهُـنَّ قِيَـامي

* * *

(١) من البسيط، ديوان النابغة الذبياني ص٢٠٣

(٢) أهوى له: انقضَّ عليه. عاري الأشاجع: قليل لحم اليد، وهي صفة محمودة في الرجال، وكان يقال لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: عاري الأشاجع. أنمار: اسم قبيلة مشهورة بالصيد.

(٣) هبَّاش: كثير الهبش، وهو الكسب. الأطمار: جمع طِمْر، وهو الثوب الخَلِقُ البالي.

(٤) الغُضف: جمع أغضف، وهو اللين الناعمُ، من الغضف في الأذن؛ أي الاسترخاء، وأراد بالغضف كلابَ الصيد. طاوية: جائعة. براها: أضرَّها.

(٥) النّفر: العدو. أشلى: دعا كلابه للصيد. الضاري: المعتاد على الصيد.

(٦) من الطويل، ديوان عمرو بن قميئة ص٤٥. وأنوء ثلاثًا؛ أي أنهض ثلاث مرات بانحناء، ثم أستقيم.

فَصْلٌ
في تَصوير الشَّيءِ بالتَّشبيهِ والاستعارةِ والتَّمثيلِ والمَجازِ

بعدَما تبيَّنَ لك مِن الأمثلةِ السّابقة أنَّ التَّصويرَ غيرُ محصورٍ في التَّشبيه، وله طرقٌ كثيرةٌ، فلا بأسَ أنْ نذكرَ الآنَ بعضَ الأمثلة للتَّشبيه الحَسَنِ. والغرضُ مِن ذلك أنْ يتَّضحَ لك أنَّ حُسْنَ التَّشبيه في الصِّدقِ والمُطابقةِ، وأنَّ نَظَرَنا إلى التّشبيهِ ليسَ إلّا مِن جهة البلاغِ، وأنَّ مَيْلَ الطَّبعِ إلى التَّشبيهِ ليس إلَّا من هذه الجهةِ، وجعلَهُ اللهُ تعالى في فطرة الطَّبائِع.

فإذا نَظَرْنا إلى التَّشبيه[1] [٣٩] وصِنْوَيهِ الاستعارةِ والمجازِ من جهةِ البلاغِ

(١) جاء على حاشية الأصل: تذكرةٌ (التَّشبيهُ): اعلمْ أنّ للتشبيه أمورًا مشتركةً بين جميع الألسنة، وأمورًا غيرَ مشتركةٍ، وذلك أسلوبٌ واسع، فنذكر منه ما كان للعرب:
أ ـ فمنها تفصيلُ المُشبَّه به، فيتجلَّى، ويمكثَ في الخيال، ويُصوَّر في أكمل صورته، وهذا كثيرٌ في كلامهم.
ب ـ ومنها جمْعُ التشبيهات الكثيرة، كما ترى في قصيدة زهير، حيثُ شبَّه الحربَ بأمور عديدة.
ت ـ ومنها تصريحٌ بالتشبيه.
ث ـ ومنها كنايةٌ على وَفق الاستعارة.
ج ـ ومنها التَّمثيلُ، وهو تشبيهٌ مركّب، فيشبّه الشَّيءَ بالشَّيءِ، من حيثُ المجموعُ.

اختلفَ بحثُنا عمَّا يكونُ لمن ينظرُ إليه مِن جهة اللَّذَّة، كما يختلفُ نظرُ الطَّبيبِ إلى الطَّعامِ مِن نظرِ الطّبَّاخ. فلا ننظرُ إليه مِن حيثُ النُّدْرةُ، وإنْ كانتِ النُّدرةُ ممَّا تُستلَذُّ، مثلُ تشبيهِ المُشركِ في التَّوراة بالفاجِرة، وتشبيهِ المصطفى بآدمَ، وداؤود وعيسى بِبِكْرِ الأبناء، والعبدِ الطَّائعِ البارِّ بالابنِ، ورحمةِ الرَّبِّ بِتَحْنانِ الأمِّ، والرَّبِّ الوَدودِ بالأبِ[١]. وقال المسيحُ عليه السّلامُ: «اللَّفظُ يُهْلِكُ والمعنى يُحْيي»[٢]، فلو بحث أهلُ العلم عن أصولِ التَّأديةِ وجِهاتِ الصِّدقِ في التَّشبيه لكانَ للنَّاسِ نورٌ عن هذه الصِّناعة، ولم يَضِلُّوا.

فاعلمْ أنَّ المثالَ[٣] والتَّشبيهَ والاستعارةَ والمجازَ تأتي بما يُفصِحُ عن صفةٍ مِن غيرِ جَعْلِ الشَّيءِ شيئًا آخرَ. فلا بدّ مِن مغايرةٍ بين المشبَّهِ والمشبَّهِ به، وإلّا جعلُوهما شيئًا واحدًا؛ ولذلك يجبُ التَّميزُ في مثل قولِكَ: السُّكَّرُ كالمِلْحِ لونًا؛ ولذلك ترى عيسى مُنِعَ عن إشاعةِ دينِهِ بينَ الوَثنيِّينَ؛ لأنَّ المُغايرةَ بينَ الخالقِ والمخلوقِ لم تكن واضحةً عندَهم، فتراهم ضَلُّوا ببعضِ كلماتِ التَّوراةِ وتشبيهاتِهِ، ولم تَضِلَّ اليهودُ كضَلالتِهم. فلا يُضِلَّنَّك ما قال صاحبُ «أسرار البلاغة»: إنَّ المغايرةَ بينَ المشبّهِ والمشبَّهِ به لازمةٌ لأجلِ الحُسن[٤]. فإنَّه لم يدرِ

(١) لم نقف على هذه التشبيهات في العهد القديم.

(٢) لم نقف على هذه التشبيهات في العهد القديم.

(٣) يقصد به التمثيل، وهو مصطلح بلاغي مشهور.

(٤) يركز عبد القاهر الجرجاني في نظريته (المعنى ومعنى المعنى أو المعاني الأول والمعاني الثواني) على الطابع التحسيني للاستعارة والكناية والمجاز والتمثيل والتشبيه؛ يقول:» فالمعاني الأُوَل المفهومةُ من أنْفُس الألفاظِ هي المَعارِضُ والوشْيُ والحَلْيُ وأشباهُ ذلكَ،والمعاني =

كُنْهَهُ، فلو كان نظرُهُ من جهةِ التَّأديةِ لَظهرَ عليه الوجهُ الصَّحيحُ.

وأمَّا حديثُ اللَّذَّةِ فكما بيَّنْتُ في أمرِ النُّطقِ أنَّ الطَّبعَ مُشتاقٌ إلى العلمِ والإعلامِ بإبرازِ ما استكنَّ فيه، وإعمالِ القُوى المُستودَعةِ فيه. والتّشبيهُ أوَّلُ قُوى العقلِ؛ لأنَّهُ يَنتزِعُ من أفرادِ المحسوساتِ صفاتٍ عامّةً، منها تلمعُ لمحاتُ التَّشبيهِ، ثُمَّ قُوى التَّخيُّلِ تفعلُ فيه؛ ولذلك ترى الصِّبيانَ والنِّساءَ أوَلَعَهُم بالتَّشبيهِ والمجازِ؛ لِغَلبةِ التَّخيُّلِ فيهم، ثُمَّ النُّطقُ؛ أي الإعلامُ يستخدمُهُ لتصويرِ المُبهمِ إيضاحًا، وللإثباتِ تمثيلًا، ولِحُسنِ الأداءِ إيجازًا، ولِتحسينِ الشَّيءِ أو تقبيحِهِ مَدحًا أو ذَمًّا.

والآنَ نُوردُ عليك بالأمثلة للتَّشبيه الصَّادقِ المُصوِّرِ، ثمّ نُتْبعُهُ بما ضَلَّ فيه المُتأخِّرونَ؛ لكي نُحذِّرَكَ منه. [٤٠] قال زهيرُ بنُ أبي سُلمى:[١]

تُطالِعُنا خَيالاتٌ لِسَلمى   كَما يَتَطَلَّعُ الدَّينَ الغَرِيمُ

عَبيدُ بن الأبرص شبَّه طيِّبَ الكلامِ بالغَيث:[٢]

القائلُ القَولَ الذي مِثْلُهُ   يَمْرَعُ منه البَلدُ المَاحِلُ

النّابغة الذُّبيانيُّ يُشبِّه الرِّكابَ بالسَّفين:[٣]

كأنَّ الظُّعْنَ حينَ طَفوْنَ ظُهْرًا   سَفينُ البَحرِ يَمَّمْنَ القَرَاحَا

= الثَّواني التي يُومَأُ إليها بتلكَ المعاني، هي التي تُكْسَى تلك المعارضَ، وتُزيَّنُ بذلك الوشي والحلي». دلائل الإعجاز ص٢٦٤

(١) من الوافر، شرحُ شعر زهير بن أبي سُلمى ص١٥٣.

(٢) من السريع، ديوان عبيد بن الأبرص ص٩٤. وقد سبق تخريجه والتعليق عليه.

(٣) من الوافر، ديوان النّابغة الذبيانيّ ص٢١٣. وفيه: «الشِّحْر»، وهو موضعٌ، بدل «البَحر».

وهذا التَّشبيهُ شائعٌ عندَهم. يصفُ النّابغةُ الذُّبْيانيُّ ثورًا في بياضِ لونِه وسُرعة فِرارِه[١]:

انقضَّ كالكَوكبِ الدُّرِّيِّ مُنْصَلِتًا يَهوِي ويَخلِطُ تَقريبًا بإحضارِ

عنترةُ العبسيُّ يصفُ الحربَ، وفيه التَّشبيهُ والتَّصويرُ مِن غيرِ التَّشبيهِ:[٢]

إذا ما مَشَوا في السَّابغاتِ حَسِبْتَهُمْ سُيُولًا وقد جاشتْ بِهِنَّ الأباطحُ[٣]

فَأُشرِعَ راياتٌ وتحتَ ظلالِها مِن القومِ أبناءُ الحُروب المَراجِحُ

وَدُرْنا كما دارتْ على قُطْبِها الرَّحَى ودارتْ على هامِ الرِّجالِ الصَّفائحُ[٤]

بِهَاجِرةٍ حتّى تَغيَّبَ نُورُها وأقبلَ ليلٌ يَقبِضُ الطَّرفَ سائحُ[٥]

تَدَاعَى بَنو عَبْسٍ بكلِّ مهنَّدٍ حُسَامٍ يُزيلُ الهَامَ والصَّفُّ جانِحُ

وكُلُّ رُدَيْنِيٍّ كأنَّ سِنانَهُ شِهابٌ بَدَا في ظُلمة اللّيلِ واضِحُ

تَرَكْنا ضِرارًا بينَ عَانٍ مُكَبَّلٍ وبينَ قَتيلٍ غابَ عنهُ النَّوائحُ[٦]

وَعَمْرًا وَحَيَّانًا تركْنا بِقَفْرةٍ تَعُودُهما فيها الضِّباعُ الكَوالِحُ

---

(١) من البسيط، ديوان النابغة الذبياني ص٢٠٤.

(٢) من الطويل، ديوان عنترة ص٣٠٠- ٣٠٣.

وفي البيت الأخير: «سيوفنا» بدل «رماحنا»، و«فلّقته» بدل «فلّقتها»، ولعلّه خطأ طباعيّ.

(٣) السَّابغاتُ: الدَّروعُ. الأباطحُ: جمع أبطح، وهو مسيلٌ للماء في الوادي واسعٌ، فيه دقاق الحصى.

(٤) قطب الرحى: ما تدور عليه. الصَّفائح: السيوف.

(٥) الهاجرة: وقت الظهيرة، يريد قتلناهم في منتصف النهار ووضحه. السائح: المنبسط الظلمة المنتشر.

(٦) العاني: الأسير.

يُجَـرِّرْنَ هَامًـا فَلَّقَتْهـا رِماحُنـا تَزَيَّلَ مِنهُنَّ اللِّحَى والمَسائِحُ [٤١]

وهو أبدعَ في تشبيه السَّيفِ، ولم يبعُدْ عنِ الظَّاهر[١]:

وَسَـيْفِي كالعَقيقـةِ وَهْـوَ كِمْعِـي سـِلاحي لا أفَـلَّ ولا فُطَـارَا[٢]

وكالـوَرَقِ الخِفـافِ، وذاتُ غـربٍ تـرى فيها عـنِ الشّرَعِ ازوِرَارا[٣]

قال ذو الرُّمَّة يصفُ قُتُودَهُ فوقَ النّاقةِ[٤]:

كأنَّ قُتُـودي فوقَهـا عُـشُّ طائـرٍ على لِينَـةٍ سَـوقاءَ تَهفـو جُنُوبُهـا

قال أعرابيٌّ قَتَلَ أخوهُ ابنًا له خَطَأً[٥]:

أقـولُ للنَّفـسِ تَأْسَـاءً وتعزيـةً إحـدى يَـدَيَّ أصابتْـني ولـم تُرِدِ

كِلاهُمـا خَلَفٌ مِـنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ هذا أخي حينَ أدعُـوهُ وَذَا وَلَـدِي

قالت فاطمةُ بنتُ الأحجمِ بنِ دِنْدِنَةَ ـ وأمُّها خالدةُ بنتُ هاشمِ بنِ عبدِ مَنافٍ ـ[٦]:

كأنَّ عَيْـنِيَ لـمَّـا أنْ ذكرْتهُـمُ غُصْنٌ بَراحٌ مِـن الطَّرفاءِ مَمْطُورُ

---

(١) من الوافر، ديوان عنترة: ص٢٣٤- ٢٣٥.

(٢) العقيقة: القطعة من البرق، وقيل: سحابةٌ تنشق عن البرق. والكمع: الضَّجيع، يريد أن سيفي مضاجعي وملازم لي. لا أفلَّ؛ أي ليس به فلول. والفطار: التشقق.

(٣) يريد أن سهامه خفيفة كالورق. ذات غرب: القوس. غرب: حدٌّ. الشِّرع ـ بفتح الراء أو تسكينها ـ الأوتار، واحدتها شرعة. الازورار: الميلان.

(٤) من الطويل، ديوان ذي الرُّمَّة ص٦٩٩.

(٥) من البسيط، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص٢٠٧، وللتبريزي ص١٥٧.

(٦) من البسيط، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليّة والمخضرمين ٣٣١/٢. وفيه: «يُراحُ» بدل «براح».

لم أقفْ على تشبيهٍ أحسنَ مِن هذا في كَثْرةِ تقاطُر الدَّمعِ، والدَّمعُ قلَّما يجري؛ ولذلك شَبَّهتْهُ باللآلِ المتناثرةِ وقطَراتِ السَّحاب. ألا ترى امرأَ القيس كيف جمعَ أسماءَ المطرِ(١):

فَدَمعُهُمــا......سَــــحٌّ...   ....إلـخ

ولم يذهبْ مَذهبَ المـُتشاعِرِين مِن العجم الذين شبَّهوهُ كثيرًا بالنَّهر الجاري. ونِعِمّا صنعت خنساءُ حيثُ شبَّهتِ الدَّمعَ بالفيض. نبَّهتْ على أنَّ هذا الحالَ إذا كان على الخدَّينِ، فقالت(٢):

. . . .   فيضٌ يَسيلُ على الخَدَّينِ مِدْرارُ

قالت أمُّ صريع تَرثي قومَها(٣):

ولمـّا اكفهرَّتْ مِن عَلَيْهِم سَحابةٌ   إذا بَرَقَتْ بالموتِ أمطرتِ الدَّمَا

الموتُ: السَّيفُ. كما قالت خِرْنِقُ أختُ طَرَفَةَ:(٤)

ذاكَ وقِدْمًـا يُعجِلُ البـازلُ الـ   ـكَوماءَ بالموتِ كَشِبهِ الحَصِيرْ[٤٢]

---

(١) البيتُ بتمامه في ديوان امرئ القيس ص٨٨ [الطّويل]:

فَدَمْعُهُمـا سَـكْبٌ وَسَحٌّ ودِيمـةٌ   وَرَشٌّ وَتَـوْكافٌ وتَنهَمِـلانِ

(٢) من البسيط، ديوان الخنساء ص٣٧٨، وصدرُه: «كأنَّ عيني لِذِكراهُ إذا خطَرَتْ».

(٣) من الطويل، المنازل والديار ص٤٦٩-٤٧٠ ـ وفيه (أم الصريح)، ولعله تحريف ـ وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ص٩٧-٩٨.

(٤) من السريع، ديوان الخرنق ص٥٠. والكَوماء: النّاقة العظيمة السّنام الطّويلة. الحَصيرة: سقيفة تُصنع من «بُردي» و«أسَل» ثمّ تُفرش. ولعلّه يشبّه النّاقةَ بها في الضَّخامة.

قالت صفيَّةُ بنتُ عمرٍو ترثي أخاها، وفيها رواياتٌ أُخَرُ[١]:

كُنَّـا كغُصنَـينِ في جُرْثُومَةٍ بَسَـقَا ... حِينًا على خيرِ ما يُنمى له الشَّجَرُ[٢]

حتّى إذا قيلَ قـد طالتْ فُروعُهما ... وطابَ غرسُهما واستوسقَ الثَّمَرُ[٣]

أخنى على واحدٍ رَيْـبُ الزّمانِ وما ... يُبـقي الزّمـانُ على شيءٍ ولا يَـذَرُ

كُنَّـــا كأنْجُـمِ لَيــلٍ بينهمــا قمــرٌ ... يَجلو الدُّجى فهَوى مِن بيننا القمرُ

قال امرؤ القيس يصفُ جريَ الفَرس حين حَمِيَ في العَدْوِ[٤]:

إذا ما جَرَى شَـأْوَيْنِ وابْتَلَّ عِطْفُهُ ... تَقـولُ هزيـزَ الرِّيـحِ مَـرَّتْ بِأَثْأَبِ

قال الحاتمُ الطَّائِيُّ، وفيه تشبيهٌ ذو جهتين[٥]:

وَغَمْـرةِ مـوتٍ ليس فيهـا هَوادةٌ ... يكونُ صُدورَ المَشْرِفِيِّ جُسُورُها

فشبَّه حَدَّ السّيف بالجِسْر صُورةً ومعنًى. قال النَّابغةُ يصفُ الثَّورَ يَحفرُ كِنَاسَهُ في يوم الرِّيحِ، ويحمي وجهَهُ عن الرَّملِ المتطايرِ، وشبَّهَهُ بالحدَّادِ[٦]:

---

(١) من البسيط، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص٩٤٨، والأبيات الثلاثة الأولى في ديوان الخنساء ص٦٤ (تحقيق عمر فاروق الطباع).

(٢) في شرح الحماسة: سمقا. الجرثومة: أصل الشيء ومنبعه؛ أي كنا كفَنَنَين خرجا من أصل واحد، فنميا وطالا.

(٣) في شرح الحماسة: استُنظر الثمر؛ أي وجد ناضًرا غضًّا.

(٤) من الطويل، ديوان امرئ القيس ص٤٩. فاعل جرى ضمير يعود إلى الفرس. شأوين؛ أي طلقَين. ابتلَّ جانبه: عرقَ. تقولُ هنا بمعنى تظنُّ. هزيز الريح: صوتها. أثأب: شجرٌ يشبه الأثل، يشتدُّ صوتُ الريح فيه.

(٥) من الطويل، الطّائيّ، ديوان حاتم الطّائيّ ص٢٣٣. غمرة الموت: الحرب. والمشرفـيّ: السيف المنسوب إلى المشارف من أرض اليمن.

(٦) من البسيط، ديوان النابغة الذبياني ص٦٦. الهبرقـيّ: الحدّاد. تنحّى: تحرَّف روقاه: قرناه.

مُـوَلِّيَ الرِّيـحِ رَوْقَيْـهِ وجَبْهَتَـه كالهِـبْرِقِيِّ تَنَـحَّى يَنْفُـخُ الفَحَـما

ويصف شجرَ الأَسْتَنِ، وجاء بتشبيهٍ صورّ الشَّيءَ بتمامِهِ(١):

تَحِيـدُ عـن أَسْـتَنٍ سُـودٍ أسـافلُهُ مَشْيَ الإماءِ الغَوادي تَحمِلُ الحِزَما

اعترض الأصمعيُّ على قولِهِ: الإماءِ الغوادي، وقال: إنَّما تُوصَفُ الإماءُ بالرَّواحِ في هذا الموضعِ لا بالغُدوِّ، وأنشدَ: (٢)

................................كأنَّهـا إمـاءٌ تُـزَجَّى بالعَـشِيِّ حَوامِـلُ

وأخطأَ الأصمعيُّ، فإنَّ النَّابغةَ سمَّاهُنَّ الغَواديَ؛ لِبُكورِهِنَّ للاحتِطابِ، كما هي العادةُ، لا لرجوعِهِنَّ لتصويرِ عِظَمِ الحُزْمةِ. عنترة أجادَ في تشبيه مَن عَلِقَتْ به الأسِنَّةُ(٣) [٤٣]:

وغـادرْنَ نَضْلَـةَ فـي مَعـرَكٍ يَجُـرُّ الأَسِـنَّةَ كالـمُحتَطِـبْ

وهو يصفُ اللِّواءَ:

كتائبُ تُزْجَى فـوقَ كلِّ كَتيبةٍ لِوَاءٌ كَظِـلِّ الطّائرِ المُتقلِّبِ(٤)

(١) من البسيط، ديوان النابغة الذبياني ص٦٥. الأستن: شجرٌ سودٌ واحدتها أسْتنة، وقيل: ثمرة يقال لها: رؤوس الشياطين، وبه فسّر قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ * طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٥].

(٢) من الطويل، للأخنسِ بنِ شهابٍ، وصدرُه: «تُمَشّيِّ بها حُوْلُ النَّعام كأنّها»، ويروى: «حواطب بدل حوامل، وهو الصحيح؛ لأن القصيدة بائية. شرح الحماسة للتبريزي ص٤٨٤.

(٣) من المتقارب، ديوان عنترة ص٢٩٣. نضلة: هو نضلة الأسدي قتله ورد بن حابس. معرك: موضع القتال.

(٤) من الطويل، ديوان عنترة ص٢٧٩.

وهو يُشبِّه، ويُصوِّر:

فَمَالـتْ بِيَ الأهـواءُ حـتّى كأنّما بِزَنْدَيْنِ في جَوفي مِنَ الوَجْدِ قادِحُ[(١)]

وهو يجمعُ تشبيهَينِ، ويُشير إلى ذِلَّةِ أعدائِهِ:

حَلَفْنَـا لهم والخيلُ تَـردي بنا معًا نُزايلُكُـمْ حـتّى تَهـرُّوا العَواليَـا

عَـواليَ زُرْقًـا مِـن رمـاحِ رُدَينـةٍ هَريرَ الـكلابِ يتَّقينَ الأفاعِيَا[(٢)]

فإنْ تأمَّلْتَ في هذه التَّشبيهاتِ رأيتَ أنّها ما جاءَ بها الشَّاعرُ إلَّا لغرضِ تصويرِ الشَّيءِ، أو لأجل التَّرجمةِ مِن حاسَّةٍ إلى حاسَّةٍ، وكلُّ ما هو أشدُّ تصويرًا أو أطبقُ ترجمةً فذلك أحسنُها.

قولُه: «بزندين في جوفي من الوَجدِ قادحِ» ليس إلّا ليُصوِّرَ لك الشَّرارةَ. وكذلك قولُ عَبيد بنِ الأبرص:[(٣)]

بَرِمَـــتْ بنـــو أَسَـــدٍ كَمَا بَرِمَــتْ بِبَيْضَتِهــا الحَمَامَـهْ

جعلــتْ لهـا عُــودَيـنِ مِـن نَشَــمٍ وآخــرَ مــن ثُمَامَـهْ

---

(١) من الطويل، ديوان عنترة ص٢٩٨. وفيه: «قلبي» بدل «جوفي».

(٢) من الطويل، ديوان عنترة ص٢٢٤- ٢٢٥.

(٣) من مجزوء الكامل، ديوان عبيد بن الأبرص ص١٠٩. برمت: سئمت. وقد شبههم بالحمامة التي تنقل عشَّها من غصن إلى غصنٍ آخر، ويشير في البيت إلى المثل المضروب بخُرْقِ الحمامة؛ لأنها لا تُحكِمُ عشّها، وذلك أنها ربما جاءت إلى غصن شجرة، فبنت عشَّها في موضع تذهب به الريحُ وتجيءُ، فيضيع بيضها؛ لأن ما يتكسر منه أكثر ممَّا يسلم. والنّشَم: شجرٌ تُتّخذُ منه القِسيّ. والثُّمامة: نبتٌ ضعيف لا يطول. والمعنى كيف بنت هذه الحمامة عشَّها؟

فهل ترى كيف أحسنَ هذا التَّصويرَ. وقال نُصَيبٌ[١]:

كأنَّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغدَى ... بلَيْلَى العامريَّةِ أو يُراحُ

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ ... تُجاذِبُه وقد عَلِقَ الجَناحُ[٢]

لها فرخانِ قد تُرِكا بِوَكْرٍ ... فَعُشُّهُما تُصَفِّقُهُ الرِّياحُ

إذا سَمِعَا هُبوبَ الرِّيحِ نَصَّا ... وقد أودى به القَدَرُ المُتاحُ [٤٤]

فلا في اللَّيلِ نالتْ ما تُرَجِّي ... ولا في الصُّبحِ كانَ لها بَراحُ

وقرنْتُ بين المصوَّراتِ المحضِ وبين التَّشبيهاتِ؛ لترى المناسبةَ بينَهُما وقربَ أمرِهما.

وبعدَ ذلك من التَّشبيهاتِ ما لا يُرى كالتَّشبيهِ بادئَ بَدءٍ، ولكنَّه ليسَ إلّا التَّشبيهَ، وإذِ التَّفنُّنُ يُذهِبُ بالمَلالِ، فينبغي أن تعلمَ أنحاءَ التَّصويرِ فيه؛ لكيلا تذهبَ مذهبًا واحدًا. فمنه قولُ المُهلهلِ يرثي أخاهُ:[٣]

ولستُ بِخالعٍ دِرْعِي وَسَيفي ... إلى أن يَخلعَ اللَّيلَ النَّهارُ

فشبَّهَ اللَّيلَ باللِّباسِ على النَّهارِ، وشبَّهَ الدِّرعَ باللَّيلِ، وشبَّهَ لُزومَ السِّلاحِ بجسمِهِ بلزومِ اللَّيلِ بالنَّهارِ، وشبَّهَ جسمَهُ بالنَّهارِ لبياضِهِ. والأسلوبُ ليسَ بأسلوبِ التَّشبيهِ الظَّاهِرِ، بل هو ممَّا سَمَّوه المجازَ، ....

---

(١) من الوافر، شعر نُصيب بن رباح ص٧٤.

(٢) عزّها: حبسها. شَرك: فخٌّ.

(٣) من الوافر، ديوان مهلهل بن ربيعة ص٣٤.

ومن ذلك ما مَرَّ من قول عَبيد بنِ الأبرصِ[١]:

القائـلُ القَـولَ الذي مِثْلُـهُ يَمْرَعُ منـه البَـلدُ المَاحِـلُ

فشبَّهَ القولَ بالغيثِ بركةً بطريقِ الكنايةِ، وهذا تشبيهٌ عامٌّ في التَّوراةِ، وجاءَ في القرآنِ تشبيهًا واستدلالا[٢].

* * *

تَذكِرة

تشبيهٌ لتصوير أمرٍ مركَّبٍ مخلوطٍ، أحسن فيه العربُ وأجادوا، ولهم قَصَبُ السَّبْقِ؛ لِـمَا أنَّهم تجنَّبُوا الباطلَ الذي أوقعَ العجمَ فيه وُلوعُهُم بالتَّكلُّفِ والتَّصنُّعِ البادي قُبْحُهُ وشناعتُهُ، فَمِنه تَشبيهُهُم العَسْكَرَيْنِ عندَ اللِّقاء، فقال عبدُ الشّارِق الجُهَنيُّ[٣]:

فجـاؤوا عارضًـا بَـرِدًا وجئْنـا كَمِثْـلِ السَّـيلِ نَركَـبُ وازعينا

فَلمـّـا لـم نَـدَعْ قوسًـا وسَـهمًا مشَينا نحوَهم ومشَـوا إلينـا [٤٥]

تـــلألُؤَ مُزْنـةٍ بَرقَتْ لأُخرى إذا حجَـلوا بأسيــافٍ رَدَيْـنـا

قال معقل بن خويلد[٤]:

فجـاؤوا عارضًـا بَـرِدًا وجئْنـا كهيج الرِّيـح تقـذف بالغمامِ.

---

(١) من السريع، ديوان عبيد بن الأبرص ص٩٤. وقد سبق تخريجُهُ والتعليق عليه.

(٢) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

(٣) من الوافر، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص٤٤٥ و٤٤٧.

(٤) من الوافر، شرح أشعار الهذليين ص٣٧٩.

دلالة التَّشبيه

قيل: إنَّ التَّشبيهَ جلُّ محاسِنِ الشِّعرِ. قلْنا لـمـّا كانَ الكلامُ للتَّعليمِ وللتَّحريضِ وللحقِّ والباطلِ فَبِهِما انقسمَ[1] التَّشبيهُ إلى هذه الأقسامِ. فَمِنَ التَّعليمِ ما هو حقٌّ وما هو باطِلٌ، ومِنَ التَّحريضِ ما هو على الخيرِ وما هو على الشَّرِّ. فنحن نحكمُ على التَّشبيهِ أوَّلًا مِن هذه الوجوهِ، ثُمَّ يُحكمُ على التَّشبيهِ مِن إنجاحِ مقصدِ المتكلِّمِ، سواءٌ كان حَسَنًا أو قبيحًا، والنَّاسُ يَستجيدونَ التَّشبيهَ مِن هذه الجهةِ مَحْضًا، وهو لا يَصِحُّ إلَّا عندَ الغافِلينَ المـُغترِّين بالظّاهِرِ من الحياةِ الدُّنيا.

اعلمْ أنَّ الباعِثَ الأوَّلَ على التَّشبيهِ هو حِرْصُ النَّاطِقِ على إظهارِ ضميرِه واستعمالِ قوَّةِ النُّطقِ بقُوّةٍ؛ حتّى يجعلَ السَّامِعَ كأنَّه قد رأى وجرَّبَ، فتأثَّر به، فالنَّاطِقُ إنّما يُؤدِّي المعنى بأثرِهِ بما يَزيدُهُ وَضاحةً وأثرًا.

والباعِثُ الثّاني أنَّ النَّاطِقَ لا ينطِقُ لمحضِ الإظهارِ، ولكن ليؤثِّر [في][2] السَّامِعِ، ويحرِّكَه، ويجلبَ رغبتَه أو نَفْرتَه إلى محضِ السَّمعِ؛ ليُعجبَ نفسَهُ والنَّاسَ بنُطْقِهِ بالتَّصويرِ العجيبِ الحسَنِ النَّادِرِ، ويتوسَّلَ بذلك إلى أمورٍ أُخَرَ مِن جَلْبِ الصِّيتِ أو منافعَ أُخرَ.

---

(١) الأولى أن يكون التركيب: لما كان... انقسم بهما.

(٢) زيادة منّا تقتضيها الجملة.

والباعثُ الثَّالِثُ أن يتوسَّلَ بالتّشبيهِ إلى تقريرٍ أو تحريضٍ من جهتَينِ مختلفتَينِ:

الأُولى أنَّ الـمِثْلَ أشبهُ بأن يكونَ كمِثْلِهِ في أمورٍ أُخر.

والثّانية أنَّ الأمرَ العقليَّ والدَّعوى المجهولةَ إذا صُوِّرت محسوسةً أسرعَ الذّهنُ إلى التّأثُّرِ بها؛ لِفِطْرتِه بالتَّأثُّرِ للمحسوسِ وتعوُّدِهِ بذلك، كما ترى النَّاسَ يقرؤون القَصصَ المكذوبةَ، ويضحكون ويبكون، ويفرحون ويحزنون بها، مع علْمِهم بِكَذِبها. فالتَّشبيهُ إيضاحٌ وإعجابٌ [٤٦] وتقريرٌ وتأثيرٌ، وهذه الأمورُ تدخلُ في فوائِدِهِ ودلالتِهِ وإشاراتِهِ.

* * *

المَذهبُ الباطلُ في التَّشبيهِ

اعلم أنَّ المولَّدينَ زعموا أنَّ النُّدرةَ والبُعدَ في التَّشبيهِ مِن محاسِنِهِ، وقد أسهبَ الجرجانيُّ ـ رحمَهُ اللهُ ـ في إثبات ذلك، وجمعَ التَّشبيهاتِ الرّديئةَ. وإنَّا نوردُ عليك منها؛ لكي تُعمِلَ فيها ذوقَك، وتُبيِّنَ سَخافتَها(١) [٤٧].

---

(١) بياضٌ في الأصل. يريد الفراهي قول الجرجانيّ في تفضيل التباعد بين المشبّه والمشبّه به: «إذا استقريت التشبيهات وجدتَ التباعدَ بين الشيئين كلما كان أشدَّ كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوسُ لها أطرب، وكان مكانُها إلى أن تُحِدث الأريحيّة أقرب، وذلك أنّ موضعَ الاستحسان، ومكانَ الاستظراف، والمُثيرَ للدفين من الارتياح، والمتألِّفَ للنافر من المَسرة، والمؤلِّفَ لأطراف البَهْجة= أنك ترى بها الشيئين مِثْلَيْن متباينين، ومؤتلفين مختلفين، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض، وفي خِلقة الإنسان وخِلال الروض، وهكذا، طرائفَ تنثالُ عليك إذا فصّلتَ هذه الجملة، وتتبّعت هذه اللَّمحة، ولذلك تجد تشبيهَ البَنَفْسَج في قوله: [البسيط]

ولازَوَرْدِيّــةٌ تزهُــو بزُرقتهــا ... بيـن الرّياض على حُمْرِ اليواقيتِ

كأنّهـا فـوق قامـاتٍ ضَعُفـنَ بها ... أوائـلُ النـار في أطـراف كبريتِ

أغربَ وأعجبَ وأحقَّ بالوَلُوع وأجدرَ من تشبيه النرجس بمداهن دُرّ حشوهن عقيق، لأنه أراك شبهًا لنباتٍ غَضٍّ يَرِفُّ، وأوراقٍ رطبةٍ ترى الماءَ منها يشِفُّ، بلهَب نارٍ في جسمٍ مُسْتَوْلٍ عليه اليبسُ، وبَادٍ فيه الكَلَف. ومَبْنَى الطباع وموضوعُ الجِبِلَّة، على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يُعْهَد ظهوره منه، وخرج من موضعٍ ليس بمعدنٍ له، كانت صَبَابةُ النفوسِ به أكثر، وكان بالشَّغَف منها أجدر». ينظر: أسرار البلاغة ص١٣٠-١٣١.

وكذلك قوله في تفضيل الغرابة والنّدرة في التشبيه المفصّل الذي ينقسم إلى قسمين: «أحدهما أن يكون شيئًا يُقدّره المشبِّه، ويَضَعَه، ولا يكون، ومثال ذلك تشبيهُ النّرجس=

....

= بمداهن دُرٍّ حشوهُنَّ عقيقٌ، وتشبيهُ الشَّقيق بأعلامِ ياقوت نُشِرت على رِماح من زَبَرْجَد، لأنك في هذا النحو تُحصّل الشبه بين شيئين تُقدّر اجتماعَهما على وجهٍ مخصوص وبشرطٍ معلومٍ... والقسم الثاني أن تعتبر في التشبيه هيئةً تَحصُل من اقتران شيئين، وذلك الاقترانُ ممّا يُوجد ويكون، ومثاله قوله: [الوافر]

غَـدَا والصبـحُ تحتَ اللَّيل بادٍ كطِـرْفٍ أشـهبٍ مُلْقَى الجِلالِ

قَصَدَ الشبه الحاصل لك إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعًا، وتأمّلتَ حالهما معًا، وأراد أن يأتي بنظير للهيئة المشاهَدة من مقارنة أحدهما الآخر، ولم يُرِدْ أن يشبّه الصبحَ على الانفراد والليل على الانفراد... ثم اعلم أن هذا القسم الثاني الذي يدخل في الوُجود يتفاوت حاله، فمنه ما يتسع وجوده، ومنه ما يوجد في النادر، ويَبِين ذلك بالمقابلة، فأنت إذا قابلتَ قولَه: [الكامل]

وكـأنَّ أجـرامَ النُّجـومِ لوامعًـا دُرَرٌ نُثـرْنَ علـى بِسـاطٍ أزرقِ

بقول ذي الرّمّة [البسيط]:

«كأنَّها فِضّةٌ قد مَسَّها ذَهَبُ».

علمت فضلَ الثاني على الأول في سعة الوجود، وتقدُّم الأول على الثاني في عِزَّته وقلّته، وكَوْنِه نادرَ الوجود... وإذ قد عرفت انقسام المركّب من التشبيه إلى هذين القسمين، فاعتبر موضعَهما من العبرتين المذكورتين، فإنك تراهما بحسب نسبتهما منهما، وتحقُّقهما بهما، قد أعطَتاهما لُطْفَ الغَرابة، ونفضتا عليهما صِبْغ الحُسن، وكَستَاهما رَوْعَةَ الإعجاب، فتجدُ المقدَّر الذي لا يباشرُ الوجود، نحو قوله: [مجزوء الكامل]

أعـلامُ ياقـوتٍ نُـشرْ نَ على رِمَاحٍ مـن زَبَرْجَدْ

وكقوله في النيلوفر (وهو ضربٌ من الرياحين): [مجزوء الخفيف]

كُلُّنـا باسـطُ اليـدِ نحـو نَيْلَوْفَـرٍ نَـدِي
كَدَبَـابيـس عَسْـجَدٍ قُضْبُهـا مـن زَبَـرْجَـدِ

قد اجتمع فيه العبرتان جميعًا، وتجد العبرة الثانية قد أتت فيه على غاية القوّة؛ لأنّه لا مزيد في بُعد الشيء عن العيون على أن يكون وُجوده ممتنعًا أصلًا حتى لا يُتصوَّر إلا في الوهم، وإذا تركتَ هذا القسم ونظرْتَ إلى القسم الثاني الذي يدخل في الوجود نحو قوله: [الكامل]

دُرَرٌ نُثرن على بِسَاطٍ أزرقِ

وجدتَ العبرة الثانية لا تقوى فيه تلك القوة» أسرار البلاغة ص١٦٩- ١٧٣.

بـاب
في بيانِ أُصُولٍ عامّةٍ للبلاغة

ممَّا يتعلَّقُ بالكلامِ، والمتكلِّمِ، والسّامعِ، والمعنى. إنَّما أخَّرتُ المعنى؛ لكونِهِ هو الغرضَ، ولم أُرِدِ استقصاءَها، ولكنّي أوردتُّ ما كان جديرًا بالذِّكْرِ.

فَما يتعلَّقُ بالكلامِ فأصُولُها:

أ ـ مطابقةُ الكلامِ بالمعنى.

ب ـ والوضوحُ.

ت ـ ونَفْيِ الفُضولِ، وحُسنُ التَّرتيبِ.

ث ـ والمقابلـةُ، والتَّشـبيهُ، والتّمثيـلُ مِـنَ الوضـوحِ، وتنقيـحُ اللَّفظِ مِنَ المطابقة.

وممَّا يتعلَّقُ بالسَّامعِ فأصولُها:

أ ـ الاستمالةُ بذِكْرِ مدحِهِم، وإلقاءُ المدحِ بعد اللَّومِ والزّجرِ أوقعُ.

ب ـ وجلْـبُ التفاتِهـم بذكرِ ما يُنشِّـطُهُم مِـنَ العجيـبِ أو المدحِ أو بالسُّؤالِ.

١ـ الاعتدال:

قد علمتَ أنَّ زيادةَ الاعتناءِ بتفصيل شيءٍ يجلبُ النّفسَ، ويَصْرِفُها عن عمودِ الكلامِ شيئًا قليلًا. فهذا يَهديك إلى أنَّ لها مواقعَ فيها تُحمَدُ، وأُخرى فيها تُذَمُّ. فإنَّك رُبَّما لا تَجِدُ حاجةً في زيادةِ التَّفصيلِ لِمَا لا تحبُّ الرَّيثَ في الكلام عن جريانِهِ على رسْلِه، وإلى نحوِ عمودِهِ، أو لأنَّ الشَّيءَ يقتضي الاحترامَ، أو الاحتِجابَ، فلا تُرْفَعُ عنه الأستارُ، فهذانِ مانِعانِ عن التَّفصيلِ، ومعَهُما موانعُ أُخَرُ، ونبسطُ لهما القولَ في باب الإيجازِ وباب الكنايةِ، إن شاء اللهُ تعالى.

ثُمَّ إنَّ العنايةَ بتفصيلِ شيءٍ تُجتنبُ مِن جهةِ الكَثْرةِ، فإنَّ الإكثارَ ـ وإنْ كان مِن اللَّذيذِ ـ يُمَلُّ إذا تتابعَ، وهذا أصلٌ عامٌّ لكُلِّ حُسْنٍ، فقد جعل اللهُ لكلِّ شيءٍ قَدْرًا [٤٨].

٢ـ مُطابقة الكلامِ بالمعنى:

ليكنِ التَّعبيرُ مطابقًا بالمعنى لِينًا وخشونةً وحلاوةً ومرارةً حسبما أردت من المدح والذّمّ، كما قال حاتمٌ الطائيُّ(١):

فـإذا مـا مَـرَرْتَ في مُسْـبَطِرٍّ فاجْمَحِ الخَيْلَ مِثْلَ جَمْحِ الكِعَابِ

ومنه ما قال امرؤ القيس:(٢)

. . . . وشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ الـمُفَتَّلِ

(١) من الخفيف، ديوان شعر حاتم ص١٨٦. مسبطرٌّ: طريقٌ ممتدٌ. اجمحْ: أرْسِلْ. جمح الكعاب: ضرب بها.

(٢) من الطويل، ديوان امرئ القيس ص١١. وصدره: يَظلُّ العَذارى يرتمينْ بلحْمها.

أو كما قال[١]:

. . . . كَمَشْيِ العَذارى في المُلاءِ المُهدَّبِ

وهذا اختيارُ المناسبِ يكونُ مِن عِدَّةِ جهاتٍ: مِنَ الصَّوتِ، من اللَّوازم، من التَّشبيهِ. أمَّا مِنَ التَّشبيهِ فقد علمتَ. أمَّا مِنَ الصَّوتِ فكما قال لبيدٌ[٢]:

غُلْبٌ تَشَذَّرُ بالذُّحُولِ كأنَّها جِنُّ البَدِيِّ رَوَاسيًا أقدامُها

المرادُ من البيتِ الصَّدرُ في أمرِ الصَّوتِ، والعَجُزُ في أمرِ التَّشبيهِ، فاجتمعَتْ خشونةُ المعنى والصَّوتِ والتَّشبيهِ.

وفي القرآنِ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ ﴾[٣]، ولم أرَ قومًا راعى مطابقةَ الصَّوت بالمعنى، كما أرى العربَ، فإنَّهم بُرَآءُ مِنَ التَّكلُّفِ، مُولعون بالصِّدقِ، مُتجنِّبونَ مِنَ السَّفاسِفِ. وقد مَرَّ بَسْطُ القولِ في باب دِلالةِ الصَّوتِ والنَّغمةِ، ومن المطابقةِ أبواب المعاني.

---

(١) من الطويل، ديوان امرئ القيس ص٥٠. وصدرُه: فَبينا نِعاجٌ يَرتَعِيْنَ خَمَيلةً. والمراد بالنعاج هنا بقر الوحش. خميلة: رملة فيها شجر. والملاء: جمع ملاءة، وهي الملحفة والربطة والإزار، وذهب بعض الباحثين إلى أنها كساء قد يصل في الطول إلى أخمص القدم، ولها أحيانا ما يشبه الذيل تسحبه المرأة على الأرض عند السير، أو تنتهي في أسفلها بأهداب طويلة تمسح بها وجه الأرض. ينظر: الأزياء عند العرب ص٣١٧

(٢) من الكامل، شرح ديوان لبيد ص٣١٧. وغلب: غلاظ الأعناق. تشذَّرُ: تهددُ وتتوعدُ. الذُّحول: الأحقاد. البديّ: اسم موضع لبني عامر. رواسيا: ثوابت.

(٣) الآيـةُ بتمامها: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

٣ـ سَذاجةُ الكلامِ:

لا ينبغي أن تُشَدِّدَ في تصوير أمورٍ جليَّةٍ أو غيرِ مُهمَّةٍ، مثلًا تُحاولُ أن تُصوِّرَ كلامَك: اذْهَبُوا، [٤٩] أو كُلُوا، أو اشْرَبُوا، فإنَّ التَّصويرَ في أمثالِ هؤلاءِ من بابِ لغةِ الخُرْسِ حتَّى أن يصيرَ[1] الأمرُ حَرِيًّا بالاهتِمام، ويخرجَ من درجةِ البسيطِ العامِّ، كما ترى في الأمثلةِ الآتيةِ[2]:

مَشَيْنا مِشْيَةَ اللَّيثِ غَدَا، واللَّيْثُ غَضْبانُ

....[3]

٤ـ التَّرتيب:

ثُمَّ مِنَ الأمورِ المهمَّةِ حُسْنُ التَّرتيبِ وصِحَّتُهُ، فإنَّك تعلمُ أنَّ حُسنَ الشَّيءِ جُلُّ أمرِه ترتيبُ الأجزاءِ، فإنْ قدَّمْتَ ما حقُّهُ التَّأخيرُ، أو فعلْتَ بالعكس =

---

(١) إظهار «أن» هنا غير جائز، لأنَّها واجبة الإضمار في هذا الموضع.

(٢) من الهزج، للفند الزِّمّانيّ في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص٣٥.

(٣) في الأصل بياضٌ، ذكر المؤلّف أنها أمثلة، لكنَّه لم يورد إلا مثالاً واحدًا؛ لأنه لم يقدَّر له إتمامُ الكتابِ.

جديرٌ بالذكر أن عبد القاهر الجرجانيّ أشار إلى مثل هذه التشبيهات الساذجة، وربطها بالاستعمال العاميّ، وذلك مثل: «المريخ شمعة». أسرار البلاغة ص١٩٦. غير أنّ الجرجانيّ كان يتكلّم على التشبيه المعقود على الجمع دون التفريق؛ إذ يرى أنّ التفريق يُذهب بلاغة التشبيه؛ إشارة إلى قول القاضي التنوخيّ: [السريع]

كأنَّما المِرِّيخُ والمُشتَرِي قُدّامَهُ في شامِخ الرِّفعَهْ

مُنصرفٌ بالليل عن دعوةٍ قد أُسْرِجَت قُدَّامَهُ شَمْعَه

مسختَ الشَّيءَ، والحكيمُ لا يضعُ لفظًا أو معنًى أو مَثلًا إلّا وقد عَلِمَ الموقعَ الصَّالحَ له، وبذلك تتفاوتُ درجاتُ الكلامِ، وكما أنَّ في التَّرتيب سِرَّ الحُسنِ وسِحْرَهُ، وكما أنَّه لا يَصلُحُ أمرٌ إلَّا به، فكذلك فيها دِلالاتٌ جَمَّةٌ؛ فَكَم مِنَ المعاني الدَّقيقةِ والحِكَمِ الغامِضةِ مستودَعٌ فيه، والواجِبُ على المتأمِّلِ في القرآنِ أن يتدبَّرَهُ كلمةً كلمةً، ويُؤمِنَ بأنَّ تحتَها حِكَمًا، وفي نَظْمِها سِرًّا، وإذًا يُوشكُ أن يتجلَّى عليه بعضُ المكنونِ حسبَ استعدادِه.

وتزدادُ أهمِّيَّةُ التَّرتيبِ عندَنا إذا رأْينا غَفْلَةَ النَّاسِ حتّى المجتهدِينَ عنها، ولا تُستبعدُ الغفلةُ عن هذه الطَّائِفةِ، فإنَّهم ذهبُوا مذهبَ تدقيقِ النَّظرِ، فوقعُوا في تحليل المـُركَّب، واعتادُوا تضييقَ البصرِ، ولِمَـا أنّ سرَّ التَّرتيبِ لا يَظهرُ إلّا إذا وسَّعتَ نظرَكَ، ورأيتَ الشَّيءَ مع أطرافِهِ وما حوالَيه، ثُمَّ قابلْتَ بعضَها ببعضٍ، فكانَ المُحلِّلونَ أبعدَ النَّاسِ عن إدراك دلالاتِ التَّرتيبِ. وهذه غَلَبَةُ عادةِ التَّحليلِ على عادة التَّركيبِ = داءٌ دهْياءُ، قهرتِ العقولَ كالكابوس، وجعلَتْ [٥٠] مُروجَ العلومِ كالحصيدِ اليَبَسِ، وكَثُرَ المتونُ والحواشي، وقُدوتُهم أرسطو، وأعظمُ المصائبِ أنَّها صارَتْ سَدًّا دونَ معاني القرآنِ، فلم يَقنع الشَّرُّ بإماتةِ العلومِ، ولكنْ بَسَطَ يدَهُ إلى الدِّينِ، وهل هُما إلّا توأمانِ؟ وهذه دلالاتُ التَّرتيب بابٌ عظيمٌ، كلَّما ازددتَ فيه مَهارةً زادكَ علمًا وحِكمةً.

ثُمَّ لزيادةِ أهمِّيَّة هذا الأصلِ جهةٌ أخرى، وهي أن يجريَ في استعمالِ سائرِ الأُصولِ، فما مِن صَنعةٍ إلّا والتّرتيبُ رُوحُها[١]. وبسْطُ القول على التَّرتيبِ في

(١) لا وجه للواو هنا إلا الزيادة، والأولى أن تكون الجملة من دونها؛ لأنها خبر للمبتدأ «صنعة» المجرور لفظا بحرف جر زائد.

باب النِّظام، وبعضُ الأمثلةِ يَكفيك هَهُنا. ذكرَ صاحبُ أسرار البلاغة أنَّ قولَ المُرقِّشِ:[(١)]

النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجوهُ دَنَا نيرُ، وأطْرَافُ الأكُفِّ عَنَمْ

ليس فيه ترتيبٌ[(٢)]. ونُوجِّهُكَ إلى ترتيبِ هذه الصِّفاتِ؛ لتعلمَ كيف غفلَ عنه مثلُ الجرجانيّ، فتعلمَ دِقّةَ هذا المسلكِ ورِفْعةَ محلِّهِ، ولا تَستبعدْ خَفاءَ نِظامِ القرآنِ عن جمهور المفسِّرينَ[(٣)]. فاعلمْ أنَّ الشَّاعِرَ ذَكَرَ النَّشْرَ أوَّلاً؛ لأنَّكَ تجدُه عن ظهرِ الغيبِ، ثُمَّ ذكرَ حُسْنَ الوجوهِ لِمَا تَجِدُهُ عندَ المشاهدةِ، ثُمَّ إذا اقتربتَ ولمستَ الأكُفَّ وَجَدْتَ نعومتَها. فلو لم يكن همُّهُم مقصورًا على التَّشبيهِ وأنواعِه لم يَخْفَ عليهم وجهُ التَّرتيبِ.

---

(١) من السريع، للمُرقِّش الأكبر: ديوان المُرقِّشَيْنْ ص٦٨.

(٢) قال الجرجانيُّ: «وقولُهُ: النَّشْرُ مِسْكٌ .... إنما يجبُ حفْظُ هذا الترتيب فيها لأجل الشِّعر، فأمّا أن تكون هذه الجمل متداخلةً كتداخل الجمل في الآية، وواجباً فيها أن يكون لها نَسقٌ مخصوص كالنسق في الأشياء إذا رُتِّبت ترتيباً مخصوصاً كان لمجموعها صُورةٌ خاصّةٌ مقرَّرة فلا». أسرار البلاغة ص١٠٩-١١٠. وقال أيضًا: «... ويزيدك استبصاراً فيما قلناه، أن تنظرَ فيما كانَ من الشِّعْرِ جُملاً قد عُطِفَ بعضُها على بعض بالواو، كقوله: النشر مسك ...، وذلك أنه ترى الذي تعقِلُه من قولِه: «النَشرُ مسكٌ»، لا يصيرُ بانضمام قوله: «والوجوهُ دنانيرُ»، إليه شيئاً غير الذي كان، بل تراه باقياً على حاله». دلائل الإعجاز ص٥٣٥ (رسائل ملحقة بالكتاب).
كذلك ترى ما تعقلِ من قوله: «والوجوه دنانير»، لا يلحقه تغيير بانضمام قوله: و «أطراف الأكف غنم» إليه.

(٣) أفرد لذلك كتابا مستقلا بعنوان: دلائل النظام، وقد أنجزنا تحقيقه، وسيصدر ضمن سلسلة إحياء تراث الفراهيِّ في هذا العام إن شاء الله تعالى.

وهكذا نقلَ الجرجانيُ كلامًا من الجاحِظ[١]، واستحسنَه، ولكن قالَ: ليس فيه ترتيبٌ[٢]. وإنِّي لا أدري كيف يَذهلُ عاقلٌ عنِ التَّرتيبِ لا سيَّما مثلِ الجاحظِ[٣]؟ وأيُّ شيءٍ يمنعُهُ أن يُراعِيَ التَّرتيبَ في معانيه، ولم يمنعْه سَجعٌ ولا وزنٌ شعريٌّ؟

وأريدُ أن أشرح كلام الجاحظ؛ ليكونَ لك أنموذجًا ومثالًا، فَتُفكِّرَ، وتتدَبَّرَ في نظام كلامِ الله العليِّ، قال الجاحظ: «جَنَّبَك اللهُ الشُّبْهةَ، وَعصَمك مِن الحَيرة، وجَعلَ بينَك وبينَ المعرفةِ نَسَبًا، وبينَ الصِّدق سَبَبًا، وحبَّبَ إليك التَّثبُّتَ، وزيَّن [٥١] في عينِكَ الإنصافَ، وأذاقَكَ حلاوةَ التَّقوى، وأشعرَ قلبَكِ عِزَّ

(١) كلام الفراهي يوهم أن عبد القاهر نقل كلامًا للجاحظ على بيت المرقّش هذا، وليس الأمر كذلك، بل نقل فقرةً من كلامه في مقدمة كتاب الحيوان الآتي ذكره: «جنَّبَكَ اللهُ الشُّبهةَ...»، ودونك كلام الجاحظ على البيت؛ لتكون على بيِّنةٍ: «وتشبّه أيضا أطراف البنان بالأساريع وبالعنم، إذا كانت مطرّفة، وقال مرقّش: النَّشرُ مِسكٌ .... وصاحب البلاغة من العامّة يقول: كأنَّ بنانَها البيّاح والدّواج، ولها ذراع كأنها شبّوطة». ينظر: الحيوان ٣٦١/٦

(٢) لم يصرَّح الجرجانيُّ بنفي الترتيب عن كلام الجاحظ، ولكن يفهم من كلامه الآتي ذلك، ذلك أنَّ انتظام المعاني في الفكر يقتضي انتظامها في الذكر، وكلام الجاحظ ليس إلا جواهر منظومة في سلك يعصمها من التفرق من غير مراعاة للترتيب فيها. قال عبد القاهر الجرجاني: «واعلمْ أنَّ مِن الكلام ما أنتَ تَعلمُ إذا تدبَّرْتَهُ أنْ لم يحتجْ واضعُه إلى فكْرٍ ورويّةٍ حتى انتظَمَ، بل ترى سبيلَه في ضمِّ بعضِه إلى بعضٍ سبيلَ مَنْ عمدَ إلى لآلٍ فخرَطَها في سلك، لا يبغي أكثر من أن يَمْنعَها التفرُّقَ، وكمَنْ نَضَدَ أشياءَ بعضها على بعضٍ، لا يُريد في نَضَده ذلكَ أن تجيء له منه هيئةٌ أو صورةٌ، بل ليس إلاَّ أنْ تكونَ مجموعةً في رأْي العينِ. وذلك إذا كان معناك، معنى لا تحتاج أن تَصْنَعَ فيه شيئاً غيرَ أنْ تَعْطِفَ لفَظاً عَلَى مثلهِ، كقولِ الجاحظ: جنبك الله الشبهة...». دلائل الإعجاز ص٩٦-٩٧.

(٣) الاستفهام استنكاريٌّ.

الحقِّ، وأودَعَ صدرَك بَرْدَ اليقينِ، وطَردَ عنك ذُلَّ اليأسِ، وعرَّفَكَ ما في الباطل من الذِّلَّةِ، وما في الجهل من القِلَّة»[1]. فإن مررتَ على سَطْحِ هذا الكلامِ لم ترَ فيه نظمًا، ولكنَّ هذهِ الفقراتِ لها غورٌ، وهناك يظهرُ حُسنُ ترتيبِهِ. فاعلم أنَّ الشُّبْهَةَ أوّلُ البَلِيَّةِ، فتغادِرُ المرءَ مُتحيّرًا لا يدري أيَّ الأمرينِ يرجِّح؟ فإنْ كان له سببٌ إلى المعرفةِ مالَ إليها، فَهُدِيَ إلى الصِّدقِ، وحينئذٍ يحتاجُ إلى التّثبُّتِ عليه، ثُمَّ التَّثبُّتُ يعودُ تعسُّفًا إذا نَبذَ الإنصافَ، فيجمُدُ على ما عَرَفَ ولا يصعَدُ إلى ما هو أرفعُ منه، فإنْ زُيِّنَ في عَينِهِ الإنصافُ تاقَ إليه، وهَهُنا كَمُلتْ له أسبابُ العلم، فهذه ستُّ منازلَ في العِلمِ.

ثُمَّ لا بدَّ مِنَ العملِ بما عَلِمَ، وإلّا فَسَدَ رأيُه، فيُوشكُ أن يرى الباطلَ حقًّا. وبذا علمتَ شِدَّةَ حاجتِنا إلى تهذيبِ أخلاقِنا؛ لأجلِ إصابة الرَّأْيِ، فمن الأوَّل احتاجَ المرءُ إلى مدَدِ التَّقوى، فإنَّها منبعُ فعلِ الخير، والمتَّقِي في هذه الدَّارِ الفانيةِ رُبَّما ابتُلِيَ بالبؤسِ والضُّرِّ، فإذا نبذَ الدُّنيا، وقنعَ بالتَّقوى، فَنَّدَهُ الناسُ، واستهانَهُ الجمهورُ، فإنْ صبرَ على الضُّرِّ فكيف يصبرُ على المهانة؟ إلَّا أن يشعرَ بِذُلِّ الباطل وعزِّ الحقِّ، فيُكرمَ نفسَه، ويهونَ في عينِهِ جاهُ الأشرارِ؛ ليَقينِهِ الثَّابتِ بفلاح المتَّقينَ. فبهذا العِزِّ الذي أُشرِبَ قلبُهُ طُرِدَ عنه ذُلُّ اليأسِ، ولو هجمتِ الشَّدائدُ، وبَعُدَ عنه الوعدُ الإلهيُّ، فحينئذٍ يرى الباطلَ عينَ الذِّلَّةِ، ويرى الجهلَ عينَ الفقرِ. فانظرْ كيف جمعَ أسبابَ العلم والعمل، وجعل ستّةً للعلم وستّةً للعمل؟ وكيف ختمَ الكلامَ بذكرِ أنَّ مَلاكَ أفعالِنا رغبةُ النَّفسِ إلى العِزِّ والغنى، ولكنَّه

(١) الحيوان ١/٣، ودلائل الإعجاز ص٩٧.

عَلِمَ أنَّ النَّفرةَ أقوى من الرَّغبةِ سلطانًا على أفعالِنا، فذكرَ الذِّلَّةَ والفقرَ، فما أدقَّ نظرَهُ حينَ بدأ القولَ بالشُّبهةِ، وختمَ بالمعرفةِ الغامضةِ التي هي مصدرُ الإراداتِ.

والجاحظُ ـ رحمهُ الله ـ وَشَّى حِبَرَهُ[١] على مثالٍ من قولِ علي بنِ عبدِ اللّٰه ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما، وهو: «مَنْ لم يجدْ مَسَّ نَقْصِ الجهل في عقلِه وذُلَّ المعصيةِ في قلبِه، ولم يَستَبِنْ موضعَ الخَلَّةِ في لسانِهِ[٢] [٥٢] عند كَلالِ حَدِّه عن حَدِّ خصمِه = فليس ممَّن يفزعُ عن رِيبةٍ، ولا يرغبُ عن حالِ معْجَزةٍ، ولا يكترِثُ لِفَصْل ما بين حُجَّةٍ وشُبهةٍ»[٣]. فذكر ثلاثَ خصالٍ سيّئة هي أصولُ الهلاكِ، فذكرَ الجهلَ، والمعصيةَ، وضَعفَ القولِ؛ إشارةً إلى فضائلِ العِلمِ والعِفَّةِ والنُّطقِ، كأنَّهُ دلَّ على أُصولِ الكمالِ الإنسانيّة، وصرَّحَ بمحالِّها الثَّلاثِ، فذكرَ العقلَ، والقلبَ، واللِّسانَ، وسَمَّى الأوّلَ نقصًا، والثَّانيَ ذلّةً، والثّالثَ خَلَّةً، ثم جعلَ الأوَّلَين ممَّا يُعلَمُ بالبَداهةِ والوجدانِ، والثَّالثَ ممَّا يُعلَمُ بالنَّظر والاستبانةِ، ثُمَّ جعلَ هذه الثَّلاثَ تحتَ قوَّةِ العقلِ، فإنَّ الوجدانَ والاستبانةَ من العقلِ؛ ولذلك ذكرَ الجهلَ أوَّلًا، فإنَّه منبعُ الباقِيَيْنِ.

❋ ❋ ❋

---

(١) الحِبَرُ: جمعُ حِبَرَة، وهي ضرب من برود اليمن منمّر. لسان العرب (حبر).

(٢) الخَلَّة في اللسان: الخلل في القول.

(٣) البيان والتبيين ٨٥/١

تَذكِرَة

للتَّرتيب العقليِّ أنحاءٌ: من جِهةِ الزَّمانِ، ومِن جِهةِ المكانِ، ومِن جِهةِ الدَّرجةِ، ومِن جِهةِ الأثرِ والتَّدبيرِ في التَّأثيرِ، ومِن جِهةِ الأهمِّيَّةِ، مثلًا: ذِكْرُ الصَّلاةِ قبلَ الزَّكاةِ للأهمِّيَّةِ والدَّرجةِ، فإنَّ الصَّلاةَ أوَّلُ، وذِكْرُ الزَّكاةِ قبلَ الصَّلاةِ فللتَّدبيرِ، فإنَّ الزَّكاةَ عَونٌ على الصَّلاةِ. وكذلك كلُّ عملٍ ظاهرٍ عَونٌ على ما هو أرفعُ منه ويُناسبُهُ، فمَن أضاعَ الزَّكاةَ فيُوشِكُ أن يُضيعَ الصَّلاةَ، وكذلك الإيمانُ والأمانةُ. وهكذا تجدُ الرَّشيدَ فَهِمَ الأمرَ، فقالَ في خُطبةٍ له: «حَصِّنوا إيمانَكم بالأمانةِ، ودينَكم بالورعِ، وصلاتَكم بالزَّكاةِ».[١]

❊ ❊ ❊

٥ ـ المقابلة

الشَّيءُ [يُعرفُ][٢] بِذِكْرِ مُقابِلِهِ، فالطَّبعُ أقربُ له قبولاً، ثُمَّ يَتَبيّنُ الضِّدُّ بالضِّدِّ، ويزدادُ حُسنًا، [٥٣] ويذهبُ بالـمَلالِ. أمَّا الأوَّلُ فهو أمرٌ طبعيٌّ للإنسانِ، حتّى إنَّ بعضَ العلماءِ زعمَ أنَّ في الأوَّلِ كُلَّ لفظٍ كان للضِّدَّينِ، وأمَّا حُسْنُ الأشياءِ واستبانةُ محاسنِها مِنَ التَّقابُلِ فكأنّ مُصوِّرَ الخلقِ ـ تعالى شأنُهُ ـ أظهرَ المحاسنَ بها، فأخرجَ الأزهارَ الحُمْرَ والصُّفرَ والبِيضَ مِن بين أوراقٍ خُضْرٍ، وأبرزَ النُّجومَ البيضاءَ من صفحةٍ سوداءَ، والقمرَ الفِضِّيَّ في الصَّحنِ الزَّبرجديِّ. فهكذا الأمرُ

(١) ينظر قول هارون الرشيد في جمهرة خطب العرب ٨١/٣.

(٢) زيادة يقتضيها السياق. ويمكن زيادة أفعال أخرى بدلا من يعرف، مثل: يتضح، يبين، يتبين...، ومن دون هذه الزيادة يفسد المعنى.

في الكلامِ وتَصاويرِهِ، ولا يخلو منه لسانٌ، فأمَّا العربُ فكما قال المهلهلُ:(١)

يُهَزْهِـزُونَ مِن الخَطِّـيِّ مُدْمَجَةً   كُمْتًـا أَنابيبُهـا زُرْقًـا عَوَالِيهـا

وما أحسنَ ما قال قيسُ بنُ عاصمٍ المِـنْقَرِيِّ في مدحِ قومِهِ(٢):

لا يَفطنـونَ لِعَيـبِ جارِهِـمُ   وهُـمُ لحُسْـنِ جِـوارِهِ فُطْـنُ

وهذا كما قالَ الحاتمُ: (٣)

وَإنِّي لَعبْـدُ الضَّيْـفِ مَـا دَامَ ثَاوِيًا   وَمـا فِيَّ إلّا تِلكَ مِنْ شِـيمَةِ العَبْدِ

وأحسنَ المقابلةَ دُريدُ بنُ الصِّمَّةِ(٤):

ويَبْـقَى بَعْدَ حِلْمِ القَـوْمِ حِلْمي   ويَفْـنى قَبْـلَ زادِ القَـوْمِ زَادِي

وحُسنُ هذه المقابلاتِ في جمع الحَسَنتَينِ، ثُمَّ في وصفِهما بالمقابلةِ؛ ليزدادَ ضَوؤُهُما وليَبِينَ حدُّهُما، فجمعَ الإغماضَ والفطانةَ، والتّواضعَ والأنفةَ، والعقلَ والسّخاءَ. وقال معبدُ بنُ علقمةَ(٥):

وَتَجْهَـلُ أيْدِينَـا وَيَحْلُـمُ رَأيُنَـا   وَنَشْـتِمُ بِالأفْعـالِ لا بِالتَّكَلُّـمِ

---

(١) من البسيط، ديوان مهلهل بن ربيعة ص٩١. يهزهزون: يحرِّكون. الخطِّيُّ: الرِّماحُ المنسوبة إلى مرفأ الخط في البحرين. مدمجة: شديدة محكمة. الكُمْتُ: جمع الكميت، وهو بين الأبيض والأسود. أنابيبها: جمع أنبوب، وهو قصبة الرمح. زرقًا: جمع أزرق، وهو النَّصل الشَّديدُ الصَّفاء.

(٢) من الكامل، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص١٥٨٤.

(٣) من الطويل، ديوان حاتم الطّائيّ ص١٩ (طبعة أحمد رشاد).

(٤) من الوافر، ديوان دُريد بن الصِّمَّة ص١٧٧.

(٥) من الطويل، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص٧٥٢.

وقال تأبَّطَ شرًّا[١]:

يابِسُ الجَنْبَينِ، مِـن غَيرِ بُؤسٍ ونَـدِيُّ الكَفَّـيْنِ، شَـهْمٌ، مُـدِلُّ

قال النّبيُّ في مدح الأنصار: «يَقِلُّونَ عندَ الطَّمَعِ، ويَكثُرونَ عندَ الفَزَعِ»[٢]. ويَضمحلُّ قولُ أوسِ بنِ حجَرٍ في جنْبِ هذا السَّهلِ الممتنعِ، حيثُ قال[٣] [٥٤]:

ولَيْـسَ أَخُوكَ الدَّائِمُ العَهْدِ بالذي يَذمُّـكَ إِنْ وَلَّى ويُرْضِيـكَ مُقْبِلا

ولكنَّـهُ النَّـائِي إذا كنـتَ آمِنًـا وصاحِبُكَ الأَدْنَى إذا الأَمْرُ أَعْضَلا

والبلاغةُ القُصوى التي يَحسُرُ دونها الوصفُ، ويَضيقُ العقلُ عن إحاطتِها في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ ﴾؛ أرادوا الفرارَ ﴿فَلَا فَوْتَ ﴾؛ أي لم يمكنهم أن يفلتوا. ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ: ٥١-٥٢]. فَمَن فَهِمَ معنى الآيتَينِ صُوِّرتْ بين يدَيهِ جماعةٌ أوّلًا فَزِعُوا، فأرادوا الفِرارَ، فلم يمكنْهم الإفلاتُ، بل أُخِذُوا على مكانِهم، فلمَّا يَئِسُوا قالُوا: آمنَّا، ولاتَ حينَ الإيمانِ، فإنَّ وقتَ الإيمانِ كانَ بالغيبِ في حياتِهم الأُولى، وقد فاتَهم الآنَ، وبَعُدَ عنهم مكانًا، فيَمدُّون إليه أيديَهم كالمُتناوِش لِمَا بَعُدَ عنه، فأنّى له ذاك؟!

٦ـ تَمييزُ المعاني وفَرْقُ درجاتِها:

قد تبيَّنَ لك ممَّا مرَّ في بيانِ حُسنِ التَّرتيبِ أنَّه رُبَّما يَخفى على العلماءِ، فكيفَ بالعامّةِ؟! والآنَ نبيِّنُ لك علَّةَ هذا الخفاءِ.

---

(١) من المديد، ديوان تأبّط شرًّا وأخباره ص٢٤٩.

(٢) مرقاة المفاتيح ٤٠٢٥/٩.

(٣) من الطويل، ديوان أوس بن حجَر ص٩٢.

فاعلمْ أنَّ كلامَينِ أو كلمتَينِ رُبَّما يتراءيانِ[١] مُتماثلَينْ، فيَظنُّ الظَّانُّ أنَّهما تَكرارٌ محضٌ، وتأكيدٌ لأمرٍ واحدٍ، وتصويرُ شيءٍ بصُورٍ مختلفةٍ، فلا يعبأُ بمعرفةِ الفَرْقِ، فيَبقى في حِجابٍ عن غَورِ الكلامِ، ثُمَّ يقلِّدُ هذا الجِنْسَ فيما يصنعُهُ؛ ولذلك ترى الجرجانيّ والباقِلَّانيّ وأمثالَهما ـ رحمَهم اللهُ ـ معَ سَعةِ باعِهِم في التَّصرُّفِ بأنحاءِ التَّعبيرِ = يأتون بفقراتٍ مترادفةٍ[٢]، ظنًّا مِنهم بأنَّها من جنسِ «جنَّبَك اللهُ الشُّبهةَ»[٣]، وشتَّان ما بينها.

والعاقلُ يَشمئزُّ عنِ التّكلُّف المحضِ، وإظهارِ ثروةِ الكلماتِ وفَقْرِ المعنى،

---

(١) في الأصل: يترآى.

(٢) المراد ترادف كلمتين أو عبارتين أو أكثر، ومن ذلك قول الجرجاني: «فإنك تَرى ما ترى من الرَّوْنَقِ والطَّلاوة، ومن الحسن والحلاوة...». وقوله: «... ولكنك تجدها كالفصوص الثمينة والوسائط النفيسة وأفراد الجواهر...». دلائل الإعجاز ص٨٦ و ٦٠٩. ومن ذلك قول الباقلاني: «... ووقع ذلك مستنكراً وحشياً، نافراً عن طبعه، جافياً في وضعه، فهو كرقعة من جلد في ديباج حسن! فهو يمحو حسنه، ويأتي على جماله». ص٢٢٤

(٣) يشير إلى قول الجاحظ وبلاغته في مقدمة كتابه الحيوان ٣/١. ومراد الفراهي هنا أن الجرجاني والباقلاني وأمثالهما يظنون أن كلام الجاحظ من المترادفات والتكرار في المعاني الخالي من الترتيب، وليس الأمر كذلك؛ لِما بيَّنه الفراهيّ نفسه قبل قليل.
قال الجرجانيّ في تعليقه على خطبة الجاحظ وادّعاء الترادف ثمَّ ادّعاء عدم الترتيب فيها: «ترك أوَّلًا أن يوفِّق بين الشبهة والحيرة في الإعراب، ولم يَرَ أن يَقْرن الخلاف إلى الإنصاف، ويَشْفَعَ الحق بالصدق، ولم يُعْنَ بأن يَطْلُب لليأس قرينةً تصل جناحَه، وشيئًا يكون رَدِيفًا له، لأنه رأى التوفيق بين المعاني أحقُّ، والموازنة فيها أحسنَ، ورأى العناية بها حتى تكونَ إخوةً من أبٍ وأمٍّ؛ ويذَرَها على ذلك تَتَّفقُ بالوداد، على حسب اتّفاقها بالميلاد، أَوْلى من أن يَدَعها، لنُصْرَة السجع وطلب الوزن، أولادَ عِلَّة؛ عسى أن لا يوجد بينها وفاق إلا في الظواهر». أسرار البلاغة ص١٠.

وإذ رسخَ هذا الظَّنُّ فيهم عكفُوا على ظواهِرِ اللَّفظِ، واستجادوا التَّنوُّعَ والقوافيَ، فإنَّ التَّكرارَ لأجلِ التَّأكيدِ له مواضعُ تخصُّهُ. فإنْ تأمَّلْتَ في هذا الأمرِ تبيَّنَ لك أنَّ البلاغةَ وحُسنَ الكلامِ في لُبِّ المعاني، وهناك نظامُها. فَمَنِ التمسَ النِّظامَ [٥٥] دَقَّ بابَ التَّدبُّرِ في أسرارِ الكلامِ، وعَلِمَ كيفَ يؤدِّي عن نفسِهِ أمورًا خفيَّةً، وكيف يُرتِّبُها ترتيبًا عقليًّا ـ انظرْ أنحاءَ التَّرتيبِ العقليِّ[1] ـ وكيف يهذِّبُ كلامَه عن الزَّوائِدِ؟

٧ـ تنقيحُ الألفاظ:

تنقيحُ الألفاظِ طرفٌ مِنَ التَّمييزِ والمطابقةِ، وإنَّما جعلْتُه أصلًا برأسِهِ؛ لشِّدَّةِ الاعتناءِ به، فإنَّكَ بعدَما جعلتَ تمييزَ المعاني المتماثلةِ نُصْبَ عينَيكَ =لا بدَّ أن تُصمِّمَ فكرَكَ إلى خواصِّ دلالةِ الكلمةِ، فتضعَها مواضعَها الخاصَّةَ بها، وتُراعِيَ التَّرتيبَ والمطابقةَ، كما رأيتَ الجاحظَ كيفَ أخذَ من الألفاظِ للمعاني المتشابهةِ ما كان أليقَ بكلٍّ منها، وههنا نَزيدُ لك مثالًا.

مِن أمثلةِ شِدَّةِ انتباهِهم لجودةِ الألفاظِ المفردةِ أو رداءتِها أنَّهم كانُوا يُسمُّون بذلك، كما يُسمُّون بفِعالِهم، فهم سَمَّوا المـُرقِّشَ لِمَا أنَّه أوَّلُ مَنِ استعملَ لفظَ «الرَّقشِ» لبقايا الرُّسومِ، حيثُ قالَ[2]:

الدَّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كَمَا ... رَقَّشَ في ظَهْرِ الأدِيمِ قَلَمْ

وكان الرَّقشُ يُستعمل لألوانٍ مختلطةٍ متباينةٍ واضحةٍ، كما على جِلْدِ الحَيَّةِ،

---

(١) مرت في تذكرة ص١٩٦.

(٢) من السريع، للمُرقِّش الأكبر، ديوان المُرقِّشَينْ ص٦٧.

فهذه اللَّفظةُ أوضحَتِ التَّصويرَ، ولم يَضِعْ حُسْنُ اختيارِهِ في قومٍ فُطْنٍ، ثُمَّ تبعَهُ الشُّعراءُ، فقال طَرَفةُ[1]:

كسُطُورِ الرِّقِّ، رَقَّشَهُ   بالضُّحَى، مُرَقِّشٌ يَشِمُهْ

فزادَ طرفةُ لفظةَ الضُّحى؛ لتدلَّ على جَودةِ صُنعِهِ، فإنَّهُ إنْ فعلَ في اللَّيل أو حين قلّةِ الضَّوءِ في النّهار، فلعلَّهُ[2] لم يُبيِّنْ بيَن الألوانِ، فلو لم يَفطَنْ طرفةُ بأنَّ حُسْنَ لفظِ «الرَّقشِ» في الوضوحِ لم يَزِدْ عليه لفظةَ الضُّحى، ثُمَّ زادَ عليه لفظةَ «مُرقِّش»، وكأنَّ طرفةَ أرادَ أن يسبِقَ المتبوعَ، فإنَّ القلمَ رُبَّما يستعملُهُ مَنْ لا يُحسِنُ العملَ، ولكن إذا أخذَ القلمَ صاحِبُهُ أجادَ الرَّقشَ، ثُمَّ زادَ عليهِ لفظةَ «يَشِمُهْ»؛ يُبيِّنُ عادتَهُ بالوَشْمِ، ثُمَّ معَ هذهِ الأمورِ أكملَ التَّصويرَ باستِعمالِ الفِعلِ، كأنَّكَ ترى مُرقِّشًا يَشِمُ الرِّقَّ [٥٦] في الضُّحى. وهذا كلامي خارجٌ عن البابِ، ولكن جلبَهُ بيتُ طرفةَ، وإنَّما أردْنا الإشارةَ إلى تنبُّهِهم لجَودةِ الألفاظِ الخاصَّةِ معَ النَّظرِ إلى صِحَّةِ المعنى. وقال قُراد بن غُوَيّة بن سُلميّ[3] يَرثي نفسه[4]:

وَكُنْتُ لَهُ عَمًّا لَطِيفًا وَوالِدًا   رَؤُوفًا وأمًّا مَهَّدَتْ فَأَنامَتِ

---

(١) من المديد، ديوان طرفة بن العبد ص٨٢ وقبل البيت:

أشجاكَ الرَّبعُ أم قِدَمُهْ   أم رَمادٌ دارِسٌ حُمَمُهْ

أشجاك: أأحزنك. الربع: المنزل. دارس: ممحيٌّ. حممه: فحمُهُ. كسطور الرِّقّ: شبَّه رسوم المنزل بسطور الكتاب. ورقَّشه: زيَّنه وحسَّنه بالنقط. بالضّحى؛ أي في وقت الضحى، وذلك أحكم لصنعة الترقيش. يشمه: ينقشه ويزيّنه.

(٢) في الأصل: لعله، من دون فاء، وهي واجبة هنا.

(٣) في الأصل: سمّي، وهو تحريف، وتصويبه عن شرح الحماسة للمرزوقي ص١٠٠٥.

(٤) من الطويل، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص١٠٠٧.

انظرْ كيف اختارَ ثلاثَ صفاتٍ لم تجدْ أليقَ منها بموصوفِها، ثُمَّ في التَّرتيبِ صُعودٌ من العَمِّ إلى الأبِ، إلى الأُمِّ، ولا مصعدَ وراءَها. ومِن هذا البابِ قَصْدُ الصِّحَّةِ وأداءُ الحقيقةِ، كما قالَ[1]:

. . . .   وكَشْحٍ قد جُنِنْتُ به جُنُونا

وهذا بابٌ عظيمٌ وقُطْبٌ لمحاسنِ نُطقِ العربِ، فإنَّهم لم يَستحسنوا شيئًا مثلَهُ، ولم يَقْصِدُوا مِنَ الكلامِ إلّا هذا، وإذا أصابُوا فيهِ اطمأنُّوا، ومِنهُ قولُ عَمرِو بنِ كلثوم[2]:

إِذَا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ   تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِيْنَا

وقول جريرٌ:[3]

إذا غَضِبَتْ عليكَ بَنو تَميمٍ   وَجَدْتَ النَّاسَ كلَّهُمُ غِضَابَا

٨ ـ الإيجاز:

ثُمَّ أهمُّ الأمورِ في تأديةِ المعاني أن تَصطفيَ مِن أحوالِ الشَّيءِ قليلًا يُخبرُ عن كثيرٍ لم يُذكرْ، فإنَّ التَّخييلَ يكونُ جملةً، كما أنَّ إحساسَ الأشياءِ يكون بنَظْرةٍ ووَهْلَةٍ، فإنْ طالَ الكلامُ خالفَ سُنّةَ الطَّبْعِ، وإنْ صوَّرتْ شيئًا بتفاصيلِهِ[4]

(١) من الوافر، ديوان عمرو بن كلثوم ص٣١٥. وصدرُه: وَمَأْكَمَة يَضيقُ البابُ عَنْهَا. وفيه: «وكَشْحًا» بالنَّصب. والمأكمة: العجيزة.

(٢) من الوافر، ديوان عمرو بن كلثوم، ص٣٤٩.

(٣) من الوافر، ديوان جرير ص٨٢٣.

(٤) في الأصل: بتفاصيلها.

كانَ ذلك مِنَ التَّاريخِ والأخبارِ، ويبعُدُ عنِ البلاغةِ التي للكلامِ المُحرِّكُ[١]، فإنْ ذكرتَ بعضَ الأحوالِ الذي أغنى غَناءَ الكُلِّ، فقد أبلغتَ ضميرَك، وإنْ تركتَ هذا البعضَ، وجئتَ بكلِّ تفصيلٍ، فذلك هو العِيُّ.

وهذا القليلُ الكثيرُ ضالَّةُ البُلغاءِ، يَحومونَ حولَها ولا يجدونَها، فإذا هي وُجدتْ قال كلُّهُم: هِيَ هِيَ. هذه التي كنتُ أبغي، وكانَتْ هِيَ تجولُ في قلبي، وكنتُ ألمسُها ولا أَجِدُ. فأُعجِبُوا بها لا لِبُعدِها، بل لشِّدَّةِ قُربِها، فما كان منها أقربَ كان [٥٧] أحسنَ، وهذه نقطةُ الافتراقِ بينَ العربِ والعجمِ، وبينَ رؤساءِ الكلامِ في المغربِ والمشرقِ، كهومِيروس، وشكسبير[٢]، وفِرْدوسيِّ، وعامَّتِهم الذين طلبوا كلَّ نادرةٍ بعيدةٍ من القافيةِ والتَّشبيهِ والبديعِ، فكان تعجُّبُهُم لِتَصَنُّع المتكلِّمِ لا لِحُسْنِ الكلامِ، فاجتمعَ لهم مِنْ محاسنِ الكلام أسماءٌ سمَّوها، وفازتِ العربُ منها بشيءٍ واحدٍ لا اسمَ له عندَ العجمِ، وهو الصِّدقُ والتَّأثيرُ، وإنَّ هذا لَهو الذي يَبلغُ القلبَ، وأمَّا الأمثلةُ لاصطفاءِ المعاني فمذكورةٌ في بابِ تنقيحِ الألفاظِ.

* * *

---

(١) أي التي هي المحرِّك للكلام.

(٢) في الأصل: شاكسفير.

أصولٌ للإيجاز والإطناب

أَولى بنا أن نُسمِّيَ الإيجازَ إِحْكامًا، والإطنابَ تفصيلًا، في القرآن: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. فالإِحْكامُ يدلُّ على حِكمةِ القائِلِ ومعرفتِهِ بالأصولِ وحقائِقِ الأُمورِ، والتَّفصيلُ يدلُّ على سَعةِ علمِهِ بتفاصيلِ الأمورِ، ولكلِّ ذلك مواقعُ وأصولٌ. فأمَّا المـُحكمُ مِنَ الكلامِ فيُلقَى إلى الحكماء لِلفِكْرِ، وإلى الجمهورِ؛ لِسُهولةِ الأخذِ به وظهورِ دليلِهِ، فإنَّ الحكمةَ أبينُ عندَ القلبِ السَّليمِ كأنَّها لُبابُ الأمرِ.

والقاعدةُ فيه أن تُذكرَ فيه عوالي الأمورِ وأصولُها، كما ترى في سورة العصر[1] وغيرِها مِنَ القِصارِ، وأن يُختارَ فيه جهةُ ظهورِها، وأقربُ جانبٍ يُشيرُ إلى فروعِها؛ لكي ينتقلَ الذِّهنُ مِنها إلى علومٍ جمَّةٍ. وأمَّا المفصَّلُ من الكلامِ فيُلقى بعد المـُحْكمِ كالفَرعِ بعدَ الأصلِ، ويُراعى فيه أن يُذكرَ فيه ما قدِ انطوَتْ عليه القلوبُ من الفِطرةِ، ولكن خَفِيَ عليه التَّفصيلُ، فإذا أُلقِيَ عليه عَلِمَ أنَّ هذا هو الذي كانَ في قلبِه، ولكنَّهُ لم يتبيَّنْ عندَهُ تفصيلُهُ، فكانَ الكلامُ تَذكارًا له، كما أنَّكَ رأيتَ شيئًا، وبَقِيَ في حافظتِكَ صورتُهُ، ولستَ تَقْدِرُ أن تُفصِّلَهُ، فإذا رأيتَهُ مرَّةً أُخرى، ورأيتَ تِمثالَهُ الصَّحيحَ = صدَّقتَ بأنَّ هذا ذاك. وهذا

(١) ينظر كلام الفراهي على سورة العصر في كتابه نظام القرآن وتفسير الفرقان بالفرقان ص٣٨١.

الأمرُ يوجدُ في المحكمِ أيضًا، لكنَّ أكثرَ المحكماتِ معلومةٌ مِنْ قبلُ، ولكنَّ فروعَهُ وما يلزمُهُ مِنَ النَّتائجِ مذهولةٌ عنها؛ ولذلك سمَّى اللهُ القرآنَ وكتُبَهُ [٥٨] ذِكْرًا، وإلى هذا أشارَ طَرَفَةُ حيثُ قالَ:[١]

وإنَّ أحسنَ بيتٍ أنتَ قائلُهُ   بَيْتٌ يُقالُ ـ إذا أنْشَدتَهُ ـ صَدَقا

وهذا مرادُ الحكيم أفلاطُون[٢]: إنَّ علومَنا ذِكْرُ ما نَسِينا.

* * *

(١) من البسيط، ديوان طرفةَ بنِ العبْد ص١٧٤.

(٢) من أعظم فلاسفة اليونان قبل الميلاد. معجم الفلاسفة ص٧١.

فَصْلٌ في الإيجاز والإطناب

في قَصص القرآنِ ترى مطلبًا واحدًا ذُكِرَ مرَّةً بالإيجازِ، وأُخرى بالإطنابِ، ثُمَّ تَجِدُ في كليهما المحافظةَ على غاية القِصَّةِ، بل تَجِدُ المقصودَ أوضحَ في المـُوجَزِ، مثلًا قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٥-٢٦]. فهذا هو إحكامُ القولِ [الذي][1] يجعلُ أجزاءَ المعاني في غايةِ التَّقارُبِ والإدماجِ، وهو أوقَعُ في القلبِ، وأبيَنُ للعقل، وأرسخُ فيهما لجمع الأصول. فإذا أطنبَ جعلَ للأُصولِ فُروعًا، وألبسَها وَرَقًا وزَهْرًا وثَمَرًا، فأشغلَ بواحدٍ واحدٍ منها؛ ليثبت الأوَّلَ، ثُمَّ يأتي بالثَّاني والثَّالثِ، وهلُمَّ جَرًّا. ولِكِلَيهما موقعٌ مِنَ الفُرصةِ والفَراغِ والنَّشاطِ.

٩ـ ادِّخارُ الألفاظِ والأساليبِ:

الأصلُ التَّاسِعُ في معرفةِ المعاني واللُّغةِ بأن تعلمَ أنحاءَ البيانِ، ويكونَ عندَك ذخيرةٌ وافيةٌ من الألفاظِ، فَتَقْدِرَ على تصرُّفها[2]، وذلك يحصلُ بالعملِ

(١) زيادة منّا يقتضيها السياق.

(٢) أي التصرُّف بها.

وسَعةِ النَّظرِ وبيانِ أصولِه في فنِّ المعاني، وذلك قبلَ هذا الفنِّ الذي نحنُ في ذِكْرِه، وإنّما نذكرُ هَهُنا ألّا تَطلُبَ مِن فنِّ اللُّغةِ والبيانِ [٥٩] كثيرَ الألفاظِ وتنميقَها، وجَوفُها هواءٌ، فإنْ حوَّلْتَها إلى لسانٍ آخرَ ذَهَبَ رونقُها ولم يبقَ مِنَ المعنى شيءٌ، وإنّما الغرضُ أن لا يضيقَ عليك الطَّريقُ بعدما انبعثَ في صدرِكَ معنًى جديرٌ بالبيانِ، وأن تعلمَ كيف تُؤدِّي كلَّ ما في قلبِكَ مِنَ الجوانِبِ الرَّخيمةِ لمعنًى واحدٍ، أو كيفَ تُبيِّنُ صورًا مُتشابهةً معَ تمايُزِها، كما رأيتَ في كلامِ الجاحِظِ، مرَّ بك شرحُه[1].

هذا الأصلُ يُقابِلُ جميعَ الأُصولِ، فهذا الواحِدُ مادَّةُ الكلامِ، والباقي صورتُهُ، كما أنَّ لكلِّ صناعةٍ مادَّةً وصورةً، فذخيرةُ الألفاظِ وعِلْمُ دلائلِ الكلماتِ وأنحائِها كالخشبِ للنَّجّار، والذَّهَبِ للصَّاغةِ، ومِن هَهُنا تُقَدِّمُها تَحصيلًا.

١٠ـ منبعُ الكلامِ:

ممَّا مرَّ بك آنفًا، بل مِن كلِّ ما قدَّمناهُ، لا يخفى عليك أنَّ الصِّناعةَ في الألفاظِ، وتجهيزُها عِيالٌ على المعنى، فليكنْ همُّ المرءِ الذي يحاولُ تكميلَ النُّطقِ والبلاغةِ = أن يُكمِلَ عقلَهُ وفِكْرَهُ وتمييزَهُ، فكم مِن فصيحٍ ليسَ إلّا كالبُلبلِ والبَبْغاءِ، يُعجبُك صوتُهُ ولا شيءَ تحتَهُ، وهذا هو داءٌ عُضالٌ وضَلالٌ بعيدٌ. وأكبرُ مثالِهِ أكثرُ كلامِ الحريريِّ، فإنْ ترجمتَهُ رأيتَ سخافةَ جُلِّ مقاماتِهِ. وإذْ جعلَ النَّاسُ هذا المذهبَ نُصبَ عيونِهم بَعدُوا عن أصلِ البلاغةِ حتّى اجترأَ بعضُ الحُمَقَاءِ[2] على القولِ بأنَّه أحسنُ مِنَ القرآنِ، وأينَ الجيفةُ مِن ماءِ الحياةِ؟!

---

(١) يريد كلام الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان ٣/١: «جنبك الله الشبهة...». وينظر: ص١٩٣.

(٢) جَمعَ أحمقَ على حُمَقَاء؛ على مِثال عُلَمَاء، مع أنَّ فُعَلاء يكونُ جمعَ صفةِ مذكَّرٍ عاقلٍ على وزن=

وأتعجَّبُ مِنَ الزَّمخشريِّ معَ وُلُوعِهِ بلسانِ العربِ وتَعَصُّبِه له كيف قال[(١)]:

أُقسِـــمُ بـاللهِ وآيـــاتِــهِ ومَشْـعَرِ الحَـجِّ ومِيقاتِـهِ
إنَّ الحَريـريَّ حَـرِيٌّ بـأنْ نَكتُـبَ بالتِّـبْرِ مَقاماتِـــهِ

وإنّما نقلْنا هذا الكلامَ؛ لكي تعلمَ كيف عمَّتِ البلوى، وانشعبتِ الفتنةُ، فَسَدَّتْ عليهم أبوابَ [٦٠] فَهْمِ البلاغةِ وإعجازِ القرآنِ حتّى ظنَّ الباقلّانيُّ[(٢)] ـ رحمه الله، وجزاه خيرًا لِمَـا اجتهدَ في الذَّبِّ عَنِ القُرآنِ ـ أنْ لا بلاغةَ في مثلِ آياتِ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]. ولعمرُكَ هذه آيةٌ عظيمةٌ، لو تأمَّلْتَ نظمَها ودلالةَ نسقِها ومنزلةَ هُداها، و...[(٣)].

= ـ فعيلٍ دالٍّ على سجيَّةٍ نحو: نبيه ونُبَهَاء، كريم وكُرَمَاء، أو مشاركةٍ نحو: جليس وجُلساء، وشريك وشُركاء، ونديم ونُدماء
ـ أو فاعلٍ دالٍّ على صفة عاقل أيضًا، نحو عالم عُلَمَاء، جاهل جُهَلَاء، شاعر شُعَرَاء. ينظر: كتاب سيبويه ٦٣٢/٣

(١) من السريع، ديوان جارِ الله الزّمخشريّ ص٧٦.

(٢) إعجاز القرآن ص٢٠٧. قال الباقلاني: «فإن قال قائل: فقد نجد في آيات من القرآن ما يكون نظمُهُ بخلاف ما وصفت، ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة، وإنما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة، وحد يتجاوز حد الألفاظ المستندة، وإن كان الأكثر على ما وصفته به؟ قيل له: نحن نعلم أنَّ قولَهُ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية = ليس من القبيل الذي يمكن إظهارُ البراعةِ فيه، وإبانةُ الفصاحة عليه، وذاك يجري عندنا مجرى ما يحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب، فلا يمكن إظهار البلاغة فيه، فطلبُها في نحو هذا ضربٌ من الجهالة.».

(٣) بياضٌ في الأصل، لم يقدَّر للفراهي العودةُ إليه وإتمامه. ولعلّه أراد: وحسن ترتيبها، وحسن تناسبها، وقوّة وحدانيتها. إن هذه الأمور الثلاثة تعدّ أسس النظام عنده، وهي مذكورة في كتابه دلائل النظام الذي أنهينا تحقيقه.

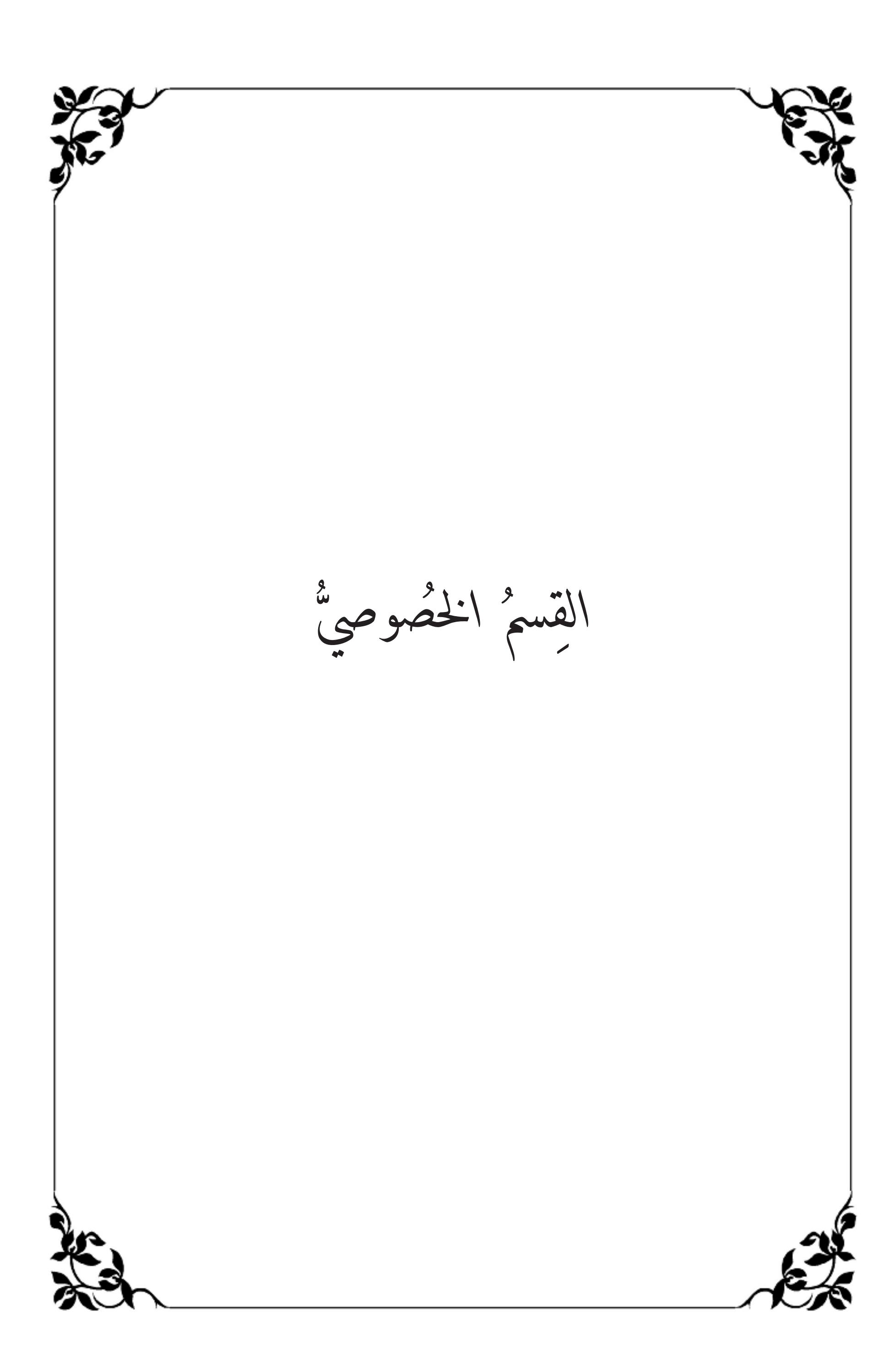
واسِطةُ العِقْد

كلُّ ما مرَّ بك مِن ذِكْرِ محاسنِ الكلامِ إجمالًا تجمعُها كلمةٌ واحدةٌ، وهي أنَّ جمهورَ محاسنِ الكلامِ، والغرضَ الذي تَنزِعُ إليه البلاغةُ = ليس إلّا الصِّدقَ في الشِّعورِ والنِّيَّةِ والنُّطقِ.

وحانَ بنا بعدَ ذلك أن نشرحَ أساليبَ الكلامِ مِنَ الإطنابِ والإيجازِ، والوَصْلِ والفَصْلِ، والتَّصريحِ والكنايةِ وغيرِ ذلك شرحًا بَيِّنًا، ولكنَّا نريدُ أن نختمَ القِسطَ الأوَّلَ، ونبدأَ القِسطَ الثّانيَ بِذِكْرِ بعضِ آثارِ الصِّدقِ والكذبِ على الكلامِ مِن حيثُ ذاتُهُ. دَعْ عنك ما لهما مِنَ الأثرِ العظيمِ على أخلاقِ الأُمَّةِ ومنزلةِ الخطيبِ والشَّاعِرِ بينَ الشُّرفاءِ، فإنَّ هذا البحثَ مع جلالةِ قدْرِهِ لا يليقُ بهذا الكتابِ الخاصِّ بفنِّ البلاغةِ.

فاعلمْ أنَّ الأُمّةَ التي همُّها الصِّدقُ في الكلامِ تَزيدُ كلَّ يومٍ مِن حقائقِ الأشياءِ ما يَسهُلُ بهِ طريقُ البيانِ للمُتأخِّرِ، فاللُّغةُ تَكتسِبُ بذلك وسائلَ وأدواتٍ بها تتكامَلُ وتترقَّى وضاحةً وقوَّةً، والأُمَّةُ التي همُّها الإغراقُ، والوُلُوعُ بالمبالغةِ، والغفلةُ عن حقائقِ الأشياءِ = تملأُ اللِّسانَ بأمورٍ مُبعِدةٍ عن...[1][٦١].

(١) بياضٌ في الأصل، لم يقدَّر للفراهي العودة إليه وإتمامُه. ولعلّه أراد أن تعمّد المبالغة والإغراق يُفضي إلى الغفلة عن حقائق الأشياء، ويُبعد اللسان عن البيان، لمّا كان الصدق في الكلام في مقابل ذلك، يزيد حقائق الأشياء، ويسهّل طريق البيان.



القِسمُ الخُصوصيُّ

١ ـ دلالةُ الوصلِ

لـم أجِدْ في كلامٍ تقريـبَ البعيدَينِ كما وجدتُ في القـرآن؛ يحذِفُ مِنَ القِصَّةِ أُمورًا لا يكـادُ يَحذفُها أحدٌ، ويُوصِلُ الطَّرفَينِ، والغرضُ ليسَ إلَّا صَرْفَ الذِّهـنِ عن أُمـورٍ لا يَعْلقُ بها[١] الغـرضُ، ولكيلا تضيعَ قوَّةُ الذِّهـنِ، وتتفرَّقَ همَّتُهُ، كما ترى في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١]:

١ـ فغضِبَ قومُهُ، وتألَّبُوا عليه، فقالَ: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢].

٢ـ فقالوا: أتتركُ آلهةً كنّا نعبدُ نحن وآباؤنا، وتتَّخذُ إلهًا واحدًا؟ فقالَ: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٣-٢٤].

٣ـ ثم التفتَ إلى المرسلينَ قائلًا: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥].

٤ـ فإذا آمنَ اشتدّ غضَبُ قومِهِ، وألقُوه في عذابٍ،

٥ ـ فأرسلَ الله جُندَهُ من السَّماء، فقلَبَ العذابَ عليهم، ونجَّاه منهُ، ثم

---

(١) في الأصل: لا يعلق به.

قِيلَ لهُ: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦]، فحينئذٍ مُلِئَ قلبُهُ من الشُّكر للهِ لنفسه ومِن الحسرةِ لقومِهِ،

٦ـ فهتفَ، و﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

فهذا بابُ الوصلِ بالمحذوفِ، وإنْ تأمَّلتَ في ذلك علمتَ أنَّ في الحذفِ فائدتينِ أُخريَينِ: الأولى: حذفُ ما يُستكرهُ ذِكْرُهُ؛ ومن ذلك حذفُ أقوالِ الكفَّارِ وأفعالِهم؛ [٦٢] وهو (١ و٢ و٤).

والثانية: حَذفُ ما فيه الشَّغبُ والسُّرعةُ، فحذفُهُ أبلغُ وأوضحُ دلالةً على ما في أصلِ الواقعةِ من كيفيَّةِ القولِ والفعل ومن السُّرعةِ (٣ و٥ و٦).

أمَّا سرعة (٣ و٦) فالأمرُ فيهما ظاهرٌ، وأمَّا (٥) فأخبرَ اللهُ تعالى عن وقوعِهِ بقوله: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾[يس: ٢٩]، فهذا الأمرُ الثّاني ـ أعني الدِّلالةَ على السُّرعةِ، كما بيَّنتُها في فَصْلِ التَّرتيبِ ـ أمرٌ يتعلَّق بالوَصْلِ والحَذْفِ والتَّرتيبِ، فهذهِ الأبوابُ مُشتَبِكةٌ، وإذ قد بدأْنا دلالةَ الحذفِ ووَصْلَ المفصولَيْنِ على السُّرعة، فنذكرُ لها أمثلةً أُخَر، قال امرؤ القيس[1]:

فكـــرَّ إليـــهِ بِمبراتِـــهِ كما خلَّ ظهرَ اللِّسانِ الـمُجِرّْ

فلو لم يَحذفْ، فقال: فكرَّ إليهِ بِمبراتِهِ، فطعنَهُ، كما خلَّ... لم يكنْ صوّرَ السُّرعةَ.

---

(١) من المتقارب، ديوان امرئ القيس ص١٦٢. والبيت في وصف الكلاب والثور.

دلالةُ الوصلِ

بالحذفِ أو تقديمِ المتأخِّر على السُّرعةِ وصِحَّةِ التَّصويرِ وأمورٍ أُخَرَ:

١ـ رُبَّما جَمَعَ حالاتٍ يُخبِرُ عن اتِّصالها وسرعةِ تواليها، كما كَتَبَ قيصرُ مُخبرًا عن فَتْحِهِ: جئتُ، رأيتُ، فتحتُ. فهكذا قال ابنُ زيَّابةَ الحماسيُّ[١]:

يـا لَهْـفَ زيَّابـةَ لِلحـارثِ الـ ـصَّابِحِ فالغانِـمِ فالآيـب

وهذا أحسنُ من كلامِ قيصرَ، فإنَّهُ جمَعَ المجيئةَ والفوزَ والرُّجوعَ. ومثلَ هذا الأسلوبِ ترى في القرآن: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات: ١-٥].

٢ـ ومِن هذا البابِ ما ترى مِن وَصْل إنعامِ الله تعالى بعدَ الاستغفارِ دلالةً على سرعةِ رحمةِ اللهِ تعالى، وأنّ الكرمَ لا يحتملُ المَطْلَ. والأمثلةُ توضِّحُ ما أردتُ: في سورة هود عليه السَّلامُ[٢] في استغفار نوح عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * [٦٣] قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٧-٤٨]. فانظرْ كيف ضمَّ

---

(١) من السريع، شرح ديوان الحماسة للمرزوقـيّ ص١٤٧.

(٢) في الموضعين كُتب بجانب اسم النبيين (علــ) اختصاراً لـ (عليه السلام)، وكذا في كلّ موضع يرد فيه اسم نبيّ من أنبياء الله.

السَّلامَ والبركاتَ بدعائه، وهكذا في سورة ص: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥]، وبعدَ ذلك عِتابٌ منه تعالى، فانظرْ كيفَ أَخَّرَ العِتابَ، وضَمَّ الإنعامَ بالاستغفارِ.

وأحسنُ ما يكونُ ما ترى في أمرِ سُليمانَ عليهِ السَّلامُ، فإنَّه استغفرَ، واستكانَ[١]، فصبَّ الله عليه شآبيبَ[٢] الرَّحمةِ حتَّى إنَّ جمهورَ المفسِّرينَ زعمُوا أنَّ سليمانَ عليهِ السَّلامُ سألَ اللهَ تعالى ذلك، وما أبعدَ سؤالَ أعظمِ النِّعمِ مِنَ الخاشِعِ الـمُتذلِّل! ولكنَّ شدّةَ التَّذلُّلِ تجلبُ أعظمَ النِّعم مِنْ ربٍّ وَدودٍ توَّابٍ، وكانَ عليهِ السَّلامُ أُوتيَ الحِكْمةَ والفهمَ، فسألَ الله تعالى أَلَّا يُعطيَهُ ما يُسلَبُ منه؛ لكونِ غيرِهِ أحقَّ به، فسأل أدونَ شيءٍ ينبغي له حتَّى إنَّهُ لا ينبغي لأحدٍ مِنْ بعدِهِ؛ فيكونَ أحقَّ بِهِ منهُ. (نظام القرآن)[٣].

٣ـ ومن هذا البابِ ما يُرادُ فيهِ الاتِّصالُ والفَصْلُ؛ لأجلِ التَّصوير للواقعةِ، ومثالُهُ في قِصَّةِ نوحٍ عليهِ السَّلامُ، فإنَّ دعاءَ نوحٍ عليه السّلام في ابنِهِ

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٣٠-٤٠].

(٢) الشَّآبيبُ: جمعُ شُؤْبُوبٍ، وهو الدُّفْعةُ مِنَ المطر وغيرِهِ. لسان العرب (شأب).

(٣) نظام القرآن وتفسير الفرقان بالفرقان: كتاب للإمام الفراهي، وربما يُظنّ أن الفراهي أراد الإحالة إليه. لكن ليس في كتابه تفسير لسورة ص، ولعلَّه أراد أن يثبت هذا الكلام في كتابه ذاك.

وردَّه مِنَ اللهِ تعالى، واستغفارَ نوحٍ عليهِ السَّلامُ والاستجابةَ؛ كلُّ ذلك جاءَ متأخِّرًا بعدَ تمامِ الواقِعةِ[١]. ولا شكَّ أنَّ سؤالَ نوحٍ عليهِ السَّلامُ في ابنِهِ كانَ قبلَ غرقِهِ، وقبلَ استواءِ الفُلكِ على الجُوديّ؛ فلو وضعَ هذه الأمورَ في محلِّها الزَّمانيِّ لَتباعَدتْ أجزاءُ التَّصويرِ، ولم يتَّضحْ، حتَّى إنَّكَ لو شئتَ مثَّلْتَهُ على القِرطاسِ. وهذه القِصَّةُ مذكورةٌ في التَّوراةِ مِن أوَّلِها إلى آخرِها[٢]، ومُحالٌ أن يُصوِّرها مصوِّرٌ، أو يُجلِّيَها محاكٍ بالقولِ والنَّصْبِ[٣].

ثم انظُرْ كيفَ أدمجَ القِصَّةَ في خمسِ آياتٍ، وجعلَ الخمسةَ الباقيةَ لدعاءِ نوحٍ ـ عليهِ السَّلامُ ـ والبركةِ، فجمَعَ القِصَّةَ في آياتٍ عشرٍ، وجعلَها صورتَينِ كامِلَتَينِ؛ إحداهُما بجَنْبِ الثَّانيةِ، فهذا هو الوجهُ الصَّحيحُ للتَّقديمِ والتَّأخيرِ، ثُمَّ مِن أحسنِ البيانِ فيه أنَّ هلاكَ ابنِه صُوِّرَ بغتةً وفي أسرعِ حالةٍ، ومعَ ذلكَ هو أبينُ تصويرًا، ولا أدري كيفَ أُلقِيْ في قلبِكَ ما أَجِدُ في قولِه تعالى: ﴿وَحَالَ [٦٤] بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣]، فيتمثَّلُ بينَ يديكَ الطُّوْفانُ والسَّفينةُ: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ [هود: ٤٢]، ثُمَّ، وليَرِنَّ[٤] في أُذنيكَ كلامُ الوالِدِ الذي يحنُّ إليه، ويُلاطفُهُ بقولِهِ: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب

---

(١) يشير إلى الآيات ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

(٢) في الأصل: من أوَّلهِ إلى آخرِهِ.

(٣) النَّصْب: العلامة تُنصَب عند الحدّ أو الغاية. المعجم الوسيط ص٩٦٣.

(٤) لا يصح استعمال حرفي عطف متتابعين، ولا يصح كذلك اعتبارهما حرفي استئناف؛ إذ لا يدخل حرف على حرف من جنسه.

مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[هود: ٤٢]، ثم بقوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[هود: ٤٢]، ثُمَّ يَيْأَسُ، فيقعُ ما يقعُ. ولو رأيتَني حينَ أكتبُ هذهِ الكلماتِ لوجدْتَني باكيًا أردُّ حشرجةَ الصَّدرِ.

وكَمِثلِ هذه السُّرعةِ ترى في قِصَّةِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٤]. ولقد بكيتُ عليها كما أبكيْ اليومَ على هذهِ.

وهاتانِ القِصَّتانِ نوعانِ مختلفانِ مِن تراجيدي[1] التي لا تراها في العربِ والفُرْسِ، وبلغَتْ فيها اليونانُ والهندُ الغايةَ القُصوى، فإنْ كنتَ تعلمُ منها شيئًا فَهِمْتَ ما أردتُ بالمثالِ والنَّصْبِ، وكذلك ترى في جميع القَصَص، إلَّا أنَّها بعضَها لطولها تجمعُ تصاويرَ، وهو مِثلُ أبيق[2] التي تراها في كلامِ فِردوسّي وهومِيروس وكتبِ الأنبياءِ.

وهكذا ترى إدماجَ القِصَّةِ في محاجَّةِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ في إبطالِ عبادةِ الشَّمسِ والنُّجومِ حتَّى إنَّ هذا الأمرَ يُراعَى في الأمثالِ التي ليسَتْ بقِصَّةٍ، بلى إنَّها قِصَّةٌ للخيالِ كما ترى في آيةِ النُّورِ، فإنَّ الأمورَ التي كادتْ تُبْعِدُ عن تَصوُّرِ النُّورِ فَصلَهَا، وأخَّرَها، وختَمَ التَّصويرَ بقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، ثُمَّ ذَكَرَ تتمَّةَ البيانِ التي تَهدِي إلى حالاتِ القُلوبِ، وأمَّا حقيقةُ هذا المثالِ وغايةُ الكمالِ في وَصْلِ الأمرَينِ فنفصِّلُهُ في بحث التَّلخيصِ إن شاءَ اللهُ تعالى.

---

(١) التراجيديا: عملٌ دراميٌّ يصوِّرُ مأساة شخصٍ نبيلٍ.

(٢) كلمة إنكليزية (Epic) بمعنى الملحمة.

فإنْ تأمَّلتَ فيما مرَّ بكَ تبيَّنَ لكَ أنَّ تقديمَ المُتأخِّرِ بابٌ لصِحَّةِ التَّصويرِ، فإنَّ الوقائِعَ غيرُ متأخِّرةٍ كتأخُّرِ أجزاءِ الكلامِ، ولا صورُها مفصولةٌ كفَصْلِ الألفاظِ، فلا بدَّ من تغيُّرٍ في التَّرتيبِ [٦٥].

❊ ❊ ❊

دِلالةُ الفَصْلِ

إنْ سردْتَ الكلامَ سَرْدًا ذهبتَ غافلًا عن بعضِ المعاني، بل رُبَّما بدَّلتَ المعنى، مثلًا إن لم تقفْ على كلمةِ «المرسلين» في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١] =غفلتَ عن قوةِ الدَّليل، وأكَّدتَ على الأمر كأنَّكَ قُلتَ: اتَّبعوا اتَّبعوا، فهذا معَ الغفلةِ يردُّ المعنى مِنَ الأمرَينِ إلى أمرٍ واحدٍ.

فَصْلٌ وَوَصْلٌ بالخيالِ

ثُمَّ الفصلُ يجعلُ الخيالَ جِسْرًا بينَ مَعنيَينِ، فإنْ وصلتَهما لم يكنْ للخيالِ سبيلٌ بينَهُما، فكلُّ فصلٍ زيادةٌ في المعنى؛ كأنَّ الكلامَ وِشاحٌ مُفصَّلٌ بشَذَرٍ من اليَواقيتِ بينَ اللآلِئِ. فهذهِ زيادةُ الخيالِ أحسنُ طُرُقِ الإيجازِ.

وزيادةٌ على الإيجازِ أمرٌ آخرُ؛ وهو أنَّكَ لو أظهرتَ ما أخفيتَ مِنَ الخيالِ، وجعلْتَ بينَ الجزأَينِ اتِّصالًا = ذَهَبْتَ بلينةِ[1] الجزءِ الثَّاني، فلم يُمكنْ وصلُهُ بالثَّالِثِ، إلَّا أَنْ يكونَ بخطٍّ مستقيمٍ معَ الأوَّلَيْنِ. ومثالُ الوِشاحِ يبيِّنُ لك هذا

---

(١) «اللَّيْنَةُ: كالمِسْوَرةِ يُتَوَسَّدُ بِهَا؛ قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: أَرى ذَلِكَ لِلِينِها ووَثارَتها». لسان العرب (لين). فكأنّ الجزء الثاني وسادة يتّكئ عليها الجزء الثالث.

الأمرَ كما أظهرَ الأمرُ الأوَّلُ. فإن شئتَ ألَّا يكونَ فَصْلٌ زِدتَ بينَ كلِّ فصلٍ أمرَينِ، بل رُبَّما أمورًا؛ الأمرَ الأوَّلَ لبيان اتِّصال الجزأينِ، والأمرَ الثّاني لبيان اتِّصالِ الثَّالثِ.

وجملةُ القولِ: إنَّ الكلامَ ـ إذا لم يكنْ على خطٍّ مستقيمٍ ـ لا بدَّ له مِن واصلاتٍ، والفَصلُ رُبَّما هو أحسنُ الواصِلاتِ. ويتَّضحُ لكَ الأمرُ بالمثالِ: في سورة هود في ذِكْرِ جِدالِ قومِ عادٍ بنبيِّهِ هودٍ عليهِ السَّلامُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦]، فهذه ثلاثُ كلماتٍ جِئْنَ بعدَ إعلانِ اليَأْسِ والحربِ مِن هودٍ عليهِ السَّلامُ، فقولُه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ ينطوي [٦٦] على أنِّي لا أُبالي بمكائِدِكُم، فإنَّ اللهَ الذي هو ربِّي وربُّكُم مولائي، فإذا توكَّلتُ عليه فما خوفي مِن أحدٍ. فاتِّصالُ الجزءِ الأوَّلِ بالثَّاني ظاهرٌ.

ثُمَّ قولُه تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ معَ اتِّصالِهِ بالأوَّلِ ينطوي على أنَّهُ ما مِن دابَّةٍ إلَّا سبيلُها إلى اللهِ تعالى، فترجعونَ إليهِ، وعلى أنَّه مَنْ يُعاجِزْهُ قاسى جَذَباتِ العُنُفِ والهُونِ، ومَنْ سلَكَ إلى ربِّه هانَ عليهِ السُّلوكُ، ويُسِّرَ له السَّبيلُ، فقرَّبَ إلى الجزءِ الثّالِثِ؛ لأنَّ مَنْ بيدِهِ نواصي العِبادِ قائمٌ على الصِّراط المستقيمِ، فمَنْ أخذَ هذا الصِّراطَ وجَدَهُ سهلًا، وفازَ. فظهرَ أنَّ الجملةَ الوُسْطى ذاتُ جِهتَينِ، والفَصلُ يُعطي الخيالَ مجالًا للتَّأمُّلِ في أطرافِ القولِ وتوسيعِهِ حتَّى يُبصِرَ بِجِهَتَي الرَّبطِ.

هذا الذي سمَّيتُهُ جسرًا بينَ الأمرَينِ مَظِنَّةُ الاختلافِ الكثيرِ، فإنَّ فَهْمَ

الأمرِ المقدَّرِ يَصعُبُ على مَنْ لا يعتصِمُ بِنِظامِ القُرآنِ، فإنْ غفَلَ عن النِّظامِ يُفتَح عليهِ بابُ الاحتمالاتِ؛ ولذلك تراهم يذكرونَ وُجوهًا كثيرةً لا يُرجِّحُ بعضُها بعضًا. وزيادةً على هذَينِ الأمرَينِ فيه أمرٌ آخرُ يليقُ ببابِ الحذفِ.

٢ ـ حظُّ السَّامِعِ:

اعلمْ أنَّ الكلامَ تنازُعُ الحديثِ، وإنْ سكَتَ السَّامعُ، ويُرَى مُنصِتًا، فإنَّهما يَجريانِ معًا قائِدًا ومَقُودًا، فإذا وقفَ السَّامعُ ـ والمتكلِّمُ جارٍ على رِسْلِهِ ـ ذَهَبَ كلامُهُ ضائِعًا كأنَّهُ لم يتكلَّمْ. فإذا عَلِمْتَ ذلك تبيَّنَ لكَ شِدَّةُ الحاجةِ إلى رعايةِ جانِبِ السَّامِعِ، وهُدِيتَ إلى حكمةِ أساليبَ لم تكنْ للكلامِ لولا هذا الأصلُ الرَّاسِخُ.

والآنَ نذكرُ منها عيونَها، فمِنْها الاستفهامُ؛ لينتبهَ السَّامِعِ، ومنها السُّكوتُ؛ ليستريحَ، ومنها بعض الحذفِ؛ ليصيرَ السَّامِعُ مُتكلِّمًا في نفسِهِ، فيُعمِلَ عَقلَهُ، ومنها مُنبِّهاتُ الرَّغْبةِ والنَّفْرة، ومنها الالتفاتُ؛ لينتبِهَ بما أحسَّ مِن تجديدٍ، ومنها التَّمثيلُ؛ ليُشاهِدَ محسوسًا، [٦٧] فيَنْتَبِهَ مِنْ رَقدَتِهِ، ومنها كُلُّ تبدُّلٍ مِنَ الحركاتِ والالتفاتِ ومُهيجاتِ الضَّحكِ والحزْنِ. فهذهِ الأمورُ معَ فوائِدِها الأُخَرِ أسبابٌ لانتباهِ السَّامِعِ و...[١].

٣ ـ دلالة الحذف:

قد نعلمُ أنّ في الكلامِ حذفًا جاريًا في مثلِ: صبرًا[٢]، والأسدَ الأسدَ[٣]،

---

(١) بياض في الأصل، لم يقدَّر للفراهي إتمامُه. ولعله أراد: ولعدم ضياع كلام المتكلِّم.

(٢) أي في المصدر النائب عن فعله. ينظر: الكتاب ٣١٨/١ وما بعدها.

(٣) أي في أسلوب الإغراء والتحذير. ينظر: الكتاب ٢٧٣/١ وما بعدها.

وفي جواب السُّؤالِ [وغيره][(١)] ولكنَّا وجدْنا غيَرَ هذهِ كلِّها حذفًا يُخبِرُ عن شِدَّةِ الأمرِ، كما تجدُ الواثِبَ يَسكُنُ قبلَ الوُثوبِ، والرِّيحَ تهدأُ[(٢)] قبلَ الزَّوبعةِ؛ فالحذفُ يُنبِئُ عن كلامٍ سَكَتَ عنه المتكلِّمُ لرِفْعتِهِ أو شِدَّته أو سَعتِهِ. مثالُهُ في سورة القَدْرِ: ﴿سَلَٰمٌ﴾ [القدر: ٥]، وفي سورة الأحقاف: ﴿بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فلو ضَمَمْتَ معَهُما ما يجعلُهما تمامًا صيَّرتَهما أوهنَ. وفي سورة الأحقاف: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. فلو قال: هذهِ ريحٌ =ذهبَ من الكلامِ شِدَّتُهُ. وقالَ النَّابِغةُ الذُّبْيانيُّ يرثي حِصْنًا[(٣)]:

يَقُولُونَ: حِصْنٌ، ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ... وكيفَ بحِصْنٍ والجِبَالُ جُمُوحُ[(٤)]

ولم تلفِظِ المَوْتَى القُبُورُ، وَلَمْ تَزَلْ ... نُجُومُ السَّماءِ والأَدِيمُ صَحِيحُ

الأديمُ: أرادَ به الأرضَ.

ومِنَ الحذفِ الذي يتَّصِلُ بالنَّحو، ولم يَهتدِ إليه النَّحويُّون[(٥)]؛ فمنه الحذفُ

---

(١) زيادة منّا. وفي الأصل بياضٌ، ولعل الفراهي أراد أن يذكر بعضا من مواضع الحذف، لكن لم يقدَّر له العودة إلى الكتاب وإتمامه.

(٢) في الأصل: تهدء.

(٣) هو حصن بن حذيفة الفزاري، كان سيدا في الجاهلية، وله عشرة أولاد، وأوصى برئاسة قومه من بعده لولده عيينة بن حصن. ينظر:

(٤) من الطويل، ديوان النابغة الذبيانيّ ص١٩٠. والرواية فيه: جنوح بدل جموح. ولم تلفظ الأرض القبور.

(٥) ما ذكره هنا يعد من الأمور البدهية اليسيرة في النحو، وكلام النحاة عليها كثير، يكاد يكون كحديثهم عن أن الفاعل مرفوعٌ. والحذف في ما أورد من أمثلة وما كان على مثالها إنما جاز؛ لأن واو العطف أغنت عن التكرار في المثال: ذهب زيدٌ وعمرٌو، وأغنى الضمير عن إعادة الاسم في المثال الثاني: صلى زيدٌ وصامَ.

مِن المعطوفِ بعضَ ما في المعطوفِ عليهِ، وبالعكسِ، ومبناهُ ظاهرٌ، فإنَّك تَحْذِفُ مِنَ المعطوفِ فعلَهُ، مِثلُ: ذهبَ زيدٌ وعمرٌو، أو اسمَهُ، مثلُ: صلَّى زيدٌ وصامَ. فمَن هذا الأصلِ يتفرَّعُ ما أوردُ أمثلَتَهُ[١]، فمِنها قولُهُ تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، والمرادُ: يسبِّحُ الرَّعدُ بحمدِهِ مِن خِيْفَتِهِ، وتُسبِّحُ الملائِكةُ بحمدِهِ مِن خِيْفَتِهِ. وكذلك ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨]، والمرادُ يا نوحُ اهبِطْ بسلامٍ مِنَّا عليكَ، وبركاتٍ مِنَّا عليكَ [٦٨].

* * *

تذكرة

مواقع الحذف: يحذف الفعل الذي يُعتمَد عليه، كما قالت الخرنقُ[٢]:

وبعدَ بني ضُبيعةَ حولَ بِشْرٍ ... كما مالَ الجُذُوعُ مِنَ الحريقِ

وتُحذَف «كما» هذه أيضًا، قالت الخرنق أيضًا[٣]:

لاقُوا غداةَ قُلابَ حَتفَهُمُ ... سوقَ العَتِيرِ يُساقُ للعِتْرِ

أيْ: سِيقوا للحَتفِ كما يُساق العَتِير للعِتر.

---

(١) الأمثلة التي ذكرها وما كان على مثالها سماها البلاغيون الاحتباك، وهو أن يُحْذَفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابلُهُ في الأواخر، ويُحْذَفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابلُهُ في الأوائل. ينظر: البلاغة العربية ٥٤/٢، القاعدة النحوية في ضوء علم المعاني ص١٩٤

(٢) من الوافر، ديوان الخرنق ص٤٠

(٣) من الكامل، ديوان الخرنق ص٤٧. والعتر: الذبحُ.

٤ ـ من حسنِ التَّرتيبِ إدراجُ الدَّليلِ:

كمْ رأيْنا في القرآنِ مِن إدراجِ الدَّليلِ في طيِّ الكلامِ غيرَ مصرَّحٍ به؛ لأنَّ الـمُخاطَبَ إذا أحسَّ بأنَّك تُريدُ إثباتَ شيءٍ أخذَتْهُ النَّفْرةُ، ولكنَّه إذا جاءَ مَطويًّا أثَّرَ في قلبِهِ، مثالُهُ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١]، فنبَّهَ على أنَّهم يدعونَكُم من غيرِ غَرَضٍ لهم، وعدمُ الغرَضِ لا يكفي للاتِّباعِ لِمَنْ ضَلَّت نفسُهُ[1]، ولكنَّهُم مهتدونَ. فهذا بيانُ الدَّليلِ ليسَ بطريقِ الاحتجاجِ، بل على سبيلِ الاستمالةِ، ألا ترى كيفَ خاطَبَهُم بكلامِ المودَّةِ، فقال: ﴿يَـٰقَوۡمِ﴾، وأيضًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَـٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ * لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ * وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [سبأ: ٣-٥].

فانظرْ كيفَ وَضَعَ القولَ مَوضِعَ القسَمِ، وعندَ العربِ أَمرُ القسمِ عظيمٌ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ صفةِ اللهِ ما لا يُنكرُهُ أحدٌ ولا سيَّما العربِ، ثُمَّ [٦٩] أتى بأوجزِ لفظٍ، وكانُوا مُؤمِنينَ له، ولكنْ فسَّرَهُ بطريقٍ قرَّبَ أمرَ الجزاءِ، فإنَّ وضعَ كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ في كتابٍ من غيرِ جزاءٍ يكون عَبَثًا، ثُمَّ فَصَّلَ أَمْرَ الجزاءِ، ولم يذكرِ النَّتيجةَ، فإنَّ الجزاءَ لا يكونُ إلَّا بإتيانِ السَّاعةِ، فتركَهُمْ وعَقْلَهُم، وصوَّر في بيانِ الجزاءِ حالةَ المؤمنينَ والـمُنكرِينَ، فختمَ الكلامَ على الاستمالةِ

---

(١) في الأصل: ضلَّ نفسه.

والتَّخويفِ، وبدأَ بالقَسَمِ، وهما مِنَ الأمورِ النَّفْسانيّةِ المؤثِّرةِ، وأدرجَ بينهما الدَّليلَ، ووصلَهُ، ثُمَّ عبَّرَ عنهُ بألطفِ أسلوبٍ حتَّى لا ترى الكلامَ إلَّا أمرًا واحدًا.

* * *

تذكِرةٌ
التَّرتيبُ في النَّسَقِ

إذا ذُكِرَتْ أمورٌ فالتّرتيب له وجوهٌ، فمنها صاعِدٌ، ومنها هابِطٌ، ومنها جمعُها لتكونَ كالحلقةِ، ومنها التَّقابُلُ، ومنها جمعُ المتقابلَينِ ونشرُهُما، ومنها رعايةُ التَّناسُبِ. والتَّناسُبُ أنواعٌ، ونبيِّنُ لك هذهِ الأنواعَ بالأمثلةِ: فتأمَّل قولَهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، فالرَّفعُ والنَّصبُ والسَّطحُ[1] هابِطٌ، ولكنَّه مِنَ النَّوعِ الثَّالِثِ، فبدأَ بشيءٍ على الأرضِ مِنْ أقربِ الأشياءِ مِنْهم، فحسُنَ به الابتداءُ، فإذا رفعوا النَّظرَ إليه ساقَهُ إلى العُلوِّ، فإذا بلغَ النِّهايةَ ردَّهُ إلى الهبوطِ تدريجًا، فصارَ السَّيرُ كالحلقةِ، ففي هذه الآيةِ أمثلةٌ لأنواعِ التَّرتيبِ.

* * *

---

(١) يشير إلى الأفعال (رُفعتْ، ونُصبتْ، وسُطحتْ) في الآيات اللاحقة ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٨-٢٠].

٥ ـ المقابلة:

قد سَبَقَ إِجمالُ القولِ في المقابلةِ، والآنَ نُفصِّلُ بعضَ ما فيها من العَوْنِ على البيانِ، ونلتفتُ إليها مِن جِهة البديع الـمَحضِ، بل نعدُّ أسبابَ الدِّلالةِ فيها، فمِنْها:

ـ الوضوحُ، فإنَّ الشَّيءَ ـ كما علمتَ ـ بضدِّهِ يَتبيَّنُ.

ـ والسَّعةُ، فإنَّ في جمعِ الضِّدَّينِ حيازةً وإحاطةً، كقولهم: [٧٠] العربُ والعَجَمُ، والدَّارِع والحاسِر، والسِّرُّ والعَلانِيَةُ، والرِّضا والغَضَبُ، والغنى والفَقرُ.

ـ والاعتدالُ التَّامُّ بنفيِ الطَّرفَينِ، كما تقولُ: لا حارٌّ ولا بارِدٌ، ولا شرقيَّةٌ ولا غربيَّةٌ.

ـ الدِّلالةُ على ما خَفِيَ في الـمُتقابِلَينِ على سبيل التَّعاكُسِ، كما مرَّ في بابِ الحذفِ.

الاستثناء

مِنَ المقابلةِ الاستثناءُ، فإنَّكَ[١] بالاستثناءِ تُوضِّحُ، وتحيطُ، وتدُلُّ على الاعتدالِ، وعلى ما خَفِيَ من جانِبَي الإيجابِ والسَّلبِ. ونُريكَ هذه الأمورَ بالأمثلةِ[٢]، قالَ النَّابِغةُ[٣]:

(١) في الأصل: فإنّ.

(٢) الأمثلة التي أوردها استثناء منقطع، وتفيد تأكيد المدح بما يشبه الذمّ، ولا شك أنه أمدح وأكثر تأثيرا من المدح الصريح. ينظر: مفتاح العلوم ص٤٢٧، وعروس الأفراح ٢/٢٦٩-٢٧١

(٣) من الطويل، ديوان النّابغة الذُّبيانيّ ص٤٤.

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائِبِ

والاستثناءُ أوضحُ دلالةً على الإحاطةِ والمبالغةِ. ومِن جِنس هذا الشِّعر المشهورِ ما قالَ حاتمٌ الطَّائيُّ(١):

وما تشتكيني جارتِي غيرَ أنَّها إذا غابَ عنها زوجُها لا أزورُها.

٦ ـ باب في انتهاز الفرصة:

اعلمْ أنَّ للَّفظِ مثلَ سائرِ التَّدابيرِ محلًّا وموقِعًا إنْ فاتَهُ ذَهَبَ مُضَيَّعًا، ولو أُتقِنَ كلَّ الإتقانِ. وهذا بابٌ وسيعٌ، ولكنِّي هَهُنا أُريدُ موقعَ اللَّفظِ في الكلامِ، فإنَّك تجدُ بينَ أجزاءِ حديثٍ جارٍ أُلقيَ = كلامًا(٢)، بل لفظةً لا يكادُ يُلقيها(٣) كُلُّ متكلِّمٍ. وهذا الجزءُ المندرِجُ هو الذي يُسمُّونَه جملةً مُعترِضَةً، ولكنَّكَ ستعلمُ أنَّهُ رُبَّما لا يزيدُ على كلمةٍ واحدةٍ، فشأنُ هذهِ الـمُعتَرضةِ ليسَ بهيِّنٍ؛ فإنَّ لها مواقعَ خفيّةً لا يفطَنُ لها إلَّا الذَّكِيُّ المتوقِّدُ، فمتى ما وجَدَ لها فرصةً انتهزَ لها، حتَّى إنَّهُ إنْ فاتَتْهُ الفرصةُ، ثُمَّ تذكَّرَها =نَدِمَ على فَوَاتِها. ولكي يتبيَّنَ ما قلتُ لكَ [٧١] أُورد ههنا أمثلةً: قال نابغةُ بني ذبيانَ(٤):

نُبِّئتُ نُعْمًا على الـهجْرانِ عاتِبةً سَقيًا ورَعيًا لذاكَ العَاتِبِ الزَّاري

فلو تركَ المِصراعَ الثَّاني، ومرَّ في الكلامِ يصفُها أو يشكيها = لم يرتفِعْ مِنَ الدَّرجةِ الوُسطى، ثُمَّ أضافَ كلمةَ «الزَّاري»، فأكَّد بها المقابلةَ بينَ الدُّعاءِ

(١) من الطويل، ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطّائيّ ص٢٣٢.
(٢) في الأصل: كلامٌ.
(٣) في الأصل: يلقيه.
(٤) من البسيط، ديوان النّابغة الذُّبيانيّ ص٢٠٢. والرواية فيه: أنبئتُ.

والعِتابِ، فهي مِثالٌ لِمَا قُلتُ لكَ: إنَّ الـمُعتَرِضةَ رُبَّما تكونُ كلمةً واحدةً، وخذْ مِثالًا آخرَ من كلامِه[(١)]:

إِنَّ الـحُمُولَ التي راحَتْ مُهجِّرةً   يَتبَعْنَ كلَّ سفيهِ الرَّأيِ مِغيارِ[(٢)]

لم تكن له حاجةٌ باديةٌ إلى أن يزيدَ على المِغيار كلمةَ «سفيه الرَّأي»، وإنِّي أتعجَّبُ من نابغةَ هذهِ الكلمةَ الواحدةَ مثلَما أتعجَّبُ منه إيرادَ هذا حديث المغيار، فإنِّي رأيتُ الشُّعراءَ لَهَجُوا بذكرِ البَأْسِ والـمنعَةِ دونَ معشوقِهِم، أو عداوةِ الـحُماة وحَنَقِهِم، ولكنَّ النَّابغةَ تَرَكَ تلك الأمورَ المبتذلَةَ، وأخذَ ما هو ملاكُ الأمرِ، ثُمَّ زادَ عليهِ سَفاهةَ الرَّأيِ؛ لتأكيدِ سُوءِ الظَّنِّ، ثُمَّ لم يقُلْ: إنَّ ذا رَحِمٌ له مغيارٌ وسفيهُ الرَّأيِ، فتظنُّ أنَّ ذلك أمرٌ وقَعَ مِنَ الاتِّفاقِ، بل جعلَ هذا الـمِغيارَ أميرَ الرِّفقةِ، فوصْفُهُ بسفاهةِ الرَّأيِ ليسَ إلَّا مجازًا لِمَا هو لا يرضى من غيرتِهِ، وشدَّةُ الغيرةِ تُفصح عن الحُسنِ، فالبيتُ حقيقةٌ في شِكايةِ الحَرسِ، وكنايةٌ عَنِ الحُسْنِ.

وكانَ[(٣)] العربُ منتبهيَن لهذا الإدراجِ، فلهجَتْ به فُصحاؤُهُم، وطَرِبَتْ له أذهانُهُم، وكانَ النَّابغةُ هذا أسبقَهُم في هذهِ الصَّنعةِ حتَّى إنَّكَ ترى مَنْ قدَّمَهُ على سائرِ الشُّعراءِ؛ قدَّمَهُ بأبياتٍ ليسَ في أكثرِها إلَّا تلكَ الصَّنعةُ، فمنها قولُهُ[(٤)]:

---

(١) من البسيط، ديوان النابغة الذبياني ص٥٠ (تحقيق كرم البستاني)، وليس في طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) الحمول: الهوادج، وأردا بها النساء. راحت مهجرة؛ أي سارت وقت الهجير، وهو شدَّة الحرِّ. مغيار: غيور.

(٣) في الأصل: كانت.

(٤) من الطويل، ديوان النّابغة الذُّبيانيّ ص٧٢.

حَلَفْـتُ فلـمْ أترُكْ لنفسِـكَ رِيبةً ... وليـسَ وراءَ اللهِ للمـرءِ مَذهَـبُ

فالمِصراعُ الثَّاني ليسَ ممّا يُذكَرُ بعدَ الحَلْفِ، فإنَّا رأيْناهمْ حلفُوا كثيرًا، ولم يَذكُرْ أحدٌ مِنهم هذا الأمرَ. قال امرؤ القيس[1] [٧٢]:

فقلتُ: يمـينُ اللهِ أبرحُ قاعدًا ... ولو قطَّعوا رأسي لديكِ وأوصالي

ألا ترى أنَّهُ أكَّدَ نفسَ القولِ، ولم يؤكِّدِ اليمينَ، فسبَقَ نابغةَ بزيادةِ جملةٍ وَجَدَ لها موضعًا لم يَهتدِ إليهِ غيرُهُ. وفي هذهِ القصيدةِ بعدَ بيتٍ واحدٍ قولُهُ الـمُـستجادُ المشهورُ، وكان حمَّاد الرَّواية يقدِّمُهُ لهذا البيتِ[2]:

ولسْـتَ بِـمُسْـتَبِقٍ أخًا لا تَلمُّهُ ... على شَعَثٍ، أيُّ الرِّجالِ المهذَّبُ؟

ولعلَّكَ تعلمُ أنَّ المُهذَّبَ هو الكامِلُ التَّهذيبِ، ولو قالَ «مهذَّب» لكان خطأً. ولكنَّ براعةَ هذا الشِّعرِ في هذا الخيالِ لا في نفسِ حرفِ المعرفةِ[3] كما ظنَّ الجرجانيُّ[4]، وهو يقولُ يصفُ امرأةً[5]:

لـو أنَّهـا عَرَضَتْ لِأَشْـمَطَ راهِبٍ ... يدعـو الإلهَ صَرُورةً متعبِّـدِ[6]

لَصَبـا لِبَهْجَتِهـا وطِيـبِ حَديثِهـا ... (ولخَـالَهُ رَشَـدًا وإنْ لـم يَرشُـدِ)

---

(١) من الطويل، ديوان امرئ القيس ص٣٢.

(٢) من الطويل، ديوان النّابغة الذُّبيانيّ ص٧٤.

(٣) المراد بحرف المعرفة هو أل التعريف التي تفيد معنى الكمال هنا.

(٤) دلائل الإعجاز ص١٨٥ و١٩١-١٩٢

(٥) من الكامل، ديوان النابغة الذبيانيّ ص٩٥-٩٦.

(٦) الأشمط: الأشيب. الصَّرُورة: اللازم لصومعتِهِ لا يريد حجًّا ولا غيره؛ وإنَّما عَنَى نصارى الشَّام الذين لا يعرفون الحجَّ. وقيل: الصَّرورة ههنا الذي لا يأتي النساء. وقيل: هو الذي لم يُذنِب قطّ.

«لخالَهُ رَشَدًا» ضَمُّ أمرٍ زائدٍ، ولكنَّهُ أبلغَ الشِّعرَ ذُروةَ الكمالِ. ثُمَّ قولُهُ: «وإن لم يَرشُد» أدقُّ مسلكًا، فإنَّهُ جلَّى شبهةَ كونِ الرَّاهبِ لطيفًا بها رحيمًا عليها، معَ سلامة قلبِهِ.

مَـنْ مُبلِـغٌ عَمـرَو بـنَ هنـدٍ آيةً؟ (ومِنَ النَّصيحةِ كَثرةُ الإنذارِ)[1]

ألا ترى كيفَ أخرجَ الوعيدَ مخرَجَ الشَّفقةِ، وفيهِ استخفافٌ وعُلوٌّ؛ وكأنَّهُ يُوعدُهُ إيعادَ كبيرٍ ينصحُ إشفاقًا، ويستنكِفُ عن ظُلمِ الضُّعفاءِ.

فمـا الفـراتُ إذا هـبَّ الرِّيـاحُ لهُ تـرمي أواذيُّـهُ العِبرَيـنِ بالزَّبَدِ[2]

يَمُـدُّه كلُّ وادٍ مُـتَرِعٍ لجِـبٍ فيهِ رُكامٌ من اليَنبُوتِ والخَضَدِ[3]

يظلُّ مِـنْ خوفِهِ المـلَّاحُ مُعتصِمًا بالخَيزُرانـةِ بعدَ الأَيـنِ والنَّجَدِ[4]

يومًـا بأجـودَ منـهُ سَـيبَ نافلـةٍ (ولا يَحُـولُ عطاءُ اليومِ دونَ غَدِ)

هذا الانتهازُ من بابِ الاستثناءِ المُستملَحِ والتَّتميمِ[5]، فإنَّ بابَ الانتهازِ [٧٣]

---

(١) من الكامل، ديوان النابغة الذبيانيّ ص١٦٧.

(٢) من البسيط، ديوان النابغة الذبيانيّ ص٢٦-٢٧. الأواذيّ: الأمواج. والعِبران: مثنى العِبر، وهو الجانب.

(٣) المُتَرِع: المملوء. اللَّجِب: المصوِّت؛ لشدّة جريه وقوة سَيْله. الينبُوت والخَضَد: نبتان. وقيل: الينبُوت شجر الخرُّوب، والخضَد كلّ ما تكسَّر من الشَّجر وغيره.

(٤) الخيزرانة هنا: سكّان السفينة. الأَيْن: النَّصَبُ والإعياء. النَّجَد: العَرَق والكَرب.

(٥) التتميم هو الإتيان بفضلةٍ مفيدةٍ في كلامٍ لا يُوهمُ خلافَ المقصود نحو قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. فـ ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ فضلة مفيدة جاءَت تتميماً حصلت به المبالغة في أنَّهم حريصون جدًّا على إطعام الطعام على الرغم من حبِّهِمْ له، وتعلُّقِ شَهْوَتِهم به. ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٢١٢/٣، وعروس الأفراح ٦١٤/١، والبلاغة العربية ٨٨/٢.

جامعٌ الأبوابَ مِنَ المحاسنِ، وليسَ ذلك مستقصًى في الاعتِراضِ.

ومن الانتهازِ تقديمُ قولٍ تحفُّظًا وكراهيةً لِمَا يتلوهُ، وإلقاءٌ له إلى السَّامِعِ، وهو ينتظرُ كلامًا غيرَهُ؛ كما قالَ نابغةُ بني جَعْدَةَ[١]:

أَلَا زَعَمَتْ بَنُو كَعْبٍ بأني ـ أَلا كَذَبُوا ـ كبيرُ السِّنِّ فانِ

ومن هذا البابِ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢] [الأنعام: ١٠٠]. ومِنْ هذا البابِ قولُ طرفةَ[٣]:

فَسَقَى ديارَكَ غيرَ مُفْسِدِها صَوْبُ الرَّبيعِ وديمةٌ تَهمي

ما يُشبِهُ انتهازَ الفُرصةِ في القُرآنِ:

لعلَّك تذكرُ ما بيَّنْتُ في بابِ انتهازِ الفُرصةِ مِن حُسْنِ الأداءِ وحُسْنِ موقعِ الكلامِ. والآنَ نُشيرُ إلى أمثلةٍ مِنَ القرآنِ، فإنَّهُ بلغَ غايةً يَحسُرُ البليغُ دونَ خيالِهِ، فمِنها ما جاءَ في الأحقاف: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١]، فبهذه[٤] الجملةِ المُعترِضةِ بيَّنَ لهم أنَّهم أقلُّ عُذرًا من قومِ عادٍ، فإنَّ قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ ليسَ مِن كلامِ هودٍ عليهِ السَّلامُ، ولكنَّ الكلامَ نبَّهَهُم

---

(١) من الوافر، ديوان النابغة الجَعديّ ص١٧٩.

(٢) في الأصل: عمَّا يشركون. وهو توهُّمٌ.

(٣) من الكامل، ديوان طرفة بن العبد ص١٠٤. وروايته: فسقى بلادَكَ. غير مفسدها؛ أي نافع غير ضارٍّ. صوب الربيع: وقعُهُ. ديمةٌ: غيثٌ دائمٌ في لينٍ. تهمي: تسيلُ.

(٤) في الأصل: فهذه.

على أنَّ النُّذرَ توالَتْ، فكانَتْ قبلَ عادٍ، وبعدَ عادٍ، وعلى عادٍ.

ومِنها قولُ داود: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ومنها قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. فقوله تعالى ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أدخَلَ كلمةً خفيفةً، وفيها الحجَّةُ الدَّامغةُ، فلم يُصرِّحْ بالاحتجاجِ. انظر باب إدراج الدَّليل[١] [٧٤].

٧ ـ المجازُ والكِنايةُ والتَّشبيهُ:

الكِنايةُ ليسَتْ بأصلٍ، إنمَّا هي فَرْعٌ مِن ذِكْرِ الشَّيءِ بالشَّيءِ لِمَا بينَهُما مِنَ الرِّباط. ذَكَرَ أيَّامَ البَرِدِ، فقال[٢]:

. . . . إذا وَرَقُ الطَّلْحِ الطِّوالُ تحسَّرا

فلو قال: إذا كان البردُ، لم يبيِّنْ صورتَهُ، فإنَّ للشَّيءِ الواحِدِ وُجوهًا، ولا يَذكُرُ اسمُ الشَّيءِ كلَّ هيئاتِهِ، ولا أحسنَها، ولا أكبرَها، ولا أوضحَها، ولا أبلغَها، فقولُكَ: هو عظيمُ الرَّمادِ =يَذكُرُ أوضحَ هيئاتِه وأشرفَها. وقولُكَ: هو طويلُ النّجادِ =يَذْكُرُ أحسنَ صورتِه. وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الآية [الفرقان: ٦٣] = يذكرُ أكملَ هيئاتِهِم وأوضحَها وأحسنَها، ولا يذكرُ كلَّها. والبليغُ يَذكُرُ الشَّيءَ بأحسنَ ذِكْرٍ مَدْحًا وذَمًّا، فإنَّ الذَّمَّ رُبَّما يكونُ بما لا يَقبُحُ ذِكرُهُ، وإنْ قَبُحَ سِرُّهُ، والذِّكرُ القبيحُ لا

---

(١) ينظر: ص ٢٢٥.

(٢) من الطويل، عجزُ بيت لحاتم الطائيّ في ديوانه ص٢٥٦ صدره:
وإنِّي لَيغشى أبعدُ الحيِّ جَفْنَتِي...... وقد سبق ص ١٦٨.

يليقُ بالأحرارِ والـمُتَّقينَ. وأمَّا ذِكْرُ القُبْحِ فلا بدَّ مِنه في أكثرِ الكلامِ، وللحُسْنِ والقُبْحِ وجوهٌ ودَرَجاتٌ، فإذا ذُكِرَ الشَّيءُ بأحسنِ ذكرٍ وأصلحِهِ لم يشمئِزَّ السَّمعُ عنه، ونَشِطَ لهُ، وتلقَّاه القلبُ، فالتَّشبيهُ ليسَ إلَّا ذِكْرَ صِفةِ الشَّيءِ بما يُبيِّنُ أكملَها أو أحسنَها أو أبينَها.

فلا بدَّ في التَّشبيهِ من رعايةِ حُسنِ الذِّكرِ والبيانِ، والشَّاعِرُ مُولَعٌ بالذِّكرِ الحسَنِ، دعْ عنكَ بذاءةَ اللِّسانِ والـخَنا(١) مِنَ الشُّعراءِ كما تراهُ في مناقضاتِ الجرير والفرزدقِ والأخطلِ، فإنَّهم فيها أجدرُ باسمِ الشَّيطانِ مِنهم بالشَّاعرِ، وقد صدَقُوا فيما أخبروا أنَّ لهم شياطينَ(٢)، ولعلَّهم تابُوا عنها، وإنِّي أذكُرُ مِنَ الفرزدقِ توبتَه حيثُ قال(٣):

[أَطَعْتُكَ يا إبْلِيسُ سِبْعِينَ حِجَّةً فلمَّا انْتَهى شَيْبِي وتَمَّ تَمَامي

فَرَرْتُ إلى رَبِّي، وأَيْقَنْتُ أَنَّني مُلاقٍ لِأَيَّامِ المَنُونِ حِمَامِي]

فلا أستثني مِنْ قَولي بأنَّ الشَّاعِرَ مُولَعٌ بالجميلِ، فكلُّ ما يَذكُرُه يُلبِسُهُ لِباسًا أَنيقًا بَهِيجًا، وهذا لا يُمكنُهُ إلَّا لِسببَينِ: إمَّا أنْ يأخذَ مِن أحوالِ الشَّيءِ ما يكونُ حَسَنًا وبيانًا للشَّيءِ، فيُرِيكَ مِنَ الشَّيءِ طَرَفًا خاصًّا، وهذا لا ينحصِرُ

---

(١) الخَنا: الفُحشُ في الكلامِ.

(٢) ومما اشتهر في ذلك قول أبي النَّجم العجليّ (ديوانه ص١٦١-١٦٢، والشعر والشعراء ٦٠٣/٢) [من الرجز]:

إنِّي وكلَّ شاعرٍ من البَشَرْ شيطانُهُ أُنثى، وشيطاني ذَكَرْ.

(٣) من الطويل، ديوان الفرزدق ٤٠٧/٢. والبيتان سقطا من الأصل، ولعلّ المؤلّف نسيهما فأدرجناهما ههنا، فبدا لنا أنّهما ممّا نظَمَهُ الفرزدق في توبته هاجياً إبليس، وثمة أبيات أخرى في القصيدة تدل على توبته.

بالكنايةِ، بل هِيَ طريقٌ منه، فإنَّ مَطمَحَ البليغِ ليسَ لازمَ الشَّيءِ أو مَلزُومَهُ، إنَّما هو يُريدُ أن يَذكُرَ طرَفًا حَسَنًا وموضِّحًا للشَّيءِ، قُصارى [٧٥] أمرِه الاختيارُ، فإنَّهُ رُبَّما يذكُرُ قِصَّةً، فيأخذُ منها شيئًا، ويتركُ أشياءَ، بل يضمُّ بها مِنَ المعاني العاليةِ ما ليسَ بجزءٍ مِنَ القِصَّةِ، ولكنْ يَراهُ العاقِلُ على طرفٍ مِنها لذكائِهِ، فيضمُّهُ بها، ويُدرِجُهُ فيها، كما تَرى في قَصَص القرآنِ وغيرِهِ على تفاوُتِ المراتبِ، فهذا هو السَّببُ الأوَّلُ.

وأمَّا السَّببُ الثَّاني إلى الذِّكرِ الحسَنِ البيِّنِ فهو[١] أن يذكُرَ صِفاتِ الشَّيءِ بِذِكْرِ شيءٍ آخرَ، فيجعلَ هذا لباسًا وصورةً لذاكَ؛ لأجلِ الإيضاحِ وحُسْنِ الذِّكرِ، والتَّأكيدُ والمبالغةُ من فروعِ الإيضاحِ، كما أنَّ بعضَ الإشارةِ والكنايةِ مِن فُروعِ حُسْنِ الذِّكرِ؛ لأنَّ بعضَ الأمرِ يَقبُحُ ذِكْرُهُ جَهْرًا لمروءةٍ أو حكمةٍ، فيُكتَفَى بلَمْحةٍ مِنه.

دلالةُ المجازِ في الأزمِنةِ

إذا أردتَ أن تُصوِّرَ شيئًا غائبًا ماضيًا تَستعمِلُ لهُ الحالَ، فالحالُ أشدُّ تصويرًا مِنَ الماضي. ولكنَّكَ إذا أردتَ أن تُصوِّرَ أمرًا غائبًا في المستقبلِ تَستعمِلُ الماضيَ، كأنَّكَ تُريدُ أن تجعلَ ما هو كائِنٌ كأنَّهُ قد كانَ، كما ترى في قولِه تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ۞ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ۞ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۞ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۞ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ

---

(١) في الأصل: هو. من دون الفاء الرابطة.

وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۞ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٤٩-٥٤]. فانظرْ كيفَ بدأَ بالحالِ، ثُمَّ ذهبَ إلى/ الاستقبالِ إخبارًا، ثُمَّ لِتمثيلِ الحالاتِ التي أخبرَ عنها جاءَ بالماضي، فإذا فرَغَ عَنِ التَّمثيلِ رَجعَ إلى المستقبلِ، ثُمَّ انظرْ كيفَ إذْ جَعَلَ المستقبلَ ماضيًا أَدْرَجَ فيه الحالَ؛ لِيُصوِّرَ لكَ ما تظنُّهُ غائبًا؛ فقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، وقولُهُ تعالى ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ = إدراجُ الحالِ في الماضي.

والمثالُ للحالِ كثيرٌ في كلامِ النَّاسِ، ونُشيرُ إلى بعضِ أمثلةٍ مِنَ القرآنِ؛ لكي تُوازِنَ [٧٦] حُسْنَ مواقِعِها، فمنها قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]. وقوله تعالى في هذه القصة: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، فهذانِ الحالانِ وقعا في حقِّ محلِّهما، ومعَهُما الأفعالُ الماضيةُ، والوجهُ للاختيارِ أنَّ الحالَ يدُلُّ على الاستمرارِ أكثرَ مِنَ الماضي، فاختارَ الحالَ للأمرِ المستمِرِّ، والماضي لأمرٍ لم يكنْ مُستمِرًّا.

٨ ـ لسان الغيب:

ترى في القرآنِ أقوالًا لا يُذكَرُ قائلُها، وليس لها قائلٌ إلَّا لسانُ الغيبِ، كأنَّ الحقيقةَ نفسَها تمثَّلَتْ وقالَتْ، ومثالُهُ كثير، في سورة الأحقاف﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، فقال زاجِرٌ من الغيب: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. ومنها في سورة ص: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۞ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[ص: ٢٤-٢٥]، فناداهُ

صوتٌ مِنَ الغيبِ يلومُهُ مِن جانبِ ربِّهِ قائلًا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

٩ ـ الإشارةُ[١] والكِنايةُ والتَّعريضُ[٢]:

أ ـ إذا ذُكِرَ شيءٌ على أسلوبِ الإشارةِ كان كاختلاسِ ضَرْبةٍ، فلا يُمكِنُ للسَّامِعِ دَفعُها، فإنَّهُ مشغولٌ بما يَجري إليهِ الكلامُ مُستقيمًا، ثُمَّ رُبَّما يكونُ التَّعريضُ ألطفَ مِنْ أَنْ يعلمَ السَّامِعُ مِن أينَ أتاهُ، فيتأثَّرُ له، ولا يعلمُ كيفَ يدفعُهُ، ثُمَّ في التَّعريضِ حِدَّةٌ ونُفوذٌ كما قالَ[٣]:

. . . . القـولُ يَنفُـذُ ما لا يَنفُـذُ الإِبَرُ

وفي ذلك قِيلَ: الكِنايةُ أبلغُ من التَّصريح[٤]. ثُمَّ أنتَ تستطيعُ [٧٧] أَنْ تجمعَ إشاراتٍ كثيرةً في كلماتٍ قليلةٍ، فلا يستطيعُ السَّامِعُ دفعَها، فإنَّها تُصيبُهُ كسِهامٍ صُبَّتْ عليه من كُلِّ جانِبٍ.

---

(١) يقول ابن رشيق: والإشارةُ من غرائبِ الشِّعرِ ومُلحِهِ، وبلاغةٌ عجيبةٌ، تدلُّ على بُعدِ المرمى وفرطِ المقدرةِ، وليس يأتي بها إلَّا الشَّاعرُ المبرّزُ، والحاذقُ الماهرُ، وهي في كلِّ نوعٍ مِن الكلام لمحةٌ دالَّةٌ، واختصارٌ وتلويحٌ يعرفُ مجملاً، ومعناهُ بعيدٌ مِن ظاهرِ لفظِهِ. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ٣٠٢/١

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ص٧١ و٣٠٦ و٣٥٤ وما بعدها.

(٣) من البسيط، عجزُ بيت للأخطل التغلبيّ في ديوانه ص١٥٠. صدرُهُ:
حتَّى استكانُوا، وهمْ منِّي على مضضٍ.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز ص٧١.

ب ـ الإشارةُ بابٌ عظيمٌ حتَّى إنَّ بعضَهم[١] قال: إنَّ البلاغةَ لَمْحةٌ دالَّةٌ. فكأنَّهُ جَمَعَ أبوابَ البلاغةِ في الإشارةِ، ولا شكَّ أنَّ حاجةَ البلاغةِ شديدةٌ إلى إلقاءِ الكلامِ مِن حيثُ يقبلُهُ السَّامِعُ، فإذا كانَ غيرَ مأمونِ الرَّدِّ يُعرَضُ عليه، ويُكسَى الكلامُ لباسًا غيرَ لباسِهِ المعلومُ، مثلًا إذا قالَ البُهلُولُ[٢] لرجلٍ سألَهُ عن سُكونَتِهِ في المقابِرِ: إنَّهُم قومٌ لا يُؤذُونَ جارَهُمْ، وإذا غِبتُ عنهم لا يغتابونني. فكـأنَّهُ قالَ: إنَّ النَّاسَ في هذا الزَّمانِ أسوأُ مِنَ الأمواتِ، ومَنْ يتَّقِي اللهَ ويحافِظُ على نفسِهِ مضطرٌّ إلى الفِرارِ عنهُمْ [٧٨].

❊ ❊ ❊

---

(١) نسبه المبرد إلى عبَّاس بن صُحار العَبديّ حيثُ سأله معاوية رضي الله عنه عن الاختصار، فقال: «لمحةٌ دالة». يُنظر: الكامل في اللغة والأدب ٢/ ٢٣١. وجاء القول في كثير من كتب البلاغة والنقد غير منسوب، منها مثلًا: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ٣٠٢/١.

(٢) ثمة أسماء كثيرة بهذا الاسم، ولعل المراد هو بهلول بن عمرو الصيرفي أبو وهيب، وهو من عقلاء المجانين، له أخبار ونواد وشعر، ولد ونشأ في الكوفة، واستقدمه هارون الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه، كان في منشأه من المتأدبين، ثم وسوس فعرف بالمجنون. الأعلام ٧٧/٢. وانظر بعض طرائفه في البيان والتبيين ٢٣٠/٢.



مباحِثُ مُتفرِّقةٌ

صرف الكلام عن سُنَّتِهِ

إذا اجتمعَ أبوابٌ مِنَ الأساليبِ، وفي أَخْذِ بعضِها تَرْكٌ لغيرِهِ، فيُؤخذُ بالأَوْلى، ومِن هُنا لَزِمَ ترتيبُها حسبَ تقدُّمِها، فالتَّقابُل يُترَكُ إذا كان وضوحُ الكلامِ بدونِهِ، مثلًا قولُهُ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ [النِّساء: ٨٠]، فتَركَ التَّقابُلَ، ولم يقُلْ: ومَنْ عصى، وهذا كثيرٌ.

وكذلكَ السَّجعُ يُترَكُ لوجوهٍ، والقاعدةُ أنَّ كلَّ ما كانَ أولى باستقامةِ الكلامِ وبلاغتِهِ بالذَّاتِ يُراعَى دونَ ما كانَ مجلوبًا بالواسطةِ، مثلًا: إنَّ التَّقابُلَ يُوضِّحُ المعنى بواسطة التَّقابُلِ ورَجْعِ الفِكرِ بينَ الضِّدَّينِ.

الجُملةُ المُعترِضةُ

الجملةُ المُعتَرِضةُ لا بُدَّ مِنْ وضعِها في محلِّها الذي تُوضَعُ فيه لوجوهٍ خاصَّةٍ، فلا بُدَّ مِن قَطْعِ الكلامِ، ولكنَّ هذا القطعَ لا بدَّ أن يكونَ غيرَ مُذهِلٍ عن مجرى الكلامِ؛ ولذلك يُلتمَسُ أحيانًا ما يرجعُ إلى المجرى؛ إمَّا بتَكرارِ كلمةٍ أو إعرابٍ حسبَ إعرابِ ما قُطِعَ عندَهُ الكلامُ. أمَّا الوجوهُ الخاصَّةُ بالاعتراضِ

ففرصةُ الكلامِ المفيدِ(١)؛ ليكونَ أوقَعَ عندَ القُرْبةِ منه، ودَفْعَ دَخَلٍ(٢) لا بدَّ من دَفْعِهِ [٧٩].

وجوهُ الخطأ في التَّمييز بينَ حُسْنِ الكلامِ وقبيحِهِ

التَّمييزُ بينَ حَسَنِ الكلام وقبيحِهِ سهلٌ مِن طريقِ الذُّوقِ قبلَ استعمالِ القواعِدِ الـمُستنبطةِ، فأمَّا بعد ذلك فلا يسألون الذَّوقَ، ويَكثرُ الخطأُ لخطئهم في تعيينِ وجوه الحُسْنِ. والخللُ فيما جعلُوهُ أساسًا لهذا العلمِ(٣) من وجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّهم نظروا إليهِ مِن مَنظَرِ المنطقِ والنَّحوِ، فطلبُوا حُسْنَ الكلامِ مِن جهةِ الدِّلالةِ الالتزاميَّةِ وأجزاءِ الكلامِ، فجعلُوا له أبوابًا مِنَ الـمُسنَدِ إليه والـمُسنَدِ، والموصوفِ والصِّفَةِ، والتَّعريفِ والتَّنكيرِ، والوَصْلِ والفَصْلِ، وغيرِ ذلك. واضطرُّوا إلى تَكرارِ القولِ، ولكنَّ للبلاغةِ منظرًا خاصًّا تَنظرُ مِنه إليها من غيرِ حِجابٍ.

الثّاني: أنَّهم نسبُوا الحُسنَ إلى ما ليسَ بأصلٍ، فَعَكَفَ النَّاسُ عليهِ، وفاتَهُمْ مناطُ الحُسنِ، بل رُبَّما سلكُوا طريقًا مُبعَدًا.

---

(١) ينظر: المثل السائر ٢/١٧٢، ومغني اللبيب ٢/٤٣٢، والمفصّل في إعراب الجمل ص٥٧

(٢) الدَّخَل: الفساد، والعيب، والرِّيبة. ينظر: المعجم الوسيط ص٢٨٥. والمصدر دفْع هنا بمعنى اسم الفاعل دافع، والتقدير: ليكون أوقعَ ودافعاً دَخَل...

(٣) يقصد علم صنعة الشعر أو النقد.

الثَّالِثُ: أنَّهم اقتصرُوا على صورةِ الكلامِ ولباسِهِ، وذَهَلُوا أنَّ أصلَ الحُسنِ في حقيقةِ المعنى ومنشئِهِ، فاكتفُوا بالدُّونِ، ولم يُمكِّنْهُم النَّظرُ في محاسنِ أعالي الكلامِ.

روحُ البلاغةِ وسرُّها

قد بيَّنَّا في غيرِ هذا الموضعِ أنَّ أصلَ البلاغةِ يُوجَدُ في تصويرِ المعاني وترتيبِها، وأمَّا الآنَ فنذكُرُ مِنَ البلاغةِ روحَها وسرَّها الفارِقَ بينَ الكلامِ البليغِ وغيرِ البليغِ، وبينَ أقسامِ الكلامِ مِنَ الخطابةِ وغيرِها.

فاعلمْ أنَّ الخطابةَ لـمَّا كانَ مَقصدُها بالعملِ والبعثِ عليه فلا بدَّ[1] أن تكونَ مشتملةً على الأمورِ [٨٠] المؤثِّرةِ في النُّفوسِ، وباعثةً لها على عَمَلٍ يشقُّ عليها. فأوَّلُ الأمرِ ألَّا يكونَ الخطيبُ مُتَّهَمًا بالكَذِبِ، ولا بضَعفِ الرَّأيِ، ولا بضَعفِ الاعتقادِ فيما يدعو إليه، ولا بضَعفِ القوَّةِ وقلَّةِ الجَراءَةِ. وبعبارةٍ أخرى: أَنْ يكونَ مـمَّن تَميلُ إلى قولِهِ القُلوبُ، وتُؤثِّرُ فيهم[2] شدَّةُ اهتمامِهِ وسَبْقَتُهُ إلى ما يدعو النَّاسَ إليهِ، ويعتقدونَ أنَّ اتِّباعَهُ يجلبُ الخيرَ والسَّعادةَ؛ لكونِهِ صائِبَ الرَّأيِ، بصيرًا بتدبيرِ الأمورِ، جريئًا على اقتحامِ المكارِهِ، قويًّا على نَيْلِ المآرِبِ. فإذا كانَ هو كذلكَ فلا بدَّ أن يجريَ الكلامُ على سُنَّتِهِ الفِطريَّةِ، فيكونَ مملوءًا مِن كلِّ عاطفةٍ صادِقةٍ قويَّةٍ مُهيجةٍ مِنَ الجِدِّ والتَّأسُّفِ، والغضبِ

(١) لا يقترن جواب لمَّا بالفاء، والأحسن: لما كان مقصدها... اشتملت...
(٢) أي في أصحاب القلوب المائلة إلى قوله.

والرَّحمةِ، والقولِ بالحقِّ والصَّوابِ، وفَصلِ الخِطابِ في تصويرِ النَّافعِ والضَّارِّ الـمُطِلِّ عليهم، كأنَّهُم يَروَنها عِيانًا، ألا ترى النَّبيَّ ـ عليهِ السَّلامُ ـ إذا قام خطيبًا كانتْ تحمَرُّ عيناهُ، كأنَّهُ مُنذِرٌ بينَ يدَيْ عذابٍ شديدٍ[1].

وعلى هذا فلا يَحتِملُ الكلامُ الخطابيُّ تفصيلَ الأحكامِ على حدٍّ يَخرجُ عَنِ العواطِفِ بعيدًا، فإنَّ الخطابةَ لا تُبْعَدُ عن سُنَّتِها حتَّى تصيرَ خلوًا عَنِ الـمُهيِّجاتِ.

❋ ❋ ❋

تذكِرَةٌ

إذا احتِيجَ إلى سدِّ بابِ فسادٍ وذِكْرِ أُمورٍ دنيَّةٍ فلا[2] بدَّ أن يُرجِعَ إلى معالي الأمورِ؛ لكيلا يَسقُطَ الكلامُ عن الرِّفْعةِ، ألا ترى كيفَ أتى القرآنُ بآيةِ النُّورِ في عَقِبِ ذِكْرِ المعاصي.

❋ ❋ ❋

(١) عن جابر رضي الله عنه قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فَحَمِدَ الله، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَإِنَّ أَفْضَلَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». ثُمَّ يَرْفَعُ صَوْتَهُ، وَتَحْمَرُّ وَجْنَتَاهُ، وَيَشْتَدُّ غَضَبُهُ إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ.... مسند الإمام أحمد ٢٣٧/٢٢ رقم الحديث ١٤٣٣٤.

(٢) في الأصل: لا بد. من دون الفاء الرابطة.

كمالُ البلاغةِ والإعجازِ

• من جهةِ العلمِ: هو أَنْ يكونَ الـمُتكلِّمُ عارِفًا باللِّسانِ وأساليبِهِ.

• ومن جهةِ القُدرةِ: أَنْ يَسْلُسَ له القولُ بما أرادَ بيانَهُ، فلا يُغني شيئًا بإظهارِ ما في صدرِهِ [٨١] حتَّى يكونَ القولُ مُطابَقًا بالمعاني.

• من جِهةِ العلمِ والتَّأثُّرِ: ألَّا يهُمَّ بما لا يُوافِقُ المحلَّ والحاجةَ والحكمةَ والتَّدبيرَ الذي هو أعلى غايةِ النُّطقِ. وكلامُ الفحولِ مِنَ الشُّعراءِ رُبَّما يكونُ في أدونِ منزلةٍ مِن هذه الجهةِ، ولكنَّهُم يتفاوتُونَ في ذلك، فزُهيرٌ أحسنُهُم قولًا، وامرؤُ القيسِ أسوؤُهُم. وهذهِ الأمورُ الثَّلاثةُ ليسَ لها محلٌّ مِنَ الإعجازِ.

• الأمرُ الرَّابعُ في الكلامِ: لهجةُ المُتكلِّمِ وصورةُ المعاني التي يُفصِحُ عنها، فإنَّ الكلامَ كما يحملُ العلومَ والعواطِفَ، فكذلكَ يحملُ لهجةَ المتكلِّمِ، كأنَّ المتكلِّمَ يُرى في كلامِهِ إذا نشأَ الكلامُ من غيرِ التَّقليدِ، فإنَّهُ ليسَ كلامَهُ، وهذا خارجٌ عن بحثنا. وهذا مِثْلُ صوتٍ وغناءٍ مِن آلاتٍ مختلفةٍ، فكما أنَّ الغِنَاءَ الواحدَ يختلفُ مِن جِهةِ الآلاتِ، فكذلك المعنى الواحدُ يختلفُ في لهجتِه، وكما تُميِّزُ بينَ النَّاطِقينَ ـ وإن نطقُوا بكلامٍ واحدٍ مِن لهجتِهِم الصَّوتيَّةِ ـ فكذلكَ تُميِّزُ بينَ المتكلِّمينَ وإنْ أدُّوا معنًى واحدًا، وهذا الفرق...(١).

---

(١) بياض في الأصل، لم يقدّر للفراهي إتمامه. ولعلَّه أراد: وهذا الفرق الذي وقع بين المتكلِّمِ بلهجتِهِ وصوتِهِ وبينَ المقلِّد الذي يتكلَّمُ بلهجةِ غيرِهِ هو الفرقُ عينُهُ الذي يقعُ بين المصوِّر والمحاكي.

مَناطُ محاسِنِ كلامِ العربِ

جُلُّ محاسنِ كلامِ العربِ يُوجدُ في صِحَّةِ التَّأثُّر، ووَضَاحةِ التَّصويرِ، وإصابةِ التَّعبير، وهذهِ الأمورُ تنطوي أبوابًا مِنَ الأساليبِ. وأمَّا حُسْنُ التَّشبيهِ والاستعارةِ فلا يُغني شيئًا إنْ لم يُوجد فيه واحدٌ مِن هذهِ الثَّلاثِ.

ومن صِحَّةِ التَّأثُّرِ السُّكوتُ، فإنَّ مَنْ أخطأَ تأثُّرُهُ لم ينفعْ كلامُهُ، وإنْ زَخرَفَهُ بكلِّ بديعٍ. فمحاسنُ الكلامِ فَرعٌ على حُسْنِ الكلامِ في نَفْسِ وجودِهِ، والكلامُ لا يُجرَّدُ عن موقعِهِ. وأمَّا الكلامُ الذي لا يُعلَمُ موقِعُهُ، فإنْ كان كلامًا صحيحًا دلَّنا على موقعِهِ، كما أنَّكَ تقيسُ من اللِّباسِ طولَ اللَّابِسِ وضخامتَهُ [٨٢].

❊ ❊ ❊

أخلاقُ العربِ
قُـوى العربِ العقليَّـةُ والكلاميَّـةُ

العَرَبُ لكونِهم أذكى الأممِ وأسرعَهم إحساسًا وأشدَّهُم عاطفةً كانوا أَوْلَى بالشِّعرِ مِنَ النَّثرِ. نثرُهُم أبعدُ مِن نَثرِ الأُممِ. أهملُوا فيه كلَّ ما يُناسِبُ الشِّعرَ حتَّى القافيةَ، وربَّ خُطبةٍ جاءَتْ مِنهم نظمًا، فليسَ للعجميِّ أَنْ يفهمَ نثرَهُمْ من غيرِ أَنْ ينظرَ فيهِ كأنَّهُ نظمٌ معَ كُلِّ ما يختصُّ بنظمِ العربِ خلا الوزنَ، وليسَ له أن يمدَحَهُ أو يذمَّهُ إلَّا بعدَ هذهِ المراعاةِ[1]. ثُمَّ ليسَ نظمُهُم كنظمِ سائرِ الأُمَمِ، ربَّ أُمَّةٍ نظمُهُم كنثرٍ حقيقيٍّ، كما أنَّ نثرَ العربِ كنظمٍ حقيقيٍّ، فلا بدَّ لإفهامِ كلامِ العربِ أَنْ أُبيِّنَ خصائصَ نظمِهِم التي قد طُبِعَتْ عليها فِطرةُ العربِ، وأُبيِّنَ أنَّ هذه الخصائِصَ هي التي تُوجدُ في نثرِهِمْ...[2]

* * *

(١) في الأصل: المراعات.

(٢) بياض في الأصل، لم يقدّر له إتمامه. ولعلّه أراد الإشارة إلى اعتماد السَّجع في النثر، والقافية في الشِّعر عند العرب « فالأمرُ الذي يعمُّ كلَيْهما هو أنَّهم يَستحسنونَ للقافيةِ ما كانَ سهلًا غيرَ ضئيلٍ، أو جزلًا غيرَ ثقيلٍ». جمهرة البلاغة ص٢٥٦.

في ارتجالِ العربِ
من أبوابِ سجايا العربِ فيما يتعلَّقُ بالبلاغةِ

مَن لا يَجِد في نفسِه قدرةً على الارتجال يظنُّهُ أمرًا بعيدًا، ولا يُؤمنُ به لا سيَّما إذا رأى كلامًا مُلِئَ حِكمةً ودِقَّةً وتنوُّعًا وإصابةً، فإذا رأى سرعةَ تصنيفٍ في أحدٍ ظنَّ أنَّهُ إنَّما أَلَّفَ ما جمَعَ مِنَ المطالبِ في مدّةٍ طويلةٍ. وأمَّا أنا فلا أشكُّ أنَّ الارتجالَ - سواءٌ كان في خُطبةٍ أو شعرٍ أو كانَ في تأليفٍ أو تصنيفٍ حكميٍّ[1] - ليسَ مِنَ المستبعدِ الذي يُعدُّ مُحالًا، فإنَّه أمرٌ وقعَ ويقعُ. نعمْ إنَّهُ قليلٌ، وأكثرُ هذا القليلِ ما هو غيرُ مُستجَادٍ، مثلًا كلامُ الرَّازيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - في سُرعة تصنيفِهِ، فإنَّهُ ما جاءَ إلَّا في وَهنٍ كنَسْجِ العناكِب.

ولكي أُقرِّبَ لكَ هذا الأمرَ أضرِبُ لك مثلًا؛ مَثَلَ الرِّيحِ المُعصِرةِ، فحينَ لا تَرَى السَّماءَ [٨٣] إلَّا كحَلْبةٍ، فإذا بريحٍ باردةٍ، ثُمَّ بقطعةِ غَمامةٍ، وبينما ننظُرُ إذ هِيَ غطَّتِ السَّماءَ، ثُمَّ ما هِيَ إلَّا سَحٌّ، وتَسكَابٌ حتَّى فاضَ السَّهلُ، وأفعمَ البِطاحَ[2].

فكما أنَّ الجوَّ ممتلِئٌ بالبُخارِ، ومسُّ الرِّيحِ جعلَهُ غَمامةً، ثُمَّ وَبلًا، ثُمَّ

(١) لعلَّه أراد: تصنيف محكم.
(٢) أفعمَ: ملأ. البِطاح: جمع الأبطح؛ وهو المكان المتَّسع يمرّ به السَّيلُ، فيتركُ فيه الرَّملَ والحصى الصِّغار.

سَيلًا، كأنَّ مُحتلِبًا يمسُّ ضَرْعَ لَقْحةٍ[١]، فكذلك عقلُكَ ملآنُ خيالاً وعلمًا لا تحسُّ به، ولا تُريدُ أن تقولَ أو تكتُبَ شيئًا حتّى إِنْ وَافتْهُ باعثةٌ، ودَعَتْهُ داعيةٌ =أنشأتَ العجائبَ، لا تدري أينَ كانَتْ؟ ومِنْ أينَ جاءتْ؟ فتسميها إلهامًا وإلقاءً، ولسْتَ مخطئًا في هذه التَّسميةِ.

وليسَ الارتجالُ في الأقوالِ بأعجبَ مِنَ الارتجالِ في الفِعالِ، ألا ترى العرَبَ كيف بلغُوا الغايةَ في التَّمدُّنِ في قليلٍ مِنَ الزَّمانِ، فقومٌ تراه يمشي وكأنَّهُ واقِفٌ، وقومٌ يمرُّ كأنَّهُ برقٌ خاطِفٌ. فإذا سَمِعْتَ أنَّ العربَ كانُوا يُلقُون من غير رويَّةٍ خُطبًا بليغةً طِوالًا، أو يُنشِدُونَ القِصائدَ الغُرّ ارتجالًا، أفلا تظنُّهُم أجدرَ بهذا مِن أقوامٍ يَدبُّونَ دبيبَ النَّملِ؟! وقد عَلِمْتَ مِن نُطقِهِم في مواسِمِهِم وحروبِهِمْ مِنَ الخُطب والقصائِد والرَّجزِ حتَّى كأنَّهم لم يملكوا أن يردُّوا شَقْشقةَ لسانِهِم وجيشَ صدورِهم، فتراهُم أولى باسم الحيِّ النَّاطقِ مِن سِواهُمْ، ولا غروَ، فإنَّهُم طالمَا قد شَحَذُوا مقاوِلَهُم، وتقارعُوا بها حتَّى اتَّخذوها...[٢].

* * *

(١) اللَّقْحَة: النَّاقةُ الحَلُوب الغزيرةُ اللَّبَنَ. لسان العرب (لقح).

(٢) بياض في الأصل، لم يقدَّر له إتمامه. ويُستشف من ذكر التقارع أنه أراد: اتخذوها سلاحًا يضربون به أو دريئة يتصدّون بها.

صوتُ الخُطَب

الخُطَبُ في اليونانِ وفي الهندِ كانَتْ نوعًا مِنَ الغِناءِ، وكانَ السَّامِعونَ يتأثَّرونَ مِنها كما تتأثَّرُ مِنَ الشِّعرِ إذا أُنشِدَ، ولا نعلمُ هل كانَتِ العربُ تُنشِدُ بالخُطبَ؟ ولكنَّ أسجاعَهُم ولِحاظَ وزنِ الفقراتِ تُنبِئُ أنَّهُمْ كانُوا مثلَ اليونانِ. وفي الهندِ سَمِعْنا العلماءَ يُنشِدونَ، ولكنِ الآنَ تركُوا الإنشادَ، ويتكلَّمونَ حسبَ العادةِ، ولا يُخاطِبونَ إلَّا العقلَ والتَّخييلَ، ومعَ ذلك أكثرُ الواعِظينَ [٨٤] يَخلِطونَ بكلامِهِم طَرفًا كبيرًا مِنَ المثنويِّ المعنويّ[١]، ويُنشِدونه على لحُونٍ خاصَّةٍ، والنَّاسُ يبكونَ، ويتأثَّرونَ مِن جِهةِ الغِناء، وإنْ لم يفهمُوا أكثرَ ما يسمعونَ منهُ.

❋ ❋ ❋

(١) المثنوي المعنوي: منظومة صوفية باللغة الفارسية.

مذهبُ العربِ في نَقْدِ الكلامِ

قبل أن نذكُرَ أصولًا يجري عليها اختيارُهُم نُريدُ أن نستقصيَ من اختيارِهِم ونَقْدِهِم ما وَصَلَ إلينا. فمِنْ ذلك ما اتَّفقَ فيه كلمتُهُم في اختيارِهِ مِنَ الأشعارِ. قال الأعشى يهجو علقمةَ بن عُلاثةَ[١]:

تَبِيْتُونَ في الـمَشتَى مِلاءً بُطُونُكُمْ   وَجَارَاتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا[٢]

وقعَ الاتِّفاقُ على أنَّهُ أهجى بيتٍ في الجاهليةِ، ولـمَّا سَمِعَ علقمةُ بنُ عُلاثةَ هذا البيتَ بكى، وقال: اللّٰهُمَّ أخزِهِ، واجزِهِ عنِّي إن كانَ كاذبًا. قال لبيد[٣]:

وجَلا السُّيولُ عَنِ الطُّلولِ كأنَّها   زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أَقْلامُها

سَمِعَ الفرزدقُ هذا البيتَ، فسَجَدَ، فقيلَ: ما هذا يا أبا فراسٍ؟ فقال: أنتم تَعْرِفُون سَجدَةَ القرآنِ، وأنا أعرفُ سَجدةَ الشِّعر[٤]. قال الفراهيّ[٥]: كانتِ العربُ تسجدُ للهِ تعالى إذا رأَتْ آيةً تدلُّ على حِكمتِهِ وقُدْرتِهِ كما قالَ...[٦].

---

(١) من الطويل، ديوان الأعشى الكبير ص١٤٩.

(٢) المشتى: الشتاء. غَرْثَى: جَوْعَى. خمائص: جمع خميصة، ومعناها: ضامر البطن.

(٣) من الكامل، شرح ديوان لبيد بن ربيعة ص٢٩٩.

(٤) الأغاني ٢٥٣/١٥ (دار صادر)، ولباب الآداب ص١٣١

(٥) هذه الجملة «قال الفراهي» لجامع مخطوطات الكتاب لا للفراهي نفسِهِ.

(٦) بياض في الأصل، لم يقدَّر له إتمامُهُ. ولعله أراد: كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ =

قال لبيد[١]:

يعلـو طَريقـةَ مَتْنِهَـا مُتَواتِـرٌ في ليلةٍ كَفَـرَ النُّجُومَ غَمامُها[٢]

لـمَّا بلَغَ لبيدٌ في إنشادَ قصيدتِهِ هذا البيتَ منها سَجَدَ له الشُّعراءُ[٣] [٨٥].

* * *

= ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥]، فالسجود استجابة انعكاسية لعظمة آيات الله، وكانت العرب تسجدُ للشعر إيذانًا بعظمته.

(١) من الكامل، شرح ديوان لبيد بن ربيعة ص٣٠٩.

(٢) الطَّريقة: خطَّة مخالفة في لونها. متواتر: مطرٌ متتابع. كفرَ: سَتَرَ.

(٣) لباب الآداب ص١٣١

بابٌ مِنَ التَّمرين في النَّقد

نُورِدُ في هذا البابِ من معانٍ أخذَها المولَّدونَ مِنَ السَّلفِ، فترى كيفَ طمسُوا حُسنَها ورونَقَها. قال المتنبيُّ في إقدامِ الممدوحِ(١):

فكأنَّـهُ والطَّعـنُ مـن قُدَّامِـهِ   مُتَخـوِّفٌ مِنْ خَلْفِـهِ أن يُطعَنا

أخذَ المعنى مِن قولِ بكرِ بنِ النَّطَّاحِ، وهو يقولُ(٢):

كأنَّكَ عندَ الطَّعنِ في حَومةِ الوَغى   تَفِرُّ مِنَ الصَّفِّ الذي مِنْ ورائِكا

قال المتنبيُّ(٣):

نَفَـتِ التَّوهُّمَ عنهُ حِـدَّةُ ذِهنِهِ   فَقَـضَى على غَيْبِ الأُمُورِ تَيَقُّنا

وقال أوسُ بنُ حجرٍ(٤):

الألمـعيّ الذي يظُـنُّ بِـكَ الظَّـ   ـنَّ كأَنْ قـد رأى وقد سَـمِعا

......(٥)

---

(١) من الكامل، ديوان أبي الطيب المتنبيّ ص١٣٩.

(٢) من الطويل، شعر بكر بن النطّاح ص٣٠ (وروايته: عند الكرِّ)، والوِساطة بين المتنبي وخصومه ص٣٥٩.

(٣) من الكامل، ديوان أبي الطيب المتنبيّ ص١٣٩.

(٤) من المنسرح، ديوان أوس بن حجر ص٥٣.

(٥) بياض في الأصل. ومن ذلك ما ذكره الشريف الجرجانيّ من أنّ المتنبيّ أخذ من قول لبيد=

مِنْ بابِ نَقْدِ الكلامِ

ممَّا أَوقعَهُم في الخَبْطِ أنَّهم حَكَمُوا في نَقْدِ الكلامِ بمجردِ الرَّأيِ والقِياسِ على نَعْتِهِم، والألسنةُ مختلفةٌ في أساليبِها، والعقولُ متفاوِتةٌ في الأقوامِ، فلا بدَّ أَنْ تحكُمَ في نَقْدِ كلامِ قومٍ حسبَ قواعدِهِم. وإنِّي أرى المشاهيرَ والأئِمةَ في البلاغةِ أخطؤوا في نَقْدِ الكلامِ خطأً فاحِشًا، مثلًا: قال قُدامةُ[1] في نَقْدِ بيتٍ لحارثِ بنِ حِلِّزَةَ [٨٦]:

والعيشُ خيرٌ في ظِلالِ النُّـ ـوكِ، ممَّن عاشَ كدًّا[2]

يقول: «إنَّ العيشَ النَّاعمَ في ظلال النُّوْكِ خيرٌ مِنَ العيشِ الشَّاقِّ في ظِلالِ العقلِ، فأخلَّ بشيءٍ كثيرٍ»[3]. وهذا عيُن أسلوبِ العربِ، فإنَّهم يحذفون ما يدلُّ

= (ديوانه ص١٩٧): [الرمل]

مُمقِرٌ مرٌّ على أعدائه وعلى الأدنَينَ حلوٌ كالعسلْ

فقال المتنبيّ (ديوانه ص١١٤): [الخفيف]

أنت طورًا أمرُّ من ناقِع السّمْـ ـمِ وطورًا أحلى من السَّلْسالِ

قال القاضي الجرجانيّ: «هو بيت لبيد لفظًا ومعنى، وقد قصّر عنه؛ لأن لبيدًا فصّل الحالين بين الأعداء والأدنين، وأجمل أبو الطيب القول». الوساطة بين المتنبيّ وخصومه ص٣٠٠-٣٠١.

(١) في الأصل: أبو قدامة. والصوابُ ما أثبتُّ.

(٢) من مجزوء الكامل، ديوان الحارث بن حلِّزة ص١١٦. وروايته: في ظلال العيش... والنُّوك: الحُمْق.

(٣) نقد الشعر ص٢٠٤.

عليه الـمُقابِلُ، وذلك مبسوطٌ في بابِ الحذفِ[١]. وفي البيتِ عندَ غيرِ الماهرِ عيبٌ آخرُ، وهو المقابلةُ بينَ العيشِ والذي يعيشُ، ولكنَّهُ عامٌّ في كلامِ العربِ.

* * *

(١) يسميه البلاغيون الاكتفاء: وهو أن يقتضي المقام ذِكْرَ شيئَيْنِ بَيْنَهُمَا تَلازُمٌ وارتباط، فَيُكْتَفَى بأَحَدِهما عن الآخر لنكتةٍ بلاغيّة، ويختصُّ غالبًا بالارتباط العطفي. ينظر: البلاغة العربية ٤٨/٢، والقاعدة النحوية في ضوء علم المعاني ص١٩٣

الفواصلُ والقوافي

هذا بابٌ آخَر من محاسن الكلامِ في نغمتِه، وجرَّدتُهُ لاهتمامٍ خاصٍّ بشأنِهِ. فاعلمْ ـ هداكَ اللهُ وإيايَ ـ أنَّ القافيةَ شيءٌ طَرِبَتْ له العربُ، ثُمَّ كانَتْ تَلتَذُّ بمحاسِنِها، وتعدُّها كالوَشْيِ والتَّنميقِ في الكلامِ حتَّى إِنَّهم أعطَوا للشِّعرِ اسمَ القافيةِ، ووصفُوا الشِّعرَ بلذَّةِ مقاطعِهِ، كما أنَّهم وصفُوهُ بجَودةِ نَسْجِهِ. أنشدَ الجاحظُ[1]:

فـإِنْ أَهْلِكْ فَقَـدْ أَبْقَيْـتُ بَعْدِي قَـوَافِيَ تُعْجِـبُ الـمُتَمَثِّلِينَـا

لَذِيـذاتِ المقاطِعِ مُحكَمـاتٍ لـو انَّ الشِّـعرَ يُلبَـسُ لارتُدِينـا

ثُمَّ اعلمْ أنَّ محاسِنَها عندَ العربِ القُحِّ ليسَ كما عندَ المولَّدينَ مِنَ التَّجنيسِ وإلزامِ ما لا يلزمُ، وجَعْلِها مثنى كالمثنويِّ عندَهُم، ولكنَّ لها عندَهم أصولًا أُخَرَ. فاعلمْ أنَّهم إمَّا يبنُونَ الكلامَ على نوعٍ واحدٍ مِنَ القافيةِ كما تجدُ في قصائِدِهِم، وإمَّا يُؤلِّفونَ قوافيَ شتَّى كما ترى في أسجاعِهِم. فالأمرُ الذي يعمُّ كلَيْهما هو أنَّهم يَستحسنونَ للقافيةِ ما كانَ سهلًا غيرَ ضئيلٍ، أو جزلًا غيرَ ثقيلٍ؛ فإنَّ القافيةَ في كلامِهِم كالبَلَقِ[2] والخُلْسَة تنتبِّهُ لها الأسماعُ مِنَ الغَفْلةِ،

---

(١) من الوافر، لابن ميادة في ديوانه ص٢٥٨-٢٥٩

(٢) البَلَق: سَواد وبياض في اللّون. لسان العرب (بلق).

فلم يصغُرْ عندَهمْ قَدْرُها؛ ولذلك لا تَجِدُ في كلامِ امرئِ القيسِ وطرفةَ قافيةً مثلَ زَيَّلَت، وشتيت، وفي كلامِ غيرِهما لا تجدُ أمثالَها إلا قليلًا، [٨٧] فلا تجدُ القافيةَ الـمُستَهجنةَ في طِوالِ قصائِدِهم.

ومدارُ الأمرِ في ذلك على سهولةِ التَّنفُّسِ معَ فخامةٍ ما في صوتِ الحرفِ، فتراهُمُ اختاروا الـمَدَّةَ والهاءَ لرويِّهم؛ أمَّا الـمَدَّةُ فكثيرٌ، وأمَّا الهاء فليسَتْ بنادرةٍ، مثلُ طارقه(١)، يشمّه(٢)، في شررِهْ(٣)، ثُمَّ بعدَ ذلك السَّاكنُ بعدَ المتحرِّكِ، كما قالَ المرقِّشُ(٤):

.... رقَّشَ في ظهرِ الأديمِ قَلَمْ

فهذه ثلاثةُ أقسامٍ: الأوَّلُ والثَّاني سويَّانِ في الشِّعرِ وغيرِ الشِّعرِ، والثَّالِثُ أكثرُ في غيرِ الشِّعرِ منه في الشِّعرِ، ثُمَّ القِسمُ الرَّابعُ هو السَّاكِنُ بعدَ الـمَدَّة، فهو نادِرٌ في الشِّعرِ، وكثيرٌ في غيرِ الشِّعر ومُستَحسَنٌ، مثل دان، عين، روح.

ثُمَّ واحِدٌ يُخَصُّ بالشِّعرِ، وواحدٌ خاصٌّ بالمنثورِ، فالخاصُّ بالشِّعرِ ما فيه إشباعُ الرَّويِّ. وأمَّا الخاصُّ بغيرِ الشِّعرِ فالسَّاكِنُ بعدَ السَّاكِنِ غيرِ الـمَدَّةِ،

---

(١) قافية بيت من الكامل (لسان العرب: نشو): [الطويل]

بآيـةِ مَـا إِنَّ النَّقـا طَيِّـبُ النَّشـا إذا مَـا اعْتـراه آخِرَ اللَّيـل طارِقُهْ

(٢) قافية بيت لطرفة في ديوانه ص٨٢: [المديد]

أشـجاكَ الرَّبـعُ أم قِدَمُـهْ أم رَمـادٌ دارسٌ حُمَمُـهْ

كسُـطُورِ الـرَّقِّ، رَقَّشَـهُ بالضُّحَـى، مُرَقِّـشٌ يَشِـمُهْ

(٣) قافية بيت لامرئ القيس في ديوانه ص١٢٥: [المديد]

بِـرَهِيْشٍ مِـنْ كِنَانَتِـهِ كَتَلَظِّـي الجَمْـرِ فـي شَـرَرِهْ

(٤) من السريع، للمـُرقِّش الأكبر، ديوان المـُرقِّشَينْ ص٦٧. وصدره: الدَّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كَمَا.

مثلُ: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ * وَلَيَالٍ عَشۡرٖ * وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾[الفجر: ١-٣]. فهذه ستّةُ أقسامٍ عامَّةٍ تعمُّ الحُسْنَ والرَّويَّ إذا أخذْتَها مُنفردةً.

ثُمَّ إذا ركَّبتَ القوافيَ فلا تنوُّعَ فيها في الأشعارِ غيرَ اختلافِ الياءِ والواوِ الـمَدِّيَّتَينِ، ولا تعبأْ بما نَدَرَ مِن اختلافِ الميمِ والنُّون. فأمَّا في النَّثرِ فلها تنوُّعٌ، وله أصولٌ نذكُرُها:

١ـ لحاظٌ في اختيارِ الياءِ والواوِ؛ ليكونَ على ترتيبٍ حَسَنٍ غيرِ جامِدٍ على التَّكرارِ المقرَّرِ، فيأتيكَ نوعٌ بعد نوعٍ جديدٌ، أو لم تنتظره(١).

٢ـ تركيبُ الميمِ معَ النُّونِ حسبَ ما مرَّ.

٣ـ تركيبٌ بينَ حروفٍ مختلفةٍ وتخليطُها واشتباكُها حسبَ ما مرّ.

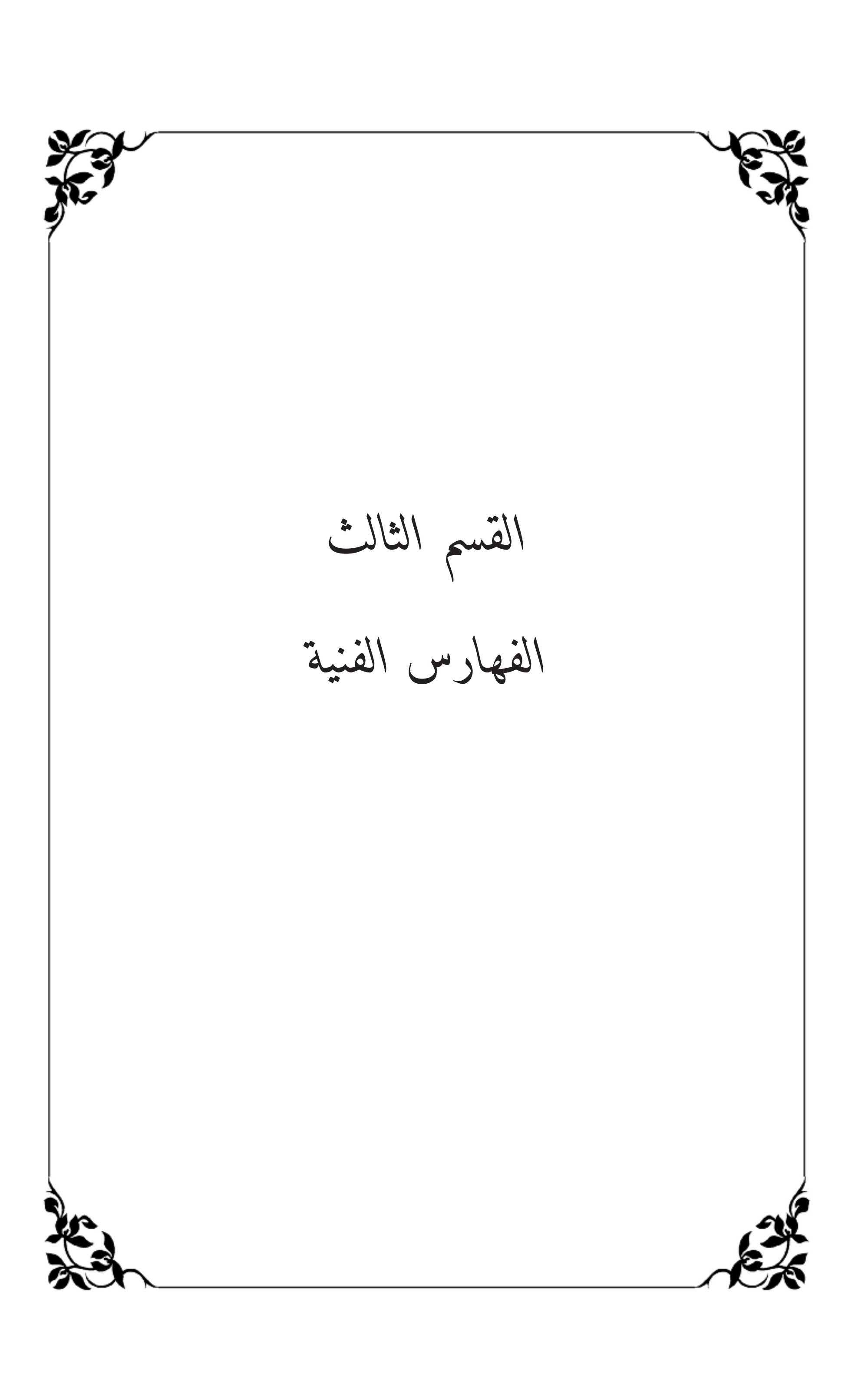
٤ـ تبديلُ آخر الرَّوي مع اتِّحاد الحَرْفِ أو الحركةِ قبلَهُ، مثلًا جمعُ صَيْفٍ معَ بَيْتٍ وخَوْفٍ(٢)، حسبَما مرَّ.

٥ ـ تبديلُ القافيةِ في انتهاءِ الجملةِ، وهذا عَونٌ على الإخبارِ بخَتْمِ الكلامِ، وكلُّ متكلِّمٍ يُغيِّرُ صوتَهُ عندَما ينتهي، كأنَّ ذلك أمرٌ فِطريٌّ [٨٨].

* * *

(١) في الأصل: تنتظر له.

(٢) إشارة إلى سورة قريش ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ * إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ * فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ١-٤].



القسم الثالث

الفهارس الفنية

فهرس
الآيات القرآنية

الآية	رقمها	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرا وَيَهدِى بِهِ كَثِيرا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَـسِقِينَ، الَّذِين يَنقُضُون عَهدَ اللَّهِ مِن بَعدِ مِيثَـقِهِ وَيَقطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفسِدُونَ فِى الأَرضِ﴾	٢٦– ٢٧	١٣٤
سورة آل عمران		
﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾	٧	١٥٤
سورة النساء		
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾	٢٣	٢٠٨
﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بليغًا﴾	٦٣	١١٩
﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾	٦٣	١٣٩
﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾	٨٠	٢٤١
سورة الأنعام		
﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ﴾	١٠٠	٢٣٣

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿وَجعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١)	١٠٠	٢٣٢
﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَٰلِغَةُ﴾	١٤٩	١٢٠
سورة هود		
﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾	١	٢٠٤
﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾	٩	١٥٤
﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾	٣٨	٢٣٦
﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾	٤٢	٢١٧
﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾	٤٢	٢١٨
﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾	٤٢	٢١٧
﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾	٤٣	٢١٧
﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾	٤٣	٢١٧
﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾	٤٨	٢٢٤
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾	٤٧ – ٤٨	٢١٥
﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	٥٦	٢٢١

(١) في الأصل: عمَّا يشركون. وهو وَهْمٌ.

الآية	رقمها	رقم الصفحة
سورة الرعد		
﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾	**١٣**	**٢٢٤**
سورة إبراهيم		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾	**٤**	**١٣٧**
﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾	**٢٦**	**١٨٩**
سورة النور		
﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	**٣٥**	**٢١٨**
سورة الفرقان		
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾	**٦٣**	**٢٣٣**
سورة الشعراء		
﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوونَ﴾	**٢٢٤**	**١١٣**
سورة سبأ		
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾	**٣- ٥**	**٢٢٥**

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾	٥١ – ٥٢	١٩٨
سورة يس		
﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾	٢٠ – ٢١	٢٢٥
﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾	٢٠ – ٢١	٢١٣
﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾	٢٠ – ٢١	٢٢٠
﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	٢٢	٢١٣
﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾	٢٣ – ٢٤	٢١٣
﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾	٢٥	٢١٣
﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾	٢٦	٢١٤
﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾	٢٦ – ٢٧	٢١٤
﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾	٢٩	٢١٤
﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٤٩ – ٥٤	٢٣٥

الآية	رقمها	رقم الصفحة
سورة الصافات		
﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ﴾	١٠٣-١٠٤	٢١٨
سورة ص		
﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾	٢٤	٢٣٣
﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾	٢٤-٢٥	٢٣٦
﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾	٢٤-٢٦	٢٣٧
سورة الأحقاف		
﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾	٢١	٢٣٢
﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٢٤	٢٢٣
﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٢٤	٢٣٦
﴿بَلَاغٌ﴾	٣٥	٢٢٣

الآية	رقمها	رقم الصفحة
سورة القمر		
﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾	٤٨	١٥٤
سورة النازعات		
﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾	١٥ - ٢٦	٢٠٦
سورة الغاشية		
﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾	١٧	٢٢٦
سورة القدر		
﴿سَلَامٌ﴾	٥	٢٢٣
سورة العاديات		
﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾	١ - ٥	٢١٥

❊ ❊ ❊

فهرس الشعر[١]

البيت	البحر	الشاعر	الصفحة
أ			
فَـاضَ كَأَنَّـهُ رَجُـلٌ سَـلِيْبٌ على عَلْيَـاءَ لَيْـسَ لَـهُ رِدَاءُ	الوافر	زهير بن أبي سلمى	١٧٠
ثَأَرْتُ عَدِيًّا وَالخَطِيمَ فَلَمْ أُضِع وِلَايَـةَ أَشْيَاخٍ جُعِلْـتُ إِزَاءَهَـا	الطويل	قيس بن الخطيم	١٦٧
طَعَنْتُ ابنَ عَبْدِ القيْسِ طَعْنَةَ ثَائِرٍ لَهَا نَفَذٌ لَوْلَا الشّعَاعُ أَضَاءَهَا مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُوْنِهَا مَا وَرَاءَهَا	=	--	١٦٦
ب			
وغادرْنَ نَضْلَـةَ في مَعـرَكٍ جُـرُّ الأَسِـنَّةَ كالـمُحتَطِـبْ	المتقارب	عنترة	١٧٩
إذا غَضِبَـتْ عليْـكَ بَنـو تَميمٍ وَجَـدْتَ النَّـاسَ كلَّـهُـمُ غِضَابَـا	الوافر	جرير	٢٠٢
حَلَفْتُ فلمْ أترُكْ لنفسِـكَ رِيبةً وليـسَ وراءَ اللهِ للمـرءِ مَذهَبُ	الطويل	النابغة الذبياني	٢٣٠
ولسْتَ بِـمُسْتَبقٍ أخًا لا تَلمُّهُ على شَـعَثٍ، أيُّ الرِّجـالِ المهذَّبُ؟	=	--	٢٣٠
كَأَنَّ مُثَـارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤوسِـنَا وَأَسْـيَافَنَا لَيْـلٌ تَهَـاوَى كَوَاكِبُهْ	=	بشار بن برد	١٥٣

(١) المراد هو الأشعار الواردة في النص المحقق فحسب، وقد رتبناها وفق الروي؛ بدأنا بالساكن ثم المفتوح ثم المضموم ثم المكسور ثم المقيّد.

البيت		البحر	الشاعر	الصفحة
فَقُلْتُ لِفِتْيَـانٍ كِـرَامٍ أَلَا انْزِلُوا وَأَوْتَـــادُهُ مَـاذِيّـــةٌ وَعِمَـــادُهُ وَأَطْنَابُهُ أَشْـطَانُ خُوْصٍ نَجَائِبٍ فَلَمَّا دَخَلْنَـاهُ أَضَفْنَـا ظُهُـورَنَا نَمُـشُّ بِأَعْـرَافِ الجِيَـادِ أَكُفَّنَا	فَعَالُـوا عَلَيْنَا فَضْلَ ثَـوْبٍ مُطنَّبِ رُدَيْنِيَّـةٌ فِيْهَـا أَسِـنَّـةُ قَعْضَـبِ وَصَهْوَتُـهُ مِـنْ أَتْحَـمِيٍّ مُشَرْعَبِ إِلَى كُلِّ حَـارِيٍّ جَدِيْـدٍ مُشَـطَّبِ إذا نَحْـنُ قُمْنا عَن شِـواءٍ مُضَهَّبِ	الطويل	امرؤ القيس	١٦٣
إذا ما جَرَى شَأْوَيْنِ وابْتَلَّ عِطْفُهُ	تَقـولُ هزيزَ الرِّيـحِ مَـرَّتْ بِأَثْأَبِ	=	--	١٧٨
فَبينـا نِعـاجٌ يَرتَعِـيْنَ خَميلَـةً	كَمَشْيِ العَذارى في المُلاءِ المُهذَّبِ	=	--	١٨٩
كتائبُ تُـزْجَى فـوقَ كلِّ كَتيبةٍ	لِـوَاءٌ كَظِـلِّ الطّائـرِ المُتقلِّـبِ	=	عنترة	١٧٩
ولا عَيْبَ فِيهمْ غيرَ أنّ سيوفَهُمْ	بِهِـنَّ فُلولٌ مِـنْ قِـراعِ الكَتَائِبِ	=	النابغة الذبياني	٢٢٨
فإذا مـا مَـــرَرْتَ في مُسْـبَطِـرٍّ	فاجْمَـحِ الخَيْـلَ مِثْلَ جَمْحِ الكِعَابِ	الخفيف	حاتم الطائي	١٨٨
يـا لَهْـفَ زيَّابـةَ لِلحـارثِ الـ	ـصَّابِـحِ فالغانِـمِ فالآيِـبِ	السريع	ابن زيّابة الحماسي	٢١٥
كأنَّ قُتُـودي فوقَهـا عُشُّ طائرٍ	على لِينَـةٍ سَـوقاءَ تهفـو جُنُوبُهـا	الطويل	ذو الرمّة	١٧٦
ت				
غَشِـيْتُ دِيَارَ الـحَيِّ بِالبَكَرَاتِ فَغُوْلٍ فَحِلِّيْـتٍ فَأَكْنَافِ مُنْعِجٍ ظَلِلْـتُ رِدَائِي فَوْقَ رَأْسِيَ قَاعِدًا	فَعَارِمَـةٍ فَبُـرْقَـةِ العِـيَرَاتِ إِلَى عَاقِـلٍ فَالجُـبِّ ذِي الأَمَـرَاتِ أَعُـدُّ الحَـصَى مَا تَنقَـضِي عَبَرَاتي	=	امرؤ القيس	١٦٧
وَكُنْـتُ لَهُ عَمًّـا لَطِيفًـا وَوالِدًا	رَؤُوفًـا وأمًّــا مَهَّـدَتْ فَأَنامَـتِ	=	قُراد بن غُويّة	٢٠١

البيت		البحر	الشاعر	الصفحة
أُقسِـــمُ باللهِ وآياتِـــــــهِ إنَّ الحَريـريَّ حَـرِيٌّ بـأنْ	ومَشْـعَرِ الحَـجِّ وميقاتِـهِ نَكتُـبَ بالتِّـبْرِ مَقاماتِـــهِ	السريع	الزمخشري	٢٠٨
ح				
كأنَّ الظُّعْنَ حـينَ طَفوْنَ ظُهْرًا	سَـفينُ البَحـرِ يَمَّمْـنَ القَرَاحَـا	الوافر	النابغة الذبياني	١٧٤
فَمَالـتْ بِيَ الأهواءُ حـتّى كأنّما	بِزَنْدَيْنِ في جَوفي مِنَ الوَجْدِ قادِحُ	الطويل	عنترة	١٨٠
إذا ما مَشَوا في السَّابغاتِ حَسِبْتَهُمْ فَـأُشرِعَ راياتٌ وتحـتَ ظلالِها وَدُرْنا كما دارتْ على قُطْبِها الرَّحى بِهَاجِـرةٍ حـتّى تَغيَّـبَ نُورُهـا تَدَاعَى بَنـو عَبْسٍ بكلِّ مهنَّدٍ وكُلِّ رُدَيْـنِيٍّ كأنَّ سِـنانَـهُ تَرَكْنـا ضِرارًا بـينَ عَانٍ مُكَبَّـلٍ وَعَمْـرًا وَحَيَّانًـا تركْنـا بِقَفْـرةٍ يُجَـرِّرْنَ هَامًـا فَلَّقَتْهـا رِماحُنا	سُـيُولًا وقد جاشتْ بِهِنَّ الأباطحُ مِن القـومِ أبناءُ الحُروب المـَراجِحُ ودارتْ على هـامِ الرِّجالِ الصَّفائحُ وأقبلَ ليلٌ يَقبِضُ الطَّرفَ سـائحُ حُسَـامٍ يُزيلُ الهَامَ والصَّفُّ جانِحُ شِـهابٌ بَدَا في ظُلمة اللّيلِ واضِحُ وبـينَ قَتيـلٍ غابَ عنـهُ النَّـوائحُ تَعُودُهمـا فيها الضِّبـاعُ الكَوالِحُ تَزَيَّـلَ مِنهُنَّ اللِّحَى والمَسـائِحُ	=	--	١٧٥
يَقُولُونَ: حِصْنٌ، ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ولم تلفِظِ المَوْتَى القُبُورُ، وَلَمْ تَزَلْ	وكيـفَ بِحِصْـنٍ والجِبَـالُ جُمُوحُ نُجُـومُ السَّـماءِ والأَدِيـمُ صَحِيـحُ	=	النابغة الذبياني	٢٢٣
كأنَّ القلـبَ ليلةَ قِيـلَ يُغدَى قَطَــاةٌ عَـزَّهـا شَــرَكٌ فباتَـتْ لهـا فرخانِ قـد تُرِكـا بِوَكْــرٍ إذا سَـمِعَـا هُبـوبَ الرِّيحِ نَصَّا فـلا في اللَّيـلِ نالتْ مـا تُرَجي	بلَيْـلَى العامـريَّـةِ أو يُـرَاحُ تُجاذِبُـه وقـد عَلِـقَ الجَنـاحُ فَعُشُّـهما تُصَفِّقُـهُ الرِّيـاحُ وقـد أودى بـه القَـدَرُ المُتـاحُ ولا في الصُّبـحِ كانَ لهـا بَـراحُ	الوافر	نُصيب	١٨١

البيت	البحر	الشاعر	الصفحة
. . . . ما أشبهَ اللَّيلةَ بالبارحهْ	الرجز	طرفة بن العبد	١٠٨
د			
والعيشُ خيرٌ في ظِلالِ النُّـ ـــوكِ، ممَّـن عـاشَ كـدَّا	مجزوء الكامل	الحارث بن حلّزة	٢٥٤
وَفِي الخُـدُورِ غَمَامَـاتٌ بَرَقْنَ لَنَا حَـتَّى تَصَيَّـدْنَنَا مِـنْ كُلِّ مُصْطَادِ فَهُـنَّ يَنْبِـذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ مَوَاقِعَ المَاءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ الصَّادِي	بسيط	القُطامي	١٥٢
أقـولُ للنَّفـسِ تَأْسَـاءً وتعزيةً إحدى يَـدَيَّ أصابتْني ولم تُـرِدِ كِلاهُما خَلَفٌ مِنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ هذا أخي حينَ أدعُـوهُ وَذَا وَلَـدِي	=	أعرابي	١٧٦
ويَبْـقَى بَعْدَ حِلْمِ القَـوْمِ حِلْمِي ويَفـنى قَبْـلَ زادِ القَـوْمِ زَادِي	وافر	دريد بن الصمّة	١٩٧
وَإِنِّي لَعَبْـدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًا وَما فِيَّ إلّا تِلكَ مِنْ شِـيمَةِ العَبْدِ	الطويل	حاتم الطائي	١٩٧
فما الفـراتُ إذا هـبَّ الرِّياحُ لهُ تـرمي أواذيُّـهُ العِبرَيـنِ بالزَّبَـدِ يَمُـدُّه كلُّ وادٍ مُـتَرعٍ لَجِـبٍ فيـهِ رُكامٌ من اليَنبُـوتِ والخَضَدِ يظلُّ مِـنْ خوفِهِ المَلّاحُ مُعتصِمًا بالخَيزُرانـةِ بعـدَ الأيـنِ والنَّجَدِ يومًـا بأجـودَ منهُ سَـيبَ نافلةٍ ولا يَحُـولُ عطاءُ اليـومِ دونَ غَدِ	=	النابغة الذبياني	٢٣١
لو أنَّها عَرَضَتْ لِأَشْـمَطَ راهِبٍ يدعـو الإلهَ صَرُورةً متعبِّـدِ لَصَبا لِبَهْجَتِهـا وطِيبِ حَديثِها ولَخَـالَهُ رَشَـدًا وإِنْ لـم يَرشُـدِ	كامل	--	٢٣٠
ر			
لَهَـا مَتْنَتَــــانِ خَظَاتَـا كَمَا أَكَبَّ على ساعِدَيْهِ النَّمِـرْ	متقارب	امرؤ القيس	١٧٠
فكـرَّ إليـهِ بِمبراتِـهِ كمـا خلَّ ظهـرَ اللِّسانِ الـمُجِرّْ	=	---	٢١٤
ذاكَ وقِدْمًـا يُعجِـلُ البـازلُ الـ ـكَومـاءَ بالموتِ كَشِـبهِ الحَصِيرْ	خفيف	الخرنق	١٧٧

البيت		البحر	الشاعر	الصفحة
وَإِنِّي لَيَغْـشَى أَبْعَدُ الحَيِّ جَفْنَتِي	إِذَا وَرَقُ الطَّلْـحِ الطِّـوَال تَحَـسَّرا	طويل	حاتم الطائي	١٦٨
وَنَشْرُبُ حَتَّى نَحْسِبَ الخَيْلَ حَوْلَنَا	نِقَادًا وَحَتَّى نَحْسِـبَ الجَوْنَ أَشْقَرَا	=	امرؤ القيس	١٦٥
وَسَـيْـفي كالعَقيقةِ وَهْـوَ كِمْعي وكالوَرَقِ الخِفـافِ، وذاتُ غـربٍ	سِـــلاحي لا أفَـلَّ ولا فُطَــارَا تَـرى فيـها عنِ الشِّـــرَعِ ازوِرَارا	وافر	عنترة	١٧٦
وَكَـأَنَّ رَفْــضَ حَدِيْثِهَـا وَتَخَـالُ مَـــا جَمَعَـتْ عَلَيْــ وَكَــأَنَّ تَحْـــتَ لِسَـانِهَا	قِطَـعُ الرِّيَـاضِ كُسِـيْنَ زَهْـرَا ــهِ ثِيَابَهَـا ذَهَبًـــا وَعِطْــرَا هَـارُوْتَ يَنْفُـثُ فِيْـهِ سِـحْرَا	مجزوء الكامل	بشار بن برد	١٥٣
ولسـتُ بِخالـعٍ دِرْعِي وَسَـيفي	إلى أن يَخلَــعَ اللَّيـلَ النَّهــــارُ	وافر	المهلهل	١٨١
كُنَّا كغُصنَينِ في جُرْثُومَةٍ بَسَقَا حتّى إذا قيلَ قد طالتْ فُروعُهما أخنى على واحدٍ رَيْبُ الزّمانِ وما كُنَّــا كأنْجُـمِ لَيلٍ بينهمـا قمـرٌ	حِينًا على خيرِ ما يُنمى له الشَّـجَرُ وطـابَ غرسُـهما واستوسقَ الثَّمَرُ يُبـقي الزّمـانُ على شيءٍ ولا يَذَرُ يَجلو الدُّجى فهَوى مِن بيننا القمـرُ	بسيط	صفيّة بنت عمرو	١٧٨
كأنَّ عيـني لِذِكـراهُ إذا خطَرَتْ	فيضٌ يَسـيلُ على الخَدَّينِ مِـدْرارُ	=	الخنساء	١٧٧
كأنَّ عَيْـنِيَ لـمـَّـا أنْ ذكرْتهُـمُ	غُصْنٌ بَراحٌ مِـن الطَّرفاءِ مَمْطُورُ	=	فاطمة بنت الأحجم	١٧٦
حتَّى استكانُوا، وهمْ منِّي على مضضٍ	القـولُ يَنفَـذُ مـا لا يَنفُـذُ الإبَرُ	=	الأخطل	٢٣٧
أَمَاوِيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الفَتى إِذَا أَنَا دَلَّانِي الَّذِيْـنَ أُحِبُّهُـمْ وَرَاحُـوْا عِجَالًا يَنْفُضُوْنَ أَكُفَّهُمْ تَرَى أَنَّ مَا أَهْلَكْتُ لَمْ يَكُ ضَرَّنِي	إِذا حَشْرَجَتْ نَفْسٌ وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ لِمَلْحُـودَةٍ زَلْـجٍ، جَوَانِبُهَـا غُـبْرُ يَقُوْلُوْنَ قَـدْ دَمَّى أَنَـامِلَنَا الحَفْـرُ وَأَنَّ يَـدِي مِمَّـا بَخِلْـتُ بِهِ صِفْرُ	طويل	حاتم الطائي	١٦٦
فَقِدْمًا عَصَيتُ العَاذِلَاتِ وَسُلِّطَتْ	عَلَى مُصْطـفَى مَـالِي أَنَامِلِيَ العَشْرُ	=	--	١٦٥

البيت	البحر	الشاعر	الصفحة
مَـنْ مُبلِغٌ عَمرَو بـنَ هندٍ آيةً؟ ومِـنَ النَّصيحـةِ كَـثرةُ الإنـذارِ	كامل	النابغة الذبياني	٢٣١
لاقُـوا غـداةَ قُـلابَ حَتفَهُـمُ سـوقَ العَتِـيرِ يُسـاقُ للعِـتْرِ	كامل	الخرنق	٢٢٤
لا يَبعَـدَنْ قَـوْمي الذيـن هُـمُ سُـمُّ العُـدَاةِ وآفـةُ الجُـزْرِ النَّازلـــونَ بكـــلّ مُعْـتَرَكٍ والطَّيِّبـــون مَعـاقِــــدَ الأُزْرِ إن يشربُـوا يَهَبُـوا، وإن يَذَروا يتواعظـوا عـن مَنْطـقِ الهُجْـرِ قَـوْمٌ إذا ركِبُـوا سَـمِعْتَ لهم لَغَطًـا مـن التَّأييـهِ والزَّجْـرِ مِنْ غَـيْرِ ما فُحْشٍ يكُونُ بِهِم في مَنْتَـجِ المُهُـراتِ والـمُهْـرِ	مجزوء الكامل	--	١١٦
إنَّ الـحُمُولَ التي راحَتْ مُهجِّرةً يَتبَعْـنَ كلَّ سـفيهِ الـرَّأيِ مِغيارِ	بسيط	النابغة الذبياني	٢٢٩
انقضَّ كالكَوكبِ الدُّرِّيِّ مُنْصَلِتًا يَهـوِي ويَخلِـطُ تَقريبًـا بإحضارِ	=	--	١٧٥
أَهْوَى لَهُ قَـانِصٌ يَسْـعَى بِأَكْلُبِهِ عَارِي الأَشَـاجِعِ مِنْ قُنَّاصِ أَنْمَارِ مُحَالِفُ الصَّيْـدِ هَبَّـاشٌ لَهُ لَحَمٌ مَا إِنْ عَلَيْهِ ثِيَـــابٌ غَيْرُ أَطْمَارِ يَسْعَى بِغُضْفٍ بَرَاهَا فَهْيَ طَاوِيَةٌ طُـــوْلُ ارْتِحَـالٍ بِهَا مِنْهُ وَتَسْـيَارِ حَتَّى إِذَا الثَّـوْرُ بَعْدَ النَّفرِ أَمْكَنَهُ أَشْـلَى وَأَرْسَـلَ غُضْفًا كُلُّهَـا ضَارِ	=	--	١٧١
نُبِّئتُ نُعْمًـا على الهِجْرانِ عاتِبةً سَـقيًا ورَعيًا لذاكَ العَاتِبِ الزَّاري	=	--	٢٢٨
رُبَّ رامٍ مِـــن بـني ثُعَـلٍ مُتْلِـجٌ كَفَّيـهِ فِيْ قُتَـرِهْ عَارِضٍ زَوْراءَ مِـنْ نَشَـمٍ غَيْـــــرِ بَانَـــــاةٍ عَلَى وَتَـرِهْ قَـدْ أَتَتْـهُ الــوَحْـشُ وَارِدَةً فَتَنَـحَّى الـنَّزْعُ فِيْ يَـسَرِهْ فَــرَمَـاهَـا فِيْ فَرَائِصَـها بِـإِزَاءِ الحَـوْضِ أَوْ عُقَـرِهْ بِــرَهِيْـشٍ مِـــنْ كِنَانَتِـهِ كَتَلَظِّـي الجَمْـرِ في شَرَرِهْ رَاشَـهُ مِـنْ رِيْـشِ ناهِضـةٍ ثُـمَّ أَمْهَـاهُ عَـــلَى حَجَـرِهْ فَهْـوَ لَا تَنْـمي رَمِيَّتُـهُ مَــا لَهُ لَا عُـدَّ مِـنْ نَفَـرِهْ مُطْعَـــمٌ لِلصَّيْـدِ لَيْـس لَهُ غَيْرَهَـا كَسْـبٌ عَلَى كِـبَرِهْ	مديد	امرؤ القيس	١٦٤

البيت		البحر	الشاعر	الصفحة
وما تشتكيني جارتي غيرَ أنَّها	إذا غابَ عنها زوجُها لا أزورُها	طويل	حاتم الطائي	٢٢٨
وَغَمْرةِ موتٍ ليس فيها هَوادةٌ	يكونُ صُدورَ المَشْرفِيِّ جُسُورُها	طويل	حاتم الطائي	١٧٨
	س			
فَإِمَّا تَرَيْنِي لَا أُغَمِّضُ سَاعَةً فَيا رُبَّ مَكْرُوبٍ كَرَرْتُ وَرَاءَهُ وَيَا رُبَّ يَوْمٍ قَدْ أَرُوحُ مُرَجَّلا وَمَا خِفْتُ تَبْرِيحَ الحَيَاةِ كَمَا أَرَى	مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَنْ أُكِبَّ فَأَنْعَسَا وَطَاعَنْتُ عَنْهُ الخَيْلَ حَتَّى تَنَفَّسِا حَبِيْبًا إِلَى البِيْضِ الكَوَاعِبِ أَمْلَسَا تَضِيْقُ ذِراعِي أَنْ أَقُوْمَ فَأَلبَسَا	=	امرؤ القيس	١٦٧
	ص			
تَبِيْتُونَ فِي المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكُمْ	وَجَارَاتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا	=	الأعشى	٢٥١
	ض			
كَأَنَّ الفَتَى لَمْ يَغْنَ فِي النَّاسِ لَيْلَةً	إِذَا اخْتَلَفَ اللَّحْيانِ عِنْدَ الجَرِيْضِ	=	امرؤ القيس	١٦٥
	ع			
الألمعيّ الذي يظُنُّ بِكَ الظَّـ	ـنَّ كأَنْ قد رأى وقد سَمِعا	منسرح	أوس بن حجر	٢٥٣
	ق			
وإنَّ أحسنَ بَيْتٍ أنْتَ قائِلُهُ	بَيْتٌ يُقَالُ، إذا أنْشَدْتَهُ صَدَقَا	بسيط	طرفة بن العبد	١١٩
بَيْضَاءُ مَا مَسَّها عَارٌ وَمَنْقَصَةٌ	زَهْرَاءُ نَيِّرَةٌ كَالنَّجْمِ فِي الأُفُقِ	=	فيض السهارنفوري	١٦١
وبعدَ بني ضُبيعةَ حولَ بِشْرٍ	كما مالَ الجُذوعُ مِنَ الحريقِ	وافر	الخرنق	٢٢٤

البيت	البحر	الشاعر	الصفحة
ك			
كأنَّكَ عندَ الطَّعنِ في حَومةِ الوَغى تَفِرُّ مِنَ الصَّفِّ الذي مِنْ ورائِكا	طويل	بكر بن النطّاح	٢٥٣
ل			
ولَيْسَ أَخُوكَ الدَّائِمُ العَهْدِ بالذي يَذمُّـكَ إِنْ وَلَّى ويُرْضِيـكَ مُقْبِلا ولكنَّـهُ النَّائِــي إذا كنتَ آمِنًا وصاحِبُكَ الأَدْنَى إذا الأَمْرُ أَعْضَلا	طويل	أوس بن حجر	١٩٨
القائِـلُ القَـوْلَ الّذي مِثْلُـهُ يَمْـرَعُ مِنْـهُ البَـلَدُ الـمَاحِـلُ	سريع	عبيد بن الأبرص	١١٩-١٨٢
يابِسُ الجَنْبَيـنِ، مِن غيرِ بُـؤسٍ ونَـدِيُّ الكَفَّيْـنِ، شَـهْـمٌ، مُـدِلُّ	مديد	تأبّط شرًّا	١٩٨
تُمَشِّي بها حُوْلُ النَّعـام كأنّها إمـاءٌ تُـزَجَّى بالعَـشِيِّ حَوامِـلُ	طويل	الأخنس بن شهاب	١٧٩
يَظَلُّ العَـذارى يرتمِيْنَ بلحْمِها وشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ الـمُفَتَّلِ	=	امرؤ القيس	١٨٨
فقلـتُ: يمينُ اللهِ أبـرحُ قاعدًا ولو قطَّعـوا رأسي لديكِ وأوصالي	=	---	٢٣٠
وذي نِعمةٍ تمَّمْتَها وشكرْتَها وخَصْمٍ يكادُ يغلِبُ الحقَّ باطِلُهْ دفعتُ بمعروفٍ من القول صائبٍ إذا ما أَضَـلَّ النَّاطِقينَ مَفاصِلُهْ وذي خَطَلٍ في القولِ يحسِبُ أنّهُ مُصيبٌ فمـا يُلمِمْ بِهِ فهْـو قائلُهْ عَبأْتَ لهُ حلمًا، وأكرمْتَ غيرَهُ وأَعْرَضْتَ عنْهُ، وهْو بادٍ مَقاتِلُهْ	=	زهير بن أبي سلمى	١١٥
م			
النَّشْـرُ مِسْــكٌ والوُجوهُ دَنَــا نيـرُ، وأطْـرَافُ الأكُـفِّ عَنَـم	سريع	المرقّش الأكبر	١٩٢

البيت	البحر	الشاعر	الصفحة
الدَّارُ قَفْـرٌ والرُّسُـومُ كَمَـا رقَّـشَ في ظهـر الأديـمِ قَلَـمْ	=	---	٢٠٠
تَحيدُ عن أَسْـتَنٍ سُـودٍ أسـافلُهُ مَشْيَ الإماءِ الغَوادي تَحمِلُ الحِزَما	بسيط	النابغة الذبياني	١٧٩
مُـوَلِّيَ الرِّيـح رَوْقَيْـهِ وجَبْهَتَـه كالهِـبْرَقِيِّ تَنَـحَّى يَنْفُـخُ الفَحَمـا	=	---	١٧٩
ولمـّا اكفهرَّتْ مِن عَلَيْهِم سَحابةٌ إذا بَرَقَـتْ بالموتِ أمطـرتِ الدَّمَا	طويل	أم صريع	١٥٥
بَرِمَـتْ بنـو أَسَـدٍ كَمَـا بَرِمَـتْ بِبَيْضَتِهـا الحَمَامَـهْ جعلـتْ لهـا عُودَيـنِ مِـن نَشَـمٍ وآخـرَ مـن ثُمامَـــهْ	مجزوء الكامل	عبيد بن الأبرص	١٨٠
وَإِنْ سُـدَّتْ بِهِ لهَـوَاتُ ثَغْرٍ يُشَـارُ إلَيْـهِ، جَانِبُـهُ سَـقِيْمُ مَخُـوْفٍ بَأْسُـهُ يَكْلَاكَ مِنْهُ عَتِيْـقٌ لَا أَلَـفٌّ وَلَا سَـؤُوْمُ تُطالِعُنـا خَيـالاتٌ لِسَـلمى كَما يَتَطَـلَّعُ الدَّيـنَ الغَرِيمُ	وافر	زهير بن أبي سُلمى	١٧٤
كسُـطُورِ الـرِّقِّ، رَقَّشَـهُ بالضُّحَى، مُرَقِّشٌ يَشِـمُهْ	مديد	طرفة بن العبد	٢٠١
وجَلا السُّيولُ عَنِ الطُّلولِ كأنَّها زُبُـرٌ تُجِدُّ مُتونَهـا أَقْلامُهـا	كامل	لبيد بن ربيعة	٢٥١
تعلـوُ طَريقـةَ مَتْنِهَـا مُتَواتِـرٌ في ليلـةٍ كَفَـرَ النُّجُـومَ غَمامُها	=	--	٢٥٢
غُلْـبٌ تَشَذَّرُ بالذُّحُـولِ كأنَّها جِـنُّ البَـدِيِّ رَوَاسِـيًا أقدامُـها	=	--	١٨٩
وَبِكْـرٍ كَنَـوَّارِ الرَّبِيْعِ حَدِيْثُهَا تَـرُوقُ بوَجْـهٍ وَاضِـحٍ وَقَـوَام	طويل	بشار بن برد	١٥٣
عَلَى الرَّاحَتَـيْنِ مَـرَّةً وَعَلَى العَصَا أَنُـوْءُ ثَـلَاثًـا بَعْـدَهُنَّ قِيَامي	=	عمرو بن قميئة	١٧١
[أَطَعْتُكَ يا إِبْلِيسُ سِبْعِينَ حِجَّةً فلمَّـا انْتَـهى شَـيْبِي وتَـمَّ تَمَامي فَـرَرْتُ إلى رَبِّي، وأَيْقَنْـتُ أَنَّـني مُـلاقٍ لِأَيَّـامِ الـمَنَـونِ حِمَـامي]	=	الفرزدق	٢٣٤

البيت	البحر	الشاعر	الصفحة
وَتَجْهَـلُ أيْدِينَـا وَيَحْلُـمُ رَأيُنَـا وَنَشْـتِمُ بِالأفْعـالِ لا بِالتَّكَلُّـمِ	=	معبد بن علقمة	١٩٧
فجـاؤوا عارضًـا بَـرِدًا وجئْنـا كهيـج الرِّيـح تقـذف بالغمـامِ	وافر	معقل بن خويلد	١٨٢
فَسَـقَى ديارَكَ غـيرَ مُفْسِـدِها صَـوْبُ الرَّبيـعِ وديمـةٌ تَهـمي	كامل	طرفة بن العبد	٢٣٢
ن			
فكأنَّـهُ والطَّعـنُ مـن قُدَّامِـهِ مُتَخـوِّفٌ مِـنْ خَلْفِـهِ أن يُطعَنا	طويل	المتنبي	٢٥٣
نَفَتِ التَّوهُّـمَ عنهُ حِـدَّةُ ذِهنِهِ فَقَـضَى على غَيْبِ الأُمُـورِ تَيَقُّنا	طويل	المتنبي	٢٥٣
وَمَأْكَمَـة يَضيـقُ البـابُ عَنْهَا وكَشْـحٍ قـد جُنِنْـتُ بـه جُنُونـا	وافر	عمرو بن كلثوم	٢٠٢
فـإنْ أَهْلِكْ فَقَـدْ أَبْقَيْـتُ بَعْدِي قَـوَافِيَ تُعْجِـبُ الـمُتَمَثِّلِينَـا لَذِيـذاتِ المقاطِـعِ مُحكَمـاتٍ لـو انَّ الشِّـعرَ يُلبَـسُ لارتُدِينـا	=	ابن ميّادة	٢٥٦
فجـاؤوا عارضًـا بَـرِدًا وجئْنـا كَمِثْـلِ السَّـيلِ نَركَـبُ وازعينـا فَلمـّا لـم نَدَعْ قوسًـا وسَـهمًا مشَـينا نحوَهـم ومشَـوا إلينـا تـلألُـؤَ مُزْنـةٍ بَرقَـتْ لأُخـرى إذا حجَـلوا بأسـيافٍ رَدَيْنـا	=	عبد الشارق الجُهَني	١٨٢
إِذَا بَلَـغَ الفِطَـامَ لَنَـا صَـبِيٌّ تَخِـرُّ لَـــهُ الجَبَابِرُ سَـاجِدِيْنَا	=	عمرو بن كلثوم	٢٠٢
لا يَفطنـونَ لِعَيـبِ جارِهِـمْ وهُـمُ لحُسْـنِ جِـوارِهِ فُطْـنُ	كامل	قيس بن عاصم المنقري	١٩٧
مَشَـيْنا مِشْـيةَ اللَّيـثِ غَـدَاء، واللَّيْـثُ غَضْبـانُ	الهزج	الفند الزِّمَّاني	١٩٠

البيت		البحر	الشاعر	الصفحة
أَلَا أَبْلِــــغْ لَدَيْـكَ بَـنِي تَمِيْـمٍ	وَقَـــدْ يَأْتِيْــكَ بِالخَــبَرِ الظَّنُــونُ	وافر	زهير بن أبي سُلمى	١٦٩
بِـأَنَّ بُيُــوْتَنَـا بِمَحَـلِّ حَجْـرٍ	بِكُـلِّ قَـــرَارَةٍ مِنْهَـا نَكُـــوْنُ			
إِلَى قَلَـهَى تَكُـوْنُ الدَّارُ مِنَّـا	إِلَى أَكْنَـافِ دَوْمَـةَ فَالحَجُـوْنُ			
بِأَوْدِيَـةٍ أَسَـــافِلُهُنَّ رَوْضٌ	وَأَعْـلَاهَـا إِذَا خِفْنَـا حُصُـوْنُ			
نَحُـلُّ سُـهُــوْلَهَا فَـإِذَا فَزِعْنَـا	جَـــرَى مِنْهُــنَّ بِالآصَـالِ عُوْنُ			
بِكُـلِّ طُـوَالَـةٍ وَأَقَـبَّ نَهْـدٍ	مَـرَاكِلُهَـا مِـنَ التَّعْـدَاءِ جُـوْنُ			
تُضَمَّـرُ بِالأَصَائِـلِ كُلَّ يَـوْمٍ	تُسَـنُّ عَلَى سَـنَابِكِهَا القُـرُوْنُ			
أَلَا زَعَمَـتْ بَنُـو كَعْـبٍ بِـأني	ـ أَلَا كَذَبُـوا ـ كَبِـيرُ السِّـنِّ فانِ	=	النابغة الجعدي	٢٣٢
فَدَمْعُهُما سَـكْبٌ وَسَـحٌّ وِديمةٌ	وَرَشٌّ وَتَــوْكافٌ وتَنهَمِــلانِ	طويل	امرؤ القيس	١٧٧
هـ				
قَــذَاهَـا أَنَّ صَاحِبَهـا بَخِيْـلٌ	يُحَاسِـبُ نَفْسَـهُ بِكَـمِ اشْـتَرَاهَا	وافر	النابغة الذبياني	١٧٠
ي				
حَلَفْنَا لهم والخيلُ تَردي بنا معًا	نُزايِلُكُــمْ حــتّى تَهِــرُّوا العَواليَـا	طويل	عنترة	١٨٠
عَــواليَ زُرْقًــا مِن رمـاحِ رُدَينـةٍ	هَريـرَ الـكلابِ يتَّقِينَ الأفــاعِيَا			
فَـإِنَّ الَّـتِي حُدِّثْتَهَـا فِي أُنُوْفِنَـا	وَأَعْنَاقِنَـا مِـنَ الإِبَـاءِ كَمَـا هِيَا	=	جُزء بن كليب الفقعسي	١٣٧
يُهَزْهِـزُونَ مِـن الخَطِّـيِّ مُدْمَجَةً	كُمْـتًـا أَنابيبُها زُرْقًـا عَـوَالِيـها	بسيط	المهلهل	١٩٧

* * *

فهرس الأعلام

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

- الأزياء عند العرب عبر العصور المتعاقبة: د. عبد العزيز حميد صالح، دار كتاب ناشرون، بيروت، ٢٠١٨م.
- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين: للخالديين، تحقيق السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
- إعجاز القرآن: الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٩٧م.
- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.
- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٣٦م. (وهي المرادة عند الإطلاق).
- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق د. إحسان عباس، د. إبراهيم السعافين، د. بكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١م.
- الإلياذة: هوميروس، ترجمة سليمان البستاني، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، د.ط.ت.
- الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزوينيّ، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجيّ، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م.

- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي، اعتنى به صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- البديع: ابن المعتزّ، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس: إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م.
- بلاغة الخطاب وعلم النصّ: صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٦٤، الكويت ١٩٩٢.
- البلاغة والأسلوبية: هنريش بليث، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، منشورات دراسات سال، الدار البيضاء ١٩٨٩.
- البلاغة العربية: عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
- البلاغة العربية؛ أصولها وامتداداتها: محمد العمري، أفريقيا الشرق، بيروت- الدار البيضاء، ١٩٩٩.
- بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز): الخطّابيّ، حقّقها وعلّق عليها: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلّام، ط٣ دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨.
- البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٩٨م.
- التداولية من أوستين إلى غوفمان: فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية ٢٠٠٧.
- التفكير البياني عند العرب؛ قراءة تداولية: د. عامر خليل الجراح، دار سنابل، إسطنبول، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ابن الأثير، تح: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، العراق ١٣٧٥هـ.
- جمهرة خطب العرب: أحمد زكي صفوت، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٣٣م.
- الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه: د. محمود زيادة، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

- حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة: محمد ولد سالم الأمين، منشورات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس ٢٠٠٤.
- الحيوان: للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.
- خاص الخاص: الثعالبي، تحقيق حسن الأمين، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط.ت.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧م.
- الخصائص: ابن جنّي، تح: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩م.
- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.
- ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، ١٩٥٠م.
- ديوان امرئ القيس: امرؤ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، د.ت.
- ديوان أوس بن حجَر، تحقيق وشرح: محمّد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
- ديوان بشار بن برد: تحقيق وجمع وشرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الجزائر، إصدارات وزارة الثقافة، د.ط، ٢٠٠٧م. وهي المرادة عند الإطلاق.
- ديوان بشار بن برد: تحقيق السيد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
- ديوان البوصيري: البوصيري، تحقيق محمد سعيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٥م.
- ديوان تأبط شرًّا وأخباره: جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.
- ديوان جرير بشرح محمّد بن حبيب، تح: نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، د.ت.

- ديوان جارِ الله الزّمخشريّ، شرح فاطمة يوسف الخيمي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- ديوان الحارث بن حلّزة، صنعة د. مروان العطية، دار الإمام النووي للنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
- ديوان الخزنق بنت بدر، رواية أبي عمرو بن العلاء، تحقيق يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- ديوان الخنساء بشرح ثعلب، تح: أنور أبو سُوَيلم، دار عمّار، عَمّان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م. وهي المرادة عند الإطلاق.
- ديوان الخنساء، شرحه وضبط نصوصَه وقدَّم له: عمر فاروق الطّبّاع، دار الأرقم، بيروت، د.ط.ت.
- ديوان دُريد بن الصِّمَّة: تحقيق د. عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ديوان ذي الرُّمَّة: تحقيق عبد القدّوس أبو صالح، مؤسّسة الإيمان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطَّائيّ وأخباره، صنعة يحي بن مدرك الطائيّ-رواية ابن الكلبيّ، دراسة وتحقيق د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م. (وهي المرادة عند الإطلاق). إضافة إلى ديوان حاتم الطائي، شرح وتحقيق أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- ديوان شعر المتلمس الضبعي: رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، ١٩٧٠م.
- ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلم الشنتمري: طرفة بن العبد، تحقيق درية الخطيب، لطفي الصقال، إدارة الثقافة والفنون في البحرين، المؤسسة العربية في بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.
- ديوان أبي الطيب المتنبيّ، تحقيق د. عبد الوهاب عزّام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٣هـ.
- ديوان عبيد بن الأبرص: شرح أحمد أشرف عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

- ديوان عمرو بن قميئة: تحقيق وتعليق حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، الطبعة الأولى، ١٣٨٥/١٩٦٥.
- ديوان عمرو بن كلثوم: تحقيق أيمن ميدان، النادي الثقافي الأدبي، جدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- ديوان عنترة بن شدّاد، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، (د.ت).
- ديوان ابن الفارض: الشيخ عمر بن الفارض، المكتبة الحسينية، مصر، الطَّبعة الأولى، ١٩١٣م.
- ديوان أبي فراس الحمداني: الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي(٣٥٧هـ) شرح معانيه: نخلة قلفاط، بيروت، المكتبة الأدبية، الطبعة الأولى، ١٩١٠م.
- ديوان الفرزدق: شرح وتحقيق إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبنانيّ، مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- ديوان القطامي: تحقيق د. إبراهيم السامرائي، د. أحمد مطلوب، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م.
- ديوان قيس بن الخطيم: ت: ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، د. ط.ت.
- ديوان المُرقِّشَيْن، تحقيق كارين صادر، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالميّة،
- ديوان النابغة الجعديّ، جمعه وحقّقه وشرحه د. واضح الصّمد، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- ديوان النابغة الذبياني: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت. وهي المرادة عند الإطلاق.
- ديوان النابغة الذبياني، شرح وتحقيق كرم البستاني، دار صادر، دار بيروت للطباعة، بيروت، ١٩٦٣م.
- ديوان أبي النجم العجلي: الفضل بن قدامة، جمعه وشرحه وحققه محمد أديب عبد الواحد جمران، مجمع اللغة العربية، دمشق، ٢٠٠٦م.

- ديوان أبي نواس: رواية الصوليّ، تح: بهجت عبد الغفور الحديثي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.
- السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج: صديق حسن خان الحسيني القنوجي(ت١٣٠٧ هـ) ت: عبدالله الأنصاري، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د. ط، ١٩٩٥م. وكذلك طبعة دار الكتب العلمية.
- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام: جمعه ورتبه بشير يموت، المطبعة الأهلية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٣٤م.
- شرح أبيات مغني اللبيب: عبد القادر البغدادي، تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- شرح أشعار الهذليين: لأبي سعيد السكري، تحقيق عبد الستار فرَّاج، راجعه محمود شاكر، دار إحياء التراث، القاهرة، مطبعة المدني، جدة، د.ت.
- شرح ديوان الحماسة: للمرزوقي، تحقيق أحمد أمين، عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
- شرح ديوان الحماسة: للخطيب التبريزي، سرق حواشيه غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م. وهي المرادة عند الإطلاق.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامريّ: حقَّقه وقدَّم له د. إحسان عبّاس، سلسلة التراث العربي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٦٢م.
- شرح شعر زهير بن أبي سلمى: أبو العباس ثعلب، تحقيق د. فخر الدين قباوة، مكتبة هارون الرشيد للتوزيع، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٨م.
- شرح شواهد المغني: للسيوطي، علق عليه أحمد ظافر كوجان، عليه تعليقات محمد محمود التلاميد الشنقيطي، لجنة إحياء التراث، ١٩٦٦م.
- شعر الأخطل التغلبيّ، صنعة السكريّ روايته عن أبي جعفر محمد بن حبيب، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٩٦م.

- شعر الإمام عبد الحميد الفراهي: الإمام عبد الحميد الفراهي، دراسة وتحقيق د. محمد خالد الرهاوي، د. عامر خليل الجراح، دار سنابل، إسطنبول، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.
- شعر بكر بن النطّاح، صنعة د. حاتم صالح الضامن، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٧٥م. (مستل من الأعداد ٢- ٥ من مجلة البلاغ).
- شعر ابن ميادة، جمعه وحققه د. حنا جميل حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٢م.
- شعر نُصيب بن رباح: جمع وتقديم د. داود سلُّوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٧م.
- الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- ضرائر الشعر: ابن عصفور، تحقيق سيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.
- طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة،
- ظهر البلد: إيف بونفوا، ترجمة محمد بن صالح، الدار التونسية للكتاب، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
- العقد الفريد: ابن عبد ربّه الأندلسي، تح: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: السبكي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- علم الأسلوب: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة ١٩٩١م.
- علم الدلالة «علم المعنى»: د. محمد علي الخولي، دار الفلاح للنشر، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.
- الفردوس المفقود: جون ملتون، ترجمة حنا عبود، الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، ٢٠١١م.
- فن الشعر: أرسطو، ترجمة د. إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط.ت. إضافة إلى ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

- فنّ القول: أمين الخولي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٦.
- القاعدة النحوية في ضوء علم المعاني: د. محمد خالد الرهاوي، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، تح: محمد شرف الدين يالتقايا، ورفعت بيلكه الكليسى، دار إحياء التراث، بيروت (د.ت).
- الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرِّد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م.
- كتاب سيبويه: سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السادسة، ٢٠١٣م.
- لباب الآداب: الثعالبي، تحقيق أحمد حسن لبج، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- مجمع الأمثال: الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د.ط.ت.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: الراغب الأصفهاني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط.ت.
- المحبر: محمد بن حبيب بن أمية (٢٤٥ هـ)، تحقيق إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ط.ت.
- مداخل إعجاز القرآن: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة- دار المدني بجدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي القاري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

- المعارف: ابن قتيبة، تحقيق ثروة عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
- معاهد التنصيص على شواهد التوضيح: عبد الرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، د.ت.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطيّ، تح: علي محمّد البجاويّ، دار الفكر العربيّ (د.ت).
- معجم الفلاسفة: جورج طرابشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م.
- المعجم الفلسفي: جورج صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، القاهرة،
- المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج١٦ إعجاز القرآن: القاضي عبد الجبار، قوّم نصّه على نسختين خطّيتين: أمين الخولي، دار الكتب، مصر (د.ت).
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري، تحقيق د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، راجعه سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.
- مفتاح العلوم: السكاكي، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- المفصل في إعراب الجمل: د. عمر مصطفى، د. محمد خالد الرهاوي، دار الينابيع، دمشق، الطبعة الثالثة، ٢٠١١م.
- المنازل والديار: أسامة بن منقذ، تحقيق مصطفى حجازي، دار سعاد الصباح، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- المنمق في أخبار قريش: محمد بن حبيب بن أمية (٢٤٥ هـ)، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الرابعة، (د.ت).
- الموسوعة العربية العالمية: مجموعة من الباحثين، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: المرزباني، عنيت بنشره جمعية نشر الكتب العربية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٣هـ.
- النحو والصرف: د. عاصم بيطار، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١٨م.
- نظام القرآن وتفسير الفرقان بالفرقان: الإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، الهند، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- النفعية: جون ستيوارت ميل، ترجمة سعاد شاهر لي حرار، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
- نقد الشعر: قدامة بن جعفر، تحقيق د. عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط.ت.
- النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز): الرمّانيّ، حقّقها وعلّق عليها: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلّام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨م.
- نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي): السيوطيّ، جامعة أم القرى ـ كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٥م.
- الوِساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجانيّ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاويّ، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ، القاهرة، د.ت.

الرسائل الجامعية:

- الأبعاد التداولية في البلاغة العربية حتّى القرن السابع الهجريّ، عامر خليل الجرّاح، رسالة دكتوراه، جامعة حلب، ٢٠١٣م.
- ألفاظ القتال في الشعر الجاهلي؛ دراسة دلالية، رسالة ماجستير للطالب ناظم اللوقة، جامعة الأزهر، غزة، ٢٠١١م.
- شعرية المكان في الشعر الجاهلي؛ المعلقات العشر أنموذجا، رسالة دكتوراه للطالب بن بغداد أحمد، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، ٢٠١٦م.

- غنية الأريب عن شروح مغني اللبيب: مصطفى رمزي الأنطاكي، رسالة ماجستير، دراسة وتحقيق محمد خالد الرهاوي، جامعة دمشق، ٢٠٠٧م.

أبحاث المجلات:

- أثر الفكرين النقدي والإعجازي في نشأة البلاغة: عامر خليل الجرّاح، بحث أُلقي في مؤتمر: علوم اللغة والفكر والدين؛ الإشكالات القديمة والمحاكمات الحديثة، جامعة ماردين أرتقلو ٢٠١٩.
- إشكالية زيادة المبنى ودلالتها في زيادة المعنى: د. محمد ذنون يونس، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، المجلد٨، العدد ٤، ٢٠١٨م.
- البلاغة الحيّة بين القيم الأسلوبيّة والتداوليّة؛ فنون البديع نموذجًا: عامر خليل الجرّاح، مجلة بلاد ما بين النهرين JMS ، معهد اللغات الحيّة بجامعة ماردين أرتقلو، ماردين ٢٠١٩، ع٢.
- جمالية التعبير بالحركة: د. محمد خالد الرهاوي، حوليات الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، الجزائر، العدد ١٣، ٢٠١٩م.
- جمالية التعبير المكاني في الشعر القديم للدكتور عمارة الجدّاري، مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية، العدد ٣٨، ٢٠١٨م.
- ملامح الصورة المكانية في الشعر الجاهلي لأحمد يحي عنوز، مجلة جامعة ديالى، العدد السابع والسبعون، ٢٠١٨م.

الأبحاث على المواقع الإلكترونية:

- ديوان الفيض بتحقيق د. ظهور أحمد أظهر؛ دراسة ونقد: للدكتور أورنك زيب الأعظمي، موقع الألوكة.

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

❊ ❊ ❊

من كتب سلسلة تراث
الإمام عبد الحميد الفراهيّ

من كتب سلسلة تراث الإمام عبد الحميد الفراهيّ الهندي التي سنصدرها إن شاء الله تعالى:

١ ـ شعر الإمام عبد الحميد الفراهيّ الهنديّ.

٢ ـ جمهرة البلاغة.

٣ ـ دلائل النظام القرآني.

٤ ـ أساليب القرآن.

٥ ـ التكميل في أصول التأويل.

٦ ـ أوصاف القرآن.

٧ ـ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان.

*** من الكتب المطبوعة للدكتور محمد خالد الرهاوي:**

١ ـ القاعدة النّحوية في ضوء علم المعاني، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض.

٢ ـ المفصل في إعراب الجمل، دار الينابيع، دمشق.

٣ ـ مباحث في علم المعاني؛ قراءات في أسرار التراكيب، (بالاشتراك)ن دار الفرقان، حلب.

٤ ـ البيان (سلسلة منهجية لتعليم اللغة العربية لطلبة العلوم الشرعية الناطقين بغير العربية (بالاشتراك)، مركز الاستشراف للأبحاث والدراسات، إسطنبول.

٥ ـ العربية التواصلية؛ سلسلة منهجية لتعليم العربية للناطقين بغيرها، (بالاشتراك)، مركز الاستشراف للأبحاث والدراسات، إسطنبول.

٦ ـ العربية المهنية ٧، العربية المهنية ٩، العربية المهنية ١١، العربية المهنية ١٢، وزارة التربية، تركيا، (بالاشتراك).

٧ ـ أكثر من خمسة عشر بحثًا في مجلات دولية محكمة.

* من الكتب المطبوعة للدكتور عامر خليل الجراح:

١ ـ مباحث في علم المعاني؛ قراءات في أسرار التراكيب، (بالاشتراك)، دار الفرقان، حلب.

٢ ـ العربية التواصلية؛ سلسلة منهجية لتعليم العربية للناطقين بغيرها، (بالاشتراك)، مركز الاستشراف للأبحاث والدراسات، إسطنبول.

٣ ـ النقد العربيّ القديم بين الذوق والمعرفة.

٤ ـ التفكير البياني عند العرب؛ قراءة تداولية.

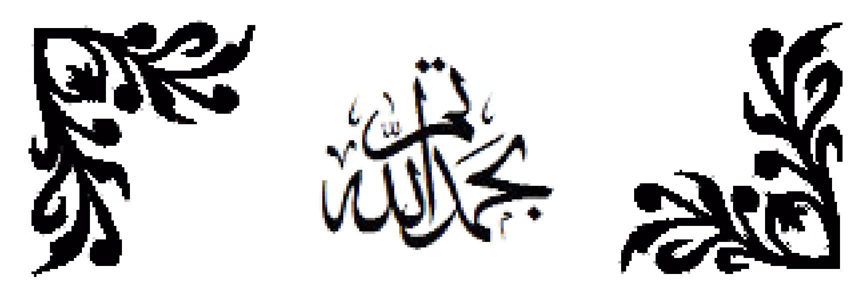
٥ ـ نقد الظواهر الأسلوبية في التراث العربيّ.

٦ ـ الإجراءات التداولية التأثيرية في التراث البلاغي العربيّ بين التأويل والحِجاج والإنجاز.

٧ ـ بلاغة العربية للناطقين بغيرها.

٨ ـ أكثر من عشرة بحوث منشورة في مجلات دولية محكمة.

* * *





تم بحمد الله



كتاب "جمهرة البلاغة" كتابٌ فريدٌ من نوعه، أَلَّفه مسلمٌ في المشرق الإسلاميّ، ولم يصل إلى البلاد العربية؛ ليكونَ صورةً من صُورِ الدَّرسِ البلاغيِّ في القرن العشرين للميلاد...

وأهمُّ ما تجلَّى في الكتابِ تقسيمٌ جديدٌ لم تألفْهُ البلاغةُ العربيَّةُ في تأريخِها الطَّويلِ، وربطُ البلاغةِ بالنَّقدِ، واتِّخاذُها مقياسًا في الأحكام النَّقديَّةِ، ووضوحُ النَّزعةِ الأدبيَّةِ والأُسلوبِ في العرض والتَّحليلِ، وإبداءُ الآراءِ الخاصَّةِ في القضايا المختلفة، ومِن ذلك: نقضُ نظريَّةِ المحاكاةِ لأرسطو، ونقدُ عبدِ القاهر الجرجانيِّ...، ومن هنا تأتي أهمية الكتاب، وتأمُّلُ ما وردَ فيه مِن مباحثَ وآراءٍ يَرفدُ الدَّرسَ البلاغيَّ والنَّقديَّ، ويُضيفُ ما فيه النَّفعُ وإنارةُ السَّبيلِ يومَ تلبسُ البلاغةُ العربيَّةُ ثوبَها الجديدَ.

الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب

رئيس المجمع العلميّ العراقيّ





9 786058 111745